الطبعة الثانية

قصص القرآن
و
ومواعظ الفرقان

آية الله العظمى المرجع الديني
سماحة السيد مرتضى فياض
الحسيني (دام ظله)

قصص القرآن

و

مواعظ الفرقان



سماحة آية الله العظمى

السيد مرتضى فياض

لحسيني (دام ظله)

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب اله العالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين أما بعد فأن قصص الأنبياء ومواعظ الأذكياء كنت قد جمعتها وبوبتها أثناء كتابتي لتفسير القرآن الكريم وكتبته بأسلوب حديث علمي بعيداً عن الأساطير ومجانباً للنظرة العصرية الحداثوية التي تعتمد الماديات فجاء بحمد الله نموذجاً حسناً لأعتمادي على التفسير المفهوم من الآيات الكريمة وتجنبت الأخذ والرد في الكثير من المواضيع وسميته (قصص القرآن ومواعظ الفرقان) فهو ان شاء الله جامع لشتات هذا الفن .

والحمد لله أولاً وخيراً

السيد مرتضى فياض الحسيني

ومن أجل هذا ، كان لِزَاماً على المسلمين ، أن يعودوا من جديد ، فيَرُوضُوا أنفسَهم ، على تَدبُّرِ معانى ما يقرءون ويسمعون .

وهذه الرياضة ، لا تكون إلا بتحبيب القراءة إليهم ، وأحبُّ ألوان القراءة إلى الجماهير ، قراءةُ القصة .

ففى القصة خيال ، وتسلية وترويح ، ثم تهذيب وتأديب ، ثم تفكُّرٌ وتدبُّر ، ثم اتعاظ واعتبار . وتلك مرتبة التقوى ، والتقوى أسمى مراتب العبادة !

* * *

ومن أجل هذا ، كان لزاما علينا ، أن نكتب [قصص من القرآن] نكتبُهُ بلغة سهلة واضحة ، لا تُحْوِجُ قارِئَها إلى جهْدٍ فى الفهم ، ولا إلى بحث فى القاموس .

ليقرأَها المثقَّف ، وليقرأها مَن لم يَنَلْ حظًّا من الثقافة . وليقرءوها جميعاً قراءةَ تَدَبُّرٍ واتعاظٍ واعتبار .

آدم

أول إنسان خلق فى الدنيا ، فهو الإنسان الأول ، وهو أب الخلق أجمعين .
خلقه الله من طين ، ولا غرابة فى أن يكون الإنسان بلحمه وعظمه ودمه مخلوقاً من طين ، فالنبات بحلْوِه ومرّه ، ينبت شجرةً فى الطين .

والله القادر ، خلق الملائكة من النور ، وخلق الجن من النار .

ولقد كرّمْنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضَّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا .

* * *

وكان تكريم الله لآدم ، أن أمر الملائكة أن يسجدوا له ، وليس سجودُهم عبادةً لآدم ، وإنما هو اعترافٌ منهم بأن الله شمله برعايته وتكريمه .

فسجد الملائكةُ لآدم ، طاعةً لأمر الله ، وتكريماً لإنسانٍ خلقه الله .

ولكن الكِبْرَ والغرورَ مَلآ إبليس ، فأبَى أن يطيع الله ، واستكبر أن يسجد لمخلوقٍ من تراب .

فسأله ربُّه : ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدىَّ ؟ أستكبرت ؟ أم كنتَ من العالين ؟

قال : أنا خيرٌ منه ، خلقْتَنى من نار ، وخلقتَه من طين . أهذا الذى كرَّمتَ علىَّ ؟ لئِنْ أخَّرتنى إلى يوم القيامة ، لأَحْتَنِكَنَّ ذرِّيتَه ، إلا قليلا .

قال له ربه : اذهب ، فمن تبعك منهم ، فإن جهنم جزاؤكم جزاءً مَوْفورا ،

واستَفْزِزْ مَن استطعتَ منهم بصوتك ، وأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِك ورَجْلِك ، وشارِكْهم فى الأموال والأولاد ، وعِدْهم ، وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . . .

وركب إبليسُ رأسَه ، وعصى ربَّه ، وخَسِرَ خسراناً مبيناً .

وطرده ربنا من رحمته : فاهبِطْ منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرجْ إنك من الصاغرين .

* * *

وتولى اللهُ برحمته آدم ، فعلَّمه كلَّ أسماء الموجودات ، والمخلوقات فى الدنيا .

ثم امتحن الله الملائكة ، فيما علَّمه آدم ، فقال لهم : أنبِئُونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين .

قالوا : لا علم لنا ، إلا ما علَّمتَنا ، إنك أنتَ العليم الحكيم .

قال : يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيبَ السمواتِ والأرض ، وأعلم ما تُبْدُون ، وما كنتم تكتمون .

* * *

وكرَّم الله آدم ، فقال له اسكنْ أنتَ وزوجُك الجنة ، وكلا منها رغداً ، حيث شئتما .

* * *

والله المنعم ، يحب أن يُشكر على نعمته ، وأسمى مظاهر شكره ، طاعتُه ؛ فإن لم تكنْ طاعة ، فلا شكر ، ومن لم يشكر الله على نعمته ، سلبه هذه النعمة .

* * *

وكذلك كان آدم وزوجته ، حين أمرهما الله ألا يقربا شجرةً بذاتها ، من شجار الجنة ، وألا يأكلا منها .

وما كانت هذه الشجرة ، أطيبَ شجرة ، ولا أحسنَ ثمرة ! ولكنها حكمة الله فى الامتحان والاختبار ، والصبر والاصطبار .

وكيف يُطيق إبليسُ الشيطان ، أن يرى هذين الزوجين ، يسعدان وينعمان فى جنة الله !

وكيف يصبر عليهما ، من دون أن يُنغِّص عليهما ، ويُفسد حياتهما ، ويُغوِيهما ، ويُنسيهما تحذيرَ الله !

وكيف لا يُزيِّن لهما هذه الشجرة ، ويُغريهما بأنها شجرة ، من أكل منها ، أصبح من الملائكة المقرّبين ، وأن مَن ذاقها ، عاش مُخلَّدا أبدَ الآبدين !

وكان ما حذَّر الله أن يكون ! ووسوس الشيطان لآدم ، ووسوس لزوجته حواء ، فأكلا من الشجرة ، ووقعا فى الخطيئة ، وغرقا فى المعصية ، وبدت لهما سوءاتُهما ، وانكشف عنهما سترُ الله ، فظهرت لهما جَسَامةُ العصيان . ودارا فى الجنة ، يقطِفان من أوراقها وأغصانها ، ليسترا ما انكشف منهما ؛ وطار صوابهما ، واطَّلع عليهما ربُّهما من عَليائه ، يقول لهما :

ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقلْ لكما ، إن الشيطان لكما عدو مبين؟
قالا : ربَّنا ظلَمنا أنفسَنا ، وإن لم تغفرْ لنا ، وترحمنا ، لَنكونَنَّ من الخاسرين .
والله غفور رحيم ، أرأفُ بعبده ، غفر له ، فلم يُهلكه ، ولكنْ عاقبه ،

فطرده هو وزوجته من الجنة ، وطرد إبليسَ شريكهما ، وأنزلهما من علياء الجنة ، إلى دنيانا هذه .

إن اهتدينْا ، رضى الله عنا ؛ وإن ضللنا سخط علينا ، وأشقانا . قال : اهْبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينَّكُم منى هدى ، فمن اتَّبع هدٰىَ ، فلا يضل ولا يَشقى ، ومن أعرضَ عن ذِكرى فإن له معيشة ضَنْكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

يا ويلَنا من الشيطان ! أخرج آدم من الجنة ، وما يزال يُخرج أبناء آدم من طاعة الله ، ويبعدهم عن رضوانه !

أىُّ شرٍ فى الدنيا ؟ وأى جريمةٍ فى مجتمع ؟ وأى حربٍ ضروس ؟ وأى عقوقٍ من ابن لوالديه ؟ وأى فضيحة فى أسرة ؟ وأى شقاقٍ بين إخوة ؟

بل أى وسوسة فى صلاة ؟ بل أى شك فى عِرض ؟ بل أى تحريض على قتل ؟ بل أى إغراء بثأر ، بل أى تسامح فى شرف ؟

ليست أى مأساة فى الدنيا ، إلا كان إبليس مبعثَها ، ومُصَمِّمَ خُطَّتِها ، ومُنفِّذَها !

وأى مأساة ، أبشع وأشنع ، من مأساته مع ربه ، فى تحدِّيه وعصيانه !

معركةٌ بين الخير والشر . بين الخير فى طاعة الله ، وبين الشر ، فى الوقوع فى شَرَكِ ابليس الشيطان !

* * *

سبحانك ربى ؛ إننا نخاف غضَبك ، ونخشى عذابَكِ ؛ ماذا أعددتَ لنا من عقاب وعذاب !

كل جريمة آدم ، أنه أكل من شجرة ، وكل الجنة شجرٌ وثمر ، طردتَه من جنتِك ، وهَبَطْتَ به إلى جحيم الأرض .

وها نحن أولاء ، يا رب ، نقتل ونَفْسُق ، ونَعِيثُ فى الأرض فساداً ! غفرانَك ربى ، فلا تؤاخذْنا بجرأتِنا عليك ، ولا تَكِلْنَا إلى إبليس ، حتى لا يَفتِنَنَا عنك .

وألهِمْنا الصوابَ حتى نعود إليك !

معركة الحب

بين بنى آدم

وهبط آدم إلى الأرض ، إلى الدنيا ، ليعيش ويتناسل ، ومنه ومن ذريته يَعْمُرُ الكون ، ويتسع العمران .

وكيف يتكاثر الجنس من زوجين اثنين ؟

وأراد الله أن تحمل حواء وتلد ، وأن تلد توائم ، فى كل بطن ذكر وأنثى ، ولد وبنت ، ثم بنت وولد ، ويكبر هؤلاء وهؤلاء ، ويبلغ الصبيان مبلغ الرجال ، وتكتمل أنوثة البنات .

ويرى آدم ، وهو سليم الفِطرة ، أن يزوج فتى البطن الأولى من فتاة البطن الثانية ، وأن يزوج فتاة البطن الأولى من فتى البطن الثانية .

ودلته فِطرته ، إلى أن الأخ لا يستولد أخته التى كانت معه فى بطن واحد . وخَلَاصٍ واحد . وإنْ استولدها خرج ولدُها ضعيفاً سقيماً ، فلا يتكاثر النسل ، ولا يقوى الجنس ، لفتورِ العاطفة ، وبُرودِ الحاسَّة ، وتغلُّب الحنان على الشهوة ، بين الشقيق والشقيقة ، والتوأم والتوأمة .

حتى نحن فى هذه الأيام ، لا نرضى كثيراً عن زواج الأقارب ، وبَنات الأعمام والأخوال ، ونقول فى الأمثال :

إن من يستحى من بنت عمه ، لا يأتى منها بغلام .

وارتضى آدم ، وزوجته حواء ، وأبناؤه الصبيانُ والصبيات ، هذا النظام الذى رسمه ، والدستورَ الذى قنَّنه .

* * *

ولكن العاطفة حين تغلب على العقل ، والشرَّ حين يتحدَّى الخير ، والشيطانَ حين يُحرِّض على الخروج على القانون ، والعقوق حين يسبق الطاعة ، والجمال حين يستبدُّ بالقُبح والدَّمامة ، والنفسَ الأمارةَ بالسوء .

كل هذا جعل معركة الحب تدور بين قابيل وهابيل من أولاد آدم . قابيل يتعلق بتوأمته الجميلة ، ويضنُّ بها على أخيه هابيل أن يتزوجها ، ويرفض أن يتزوج توأمة هابيل الدَّميمة الصورة ، القبيحة التكوين .

فهو يحب هذه ، ويكره تلك ، ويصر على أن يخرج على الدستور ، وأن يحطم القانون ، وأن يذبحه على مذبح الحب ، مهما اضطرب النظام ، واختل العرف .

ويرى أن جمود القانون ، لا يصد تيار العاطفة الجارف ، ويجيز لنفسه أن يُشبع هواها ، ويُصم أذنيه فلا يستمع لصوت العدل ، وأن يضحى بكل تقليد رسمه أبوه .

* * *

وكانت معركة الحبّ ، وثورة الأثرة ، ونذير الحرب . وكانت حيرة الأب الحنون ، بين ولديه قابيل وهابيل ، بين التمرد والطاعة ، وبين الحق والاغتصاب !

واتجه آدم إلى ربه فى حيرته ، يسأله أن يُلهمه الصواب والهداية ، حتى يعيد الحق إلى نصابه .

فألهمه الله أن يُوجّه ولديه ، إلى الاحتكام لأمر الله ، وأن يتقرّبا إلى الله ، وأن يقدم قابيل قرباناً من زرعه ، وأن يقدم هابيل قرباناً من غنمه .

* * *

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .. فقدم قابيل النمرود قربانه ، ليحصل على معشوقته ، وقدم هابيل قربانه ، ليتحرّى إرادة الله ورضاه فى قربانه . فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

وكانت الجميلة المعشوقة من حظ هابيل . وفاتت الفرصة على قابيل ، فازداد غيظه ، واشتد حَنَقُه ، وملأت الكراهية قلبه ، وجفّت شجرة الأخوة فى صدره ، وطاش عقله ، وتملّك إبليس زِمامه ، وحرّضه على أخيه ، وهمّ به أن يقتله !

وقال له أخوه الطيب هابيل : لئن بَسَطْتَ إلىَّ يَدكَ لتقتلنى ، ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تَبُوء بإثْمِى ، وإثْمِك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين .

هابيل فى حلمه ، يصبر على قابيل فى جنونه وثورته ، وهابيل قوى متين ، يقدر أن يقتله ، ويستطيع أن يبطش به ، ولكنه يخاف الله فى أخيه ، ويُبقِى عليه ، ويتوعّدُه إنْ هو أقدم على قتله ، أن يتحمل ذنوبا لا طاقة له على حملها ، ويتهدّدُه ويخوّفه أن يتردّى ، فى هاوية غضب أبيه ، وغضبُ الأب

من غضب الربّ ، وغضبُ الربِّ يقذف بالعُصاة فى النار ، وذلك جزاء من يطغى ويغتصب حقَّ الآخرين . جزاء مَن يجترئ على نفسٍ فيقتلها ، وعلى روحٍ فيُزْهقها ، وعلى نعمةِ الحياة فيسْلبها .

هدوء ، تُوحِي به خَشْيَةُ الله ، وحَنانٌ زرعتْه الأُخُوَّة ، وحرصٌ على سُمعة الأسرة ، وخضوعٌ لما رسم الدستور والقانون . وتقديرٌ للمسئولية أمام الله وحسابه ، وخوفٌ من عقابه !

وثورةٌ وعقوق ، وأثرةٌ وحبٌّ للنفس ، وانسياقٌ مع الشيطان ، وانزلاقٌ فى الطغيان ، وبُعْدٌ عن ساحة الرحمن ، وعنادٌ وعصيان .

قوتان تصْطَرِعان ، خيرٌ وشر ، وإيمانٌ وكفر ، وجنةٌ ونار ، وميدانٌ للحب الملتهب بعاطفته ، وللعقل المتأنِّى المتزن .

وإبليسُ يلعب بالنار ، ويُغْرِى بالجريمة ، ويَصيحُ بالفتنة ، وكان ما كان ، وقتل الأخ أخاه ، وفَزِعَت الأرض إلى الله ، من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وحَزِن الأب لنُشوب الحرب بين بنيه ، وتمزَّقَ صدره من الأسى ، أظلمت الدنيا فى عينيه .

ورقص إبليس ، وسطَّر فى سِجلِّ الكَوْن أولَ جريمةِ قتل ، وإهراقِ دم ، وإزْهاقِ روح ، لم تكن بين عدوين ، بل كانت بين أخوين .

* * *

وأفاق قابيل على صَرخة الإنسانية ، يَصمُّ أذنيه ، وفتَّح عينيه ، فرأى دماءَ الأُخُوَّةِ الحارَّ ، يسيل تحت قدميه .

أفاق القاتل ، على أنات القتيل !

أفاق ، فرأى أخاه طريحاً جريحاً مُضرَّجاً ، وتمثلتْ له الجريمةُ الأولى ، فساختْ به قدماه ، وخانته عيناه ، فَطَفَرتْ الدموع ، وتتابعتْ الأنفاس بالحسرات !

وماذا يفعل بالراقدِ المطروح ، والجسمِ المجروح ، والعُنق المذبوح ، والريحُ يفُوح ، ومن يا ترى بالسرِّ يبُوح !

وراحت السَّكْرة ، وجاءت الفِكرة ، وتوارَتْ الأَثَرة ، واشتملتْه الحيْرة والحسْرة !

أيتركهُ ؟ وما تعوَّد أن يتركه !

أيرميه فى البحر ؟ ولا بحر !

أيُطعمه للسِّباع ، والنسور الجياع ؟

عذابُ النفس ، وقَلَقُ الضمير ، ولَهِيبُ النَّدم ، وخوفُ العار ، ومُلاحقةُ الفضيحة ؛ قَتَلَ أخٌ أخاه ، وقَتَل قابيلُ هابيل من أجلِ امرأة ! !

* * *

واحتمل جُثَّتَه على ظهره ، ودار بها حَيْران ، لا يدرى ما المصير ؟ وقضى نهارَه مهموماً ، وليـلَه حزيناً ، حتى نَتُنَت الجِيفَة ، وخبُثت الرائحة ، ونَفِدَ الصبر ، وضاق الصدر ، وعزَّ المَخْرَج ، ولم يبق إلا عفو الله ! !

* * *

والله عفُوٌّ غفور .

ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابَّة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

* * *

وكان لابد لهذا الآثم المسكين ، أن تنحلَّ أزْمته ، وتنفرج كربته ، وأن يُعَادَ أمام عينيه تمثيل مأساته ، على مسرح صغير ، يقام أمامه .

* * *

فبعث الله غرابين أسودين ، يتنافسان على فُتَاتٍ من خَشَاشِ الأرض ، فيتشاجران ، فيصْطرعان ، فيقتل أحدهما أخاه ، حتى إذا مات ، هدأت ثورة الغراب القاتل ، وأحسّ بجريمته ، فجثا على جثة أخيه يبكيه ثم حفر فى الأرض ، فدفنه ، وواراه ، وأهال عليه التراب . ثم بلَّل تراب القبر بدموعه ، ثم ركع يودِّعه ، ثم طار وغاب ، كل هذا ، وقابيل ، يشهد هذه المسرحية ، وهو واجم ساهم ، كأنما كانت سياطاً تُلْهب رُوحه وجسده ، وهو لايقوى على تأوّه أو صراخ .

ثم انفجر يبكى بعينيه ، ويلطم خديه ، ويجثو على ركبتيه ، ويقول : ياويلتا ! أعجزْتُ أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارىَ سوأة أخى ، فأصبح من النّادمين .

من أجل ذلك ، كتَبْنا على بنى إسرائيل ، أنه مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً .

ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .

نوح

كانت فترةٌ بين آدم ونوح ، عَمَرَ فيها الكوْن ، ونَضَجَ فيها وَعْى الناس ، وظلَّ الخلْق يعبدون الله ، متدينين بالدين الذى علمهم أبوهم آدم .

فلما طال بهم العهد ، شغلهم المعاش عن دينهم ، فبعدُوا عن ربهم ، وفتَرَتْ حماستهم لتديُّنهم ، وانطمست صورة التوحيد الواضحة فى قلوبهم ، فاتخذوا تماثيل وأصناما يرمزون بها إلى الله ، ثم تخيلوها صورة الله ، وقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله .

* * *

ثم بالغوا فى تصوير التماثيل ، وفى زخرفة الأصنام ، وفى تمجيدها ، والاحتفاء بها ، ثم أسرفوا فى تقديسها ، حتى ألْهتْهم عن الله ، ثم قالوا : هى الله ، وعبدوها من دون الله ، يرجون خيرها ، ويخافون عقابها .

* * *

فكانت حياتهم حياة الكافرين المشركين ، لا إله ولا دين ولا خلق .

* * *

ففسدت حياتهم ، وساءت أخلاقهم ، واضطرب معاشهم ، وفشا العيب فيهم . وعاندوا نبيهم ، واستهزءوا برشدهم ، واستكبر أغنياؤهم ، وهان فقراؤهم .

بل شاع فيهم خيانة الزوجات ، وعقوق الأبناء آباءهم .

* * *

وفى مثل حالهم ، تتجلّى حكمة الله فى أن يرسل الرسل ، ليدرك الخلق

برحمته ، ويرحمهم برسالته ، وينقذهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعود بهم إلى الإنسانية السامية ، والفطرة السليمة .

وأوْحى الله إلى نوح ، أن اهدِ قومك ، ورغِّبْهم فى عبادة الله . وحذِّرْهم عبادةَ الأصنام ، وخوِّفْهم عاقبةَ الشركِ بالله ، وقُلْ لهم : إنى لكم نذيرٌ مبين ، ألا تعبدوا إلا الله ، الذى أبدع الكون ، وخلق الخلق ، ورفع السماء ، وسوّى الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرَّ الضَّرْع ، وسيَّر النجومِ فى الأفلاك ، وأطلع الشمس ، وأزهى القمر ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون .

* * *

ولو حاول المثَّالون ، صانعو التماثيل ، أن يقيموا تمثالا للصبر ، وسَعَةِ الصدر ، وطول البال ، وتحمُّل الأذى ، لما وجدوا أوضح فى التعْبير ، ولا أخْلَدَ للذكرى ، من تمثال نوح .

* * *

لَكَ اللهُ يا نوح ، طوَيْتَ تسعَ مئَةِ سنة ، تدعو قومك إلى الله ، وهم يكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

يا لَكَ من مُعلِّمٍ ، طويل البال ، تقضى العمر كله ، تدعو مَنْ لا يستجيبون ، وتُفهِّم من لا يفهمون !

وما كانوا أغبياء ولا مُغفَّلين ، وإنما كانوا معاندين متكبرين ، والعناد يورث الكفر ، والعياذ بالله .

* * *

ونوحٌ كان معلماً ، وخيرَ معلم ، اجتمع فيه كل صفات المعلم الكامل ، اجتمع له الإخلاص لرسالته ، وتمّتْ له نعمةُ فصاحته ، وطراوةُ لسانِه ، وصفاء بيانه ، ورجاحةُ جنانه ، وبراعةُ طريقته ، وسلامةُ طويّته ، وسعةُ صدرِه ، وسموُّ نفسِه .

حتى كان يترفّع عن إسرافهم فى أذاه ، وعن تبجُّحِهم فى معارضته ، وقِحَتِهم فى مجادلته ، وسخريتهم به ، واستنكافهم أن يؤمنوا برسالته ، واستعظامهم أن يُسَوِّىَ هذا الدين الجديد ، بين الأغنياء العُتاة ، والفقراء الحفاة .

* * *

ثم هذا التحدِّى الباجح ، حين قالوا له : هات ما عندك من وعيد وتهديد . وإن لم تأتنا به ، فأنت كاذب الكاذبين .

« يا نوح ، قد جادلتنا ، فأكثرتَ جدالنا ، فأْتنا بما تعدنا ، إن كنتَ من الصادقين » .

* * *

ولم يثنه العناد ، ولم يُؤنِسه التنطُّع ، بل أخذ يدعوهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا .

* * *

ثم فتح لهم باب التوبة ، ونوافذ الأمل ، ومنّاهم بأغلى الأمانى ، « استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددْكم بأموال وبنين ، ويجعلْ لكم جنات ، ويجعل لكم أنهارا » .

ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا واستكبارا .

وكلما دعاهم ، صموا أسماعهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأخفوا رءوسهم فى أذيال أثوابهم ، حتى لا يروه ولا يسمعوه .

* * *

واتخذوا فى مجادلته أساليب ملتوية ، ومغالطات ومناقضات ، فقالوا مرة : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الله من شىء .

ولو أراد ربك أن يرسل رسولا ، لأنزل ملَكا ، وكنا نحترمه ، ونستمع إليه .

وقالوا مرة أخرى : أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون ؟

وكيف نرتضى ديناً ، يُسَوِّى بيننا ، وبين طَغَامِ الناس وسِفْلَتِهم ؟ اطردْ هؤلاء الأرذلين يا نوح ، ونحن نتبعك ، ونؤمن بك ، ونعزّك ، وننصرك !

ونوح يقول : ما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين .

* * *

فلما أعيا حيلتهم ، واستنفد طاقتهم فى جداله ، وقتلهم بصبره ، وألزمهم الحجة ، سئموا ، وضجروا ، وقالوا :

لئن لم تنته يا نوح ، لتكونن من المرجومين .

* * *

وهو كذلك ، قد نفِدَ صبرُه ، وكاد ييأس ، وظنَّ أن الله قد تخلَّى عنه ، وأنه مكذوبٌ فى رسالته .

« حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كُذِبُوا ، جاءهم نصرنا » .

* * *

وأوحى الله إلى نوح : أنه يكفيك ما بذلت ، وما احتملت ، وقد أخلصْت فى مُهمتك ، ولم تدَّخرْ وُسعاً فى طاقتك .

وما عليك ، إذا كنت بذرت البذر فى أرض سَبِخَة ، تُنكر حَبَّها ، وتأكل خيرها وثمرها .

يا نوح ، إنه لن يؤمن من قومك ، إلا من قد آمن ، فلا تبتَئِسْ بما كانوا يصنعون .

* * *

وتغيرَّت نفس نوح على هؤلاء الحمقى الجاحدين ، بعدما كان يحرص عليهم ، وهم فى عصيانه سادرون .

* * *

وصدق رسولُنا عليه الصلاة والسلام ، حين قال : اتقوا غضب الحليم ، حين لا يبقى فى صدره بقيَّة من حلم ولا من حب .

ولم يبق إلا الغضب عليهم ، والنِّقمة منهم ، وسؤاله ربه ، أن يعاقبهم ، وأن يشدِّد عليهم ، وأن يريح الأرض والعالم بهلاكهم .

* * *

فرفع وجهه ، وبسط كفه ، ودعا الله عليهم .

« ربِّ ، لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا ، إنك إنْ تذرْهم يُضلوا عبادَك ، ولا يلدوا إلا فاجِراً كفارا .

رب اغفرْ لى ، ولوالدىّ ، ولِمَنْ دخل بيتىَ مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا » ، يعنى هلاكا .

* * *

سَوْرَةٌ من غضب ، وصرخةٌ للحق ، وغضبٌ لله ، واستنزال للعنة ، حتى لو كانت على زوجة أو ولد .

* * *

وتابَعَهُ الوحى يقول : واصنع الفلكَ بأعيننا ، ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون. حتى لو كانوا أقرباءك وأنسابك ، أو زوجتك وذريتك .

* * *

وصنع السفينة ، بعيدة عن الماء ، واحتمل فى ذلك جهدا ومشقة ، وسمع مايكره ، ويأما أسمعوه من قوارص الكلم ، وقذائف النكت ، وبذاءات السخرية .

وكان حلمه يراوده ، وصبره يعاوده ، وتخويفُه إياهم بأن الغد قريب ، وستندمون ، وتعضُّون على أصابعكم ، حين تلقوْن العذاب ، سنردُّ عليكم الهزء هزأين ، والتهكم تهكمين .

وحان الميعاد ، المقدور فى أقدار الله .

وبانتِ العلامات المُؤْذِنة بالعقاب النازل .

فتفجرت المياه من النار ، وفاضت من الأفران ، وفارت من المَحْمَى .

وناداه الوحى : أنْ يا نوح ، قد أزفت الآزفة ، وليس لها من دون الله كاشفة .

ويا نوح ، قم ، فاجمع شملك ، ولُمَّ أهلك ، وناد من آمن بك واتبعك ، وخذ معك زادك ومتاعك ، وخذ من الطير والحيوان والوحش ، فالعالم سيفنى ،

ولا يبقى إلا ما تحمله سفينتك ، فهى بذرة ونواة لعالم جديد ، بعد أن نُهلك هذا العالم الفاسد .

* * *

وقد عالجتهم يا نوح طول السنين ، ولم يشفِهم علاجك ، والبتر آخر العلاج يانوح .

* * *

قلنا احملْ فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم .

* * *

فمن هم يا ترى ، أولئك الذين سبق عليهم القول ، ولا شفاعة فيهم ، ولا رحمة ترجى لهم ؟

هم هؤلاء الكفرة ، وتلك الزوجة ، وهذا الولد : فهؤلاء الكافرون ، عصَوْا ربهم ، وجحدوا دينهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب .

وما شأن تلك الزوجة ؟ .

والزوجة هى الصاحبة ، وشريكة الحياة ، ومكمن السر ، ومثوى الراحة ، والراعية فى شئون زوجها ؟ .

فما شأنها ؟ حتى يطرحها نوح فى مطارح الكفرة ، ويتبرأ إلى الله من عشرتها ويقطع حبل وصلها ، ويتخلص منها ؟ .

وما جنايتها معك يا نوح ، حتى تقتلها وتُهلكها ؟ .

« وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت

عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

فلم يشفع فيها أنها زوجة نبي ، وأنها تـكرَمُ من أجل زوجها ، وقد كانت مسكنه ومرقده ، وقد كانت محسوبة عليه .

* * *

لقد خانت زوجها ، ويا بِئس ما فعلت ! .

خيانة ، أى خيانة ، وفى أيَّة صورة كانت ، فهى خيانة . فى عرضه ، فى شرفه ، فى دينه ، فى أداء رسالته ، فى انحيازها إلى الـكافرين أعدائه ! .

خيانة أى خيانة ، ومهما كانت ، فهى خيانة .

وأشق المشقات على الرجال ، أن تخونه مَنْ يعتقد أنهـا أمينة عليـه ، فى حياته ، وفى منامه ، وفى مطعمه ، وفى ولده ، وفى سره وعلنه .

خيانة ، مهما كانت ، فهى خيانة ! .

* * *

ألم تلد له الولد العاق ؟ المتمرد على ربه ودينه وأبيه ؟ .

ونادىٰ نوح ابنه ، وكان فى معْزل ، يا بنىَّ . اركبْ معنا ، ولا تـكن مع الـكافرين . قال : سآوى إلى جبل ، يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله ، إلا من رحم ، وحال بينهما الموج ، فـكان من المُغْرَقين .

أفما كان ابنها فى صف أعداء أبيه ؟

غفرانك ربى ، فلو كان ولدها ابن حلال ، ولو كان نوح تخيَّر لنطفته ،

ما كان سبق الشيطان فيه ، ولكان أبر بأبيه من إخوته ، سام ، وحام ، ويافث ! .

ولما كان خذل أباه ، الشيخ الفانى ، وقد جاوز الألف سنة من عمره ، قضاها ، وهو يكافح ، وينافح ، وهو فى سنّ الاحتياج إلى الولد ! .

وما أعنف أن يكون الولد ، محطما للعضد ، مهدماً للسند ، مفتتاً للكبد !

* * *

لك الله يا نوح ، وأنت فيما أنت فيه ، يهزّك الحنان ، وتغلبك العاطفة ، وتلفتك الأبوّة عما أنت فيه :

عن الأرض الفوّارة الفيّاضة ، والسماء المطّارة الهطّالة ، والرياح العواصف ، والأمواج الغواضب ، والسفينة ، وهى تسير باسم الله ، وعلى بركة الله ! .

بركاتُ الله عليك يا نوح ، وعلى من اتبعك من المؤمنين القلائل ، وهم لا يتجاوزون السبعين ، حين يركبون سفينتك ، ويلوذون بدينك .

ولعنة الله على الكافرين الهالكين ، وهم يفزعون ويستغيثون ، وفى الطوفان يفهقون ويغرقون ، تلاطمهم أمواج مائجة ، كالجبال الهائجة ! .

وأنت يا نوح فيما أنت فيه ، تفزع إلى ربك تناجيه :

رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق .

وعدتنى أن تُنْجيَنى أنا وأهلى ومَنْ معى .

وهذا ولدى ، من أهلى ، وفلذة كبدى ، وبه يقوى جلدى ، فى شيخوختى ، وانحلال جسدى !

يا رب أنقذ ولدى !

* * *

يا نوح : إنه ليس من أهلك ، فاكبح عاطفتك ، وثبْ إلى رشدك ، وزِنْ الأمور بعقلك لا بوجدانك !

فهذا ولد فاسد ، فسد أصله ، وساء فعله ، فليتبرأ منه أهله .

* * *

وأين يا نوح إيمانك بى ، وثقتُك فىّ ، واعتمادك علىَّ !

أنسيت أننى أنا ربك ، ومالِكُ أمرك ، ليس لك أن تسألنى أن أكشف عنك حكمتى فى خلقى ، وتدبيرى فى ملكى !

فلا تسألنى ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين .

إنى أنا ربك يا نوح ، وأنت رسولى ونبيى ، وما يسأل النبى عما لا يعلم ، وإلا كانَ فعله فعل الجاهلين الضالين .

* * *

وأفاق نوح من ضلاله ، ونزع عنه عواطفه ، وأحسَّ بعد ما غفا ، وصحا بعد ما غفل ، وتاب واستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب .

وقال : رب إنى أعوذ بك ، أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى ، أكن من الخاسرين .

وقبل الله توبته ، وغفر له ، وبارك عليه ، وقال : يا نوح : اهبطْ بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك ، وعلى أممٍ ممن معك .

سلام الله عليه ، وعلى الأجيال والأمم التى ستتوالد وتتناسل من المؤمنين معه ، ليعمر الكون من جديد بهم ، كما عمره من قبلهم أبوهم آدم :

* * *

وسيكون من الأقوام أقوام ، يغفلون عن الله ، كما غفل الأقدمون من قبلهم ، وسيكفرون بالله ، و يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

وسيُمتعهم الله وسيُملى لهم و يمدّ لهم فى غناهم وفى أعمالهم ، حتى يغرقوا فى كفرهم ، ثم تحقّ عليهم كلمة العذاب ، فيمسّهم من الله عذاب أليم .

* * *

« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، و يا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

* * *

هود

[وسيكون من الأقوام أقوام ، يغفلون عن الله ، كما غفل الأولون ، وسيكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام ، والأوثان من دون الله ؛ وسيمتعهم الله ، وسيملى لهم ، ويمد لهم فى غناهم وفى أعمارهم ، حتى يغرقوا فى كفرهم ، حتى تحق عليهم كلمة الله ، فيمسهم منه عذاب أليم] .

* * *

« وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

* * *

أولئك هم قوم : هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

* * *

فقد عاش فى جنوب الجزيرة العربية ناس ، كانوا فى نعيم ، وفى عز وترف ، وبسطة فى الأجسام والأموال .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة » .

أجسام قوية ، متينة البِنْيَة ، وصحة وعافيـة ، وخير وفير ، وجنات وبساتين ، ودور وقصور ، ذات أعمدة فارهة الطول ، بل إنهم نحتوا من الجبال بيوتاً ، ومن مجارى الميـاه ومساقطها ، مشروعات وخزانات ، تمـكيناً للحياة ، وتوطيداً للترف ، وتأميناً من تقلبات الزمن ، أقاموها قوة واقتدارا ، وأبهة وافتخارا ، وعَيْثاً فى الأرض وفسادا .

« أتبنون بكل رِيعٍ آيةً تعبثون ، وتتخذون مصانع لـكم تخلدون ، وإذا بطشتم ، بطشتم جبارين ؟ » .

قومُ عاد ، إِرَم ، ذاتِ العماد ، التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد . وزعموا

أن شدَّادا من قوم عاد ، سمع بالجنة ، فأخذته العزة بالإثم وأبى إلا أن يبنى لنفسه جنة فى الدنيا ، تضارع جنةِ الآخرة ، وبناها فى رمال عَدَن ، وسماها إرمَ ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد .

ما رأى التاريخ ، مثل ما رأوا ، ولا سعِدَ ناسٌ كما سعدوا ، ولا أُترِفَ خَلْقٌ كما أُترفوا .

ولـكنهم ضلوا ، وتاهوا عن الله . وعبدوا الأصنام والتماثيل ، واتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله .

كفروا وأشركوا ، وجحدوا ما هم فيه من نعمة ، فاستحقوا العقاب والنقمة .

« وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مُترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

كذلك كان قوم عاد ، مع نبيهم هود .

* * *

أرسل الله إليهم نبياً منهم ، ليس غريباً عنهم ، وهو طيب فى خُلُقه ، محمود فى سيرته ، متمسكٌ بدينه ، حكيم فى تصرفه ، حليم على من يؤذيه ، وهو ذو قلب رحيم ، وعاطفة سامية .

* * *

ونظر هود فى أمر قومه ، فبان له سوء حالهم ، وعُتُوُّ نفسهم ، وجهالة تفـكيرهم ، فقال لهم : يا قوم : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ولها تسجدون ؟ ولا تستحق منكم ما تقدسون ؟

أهذه الأحجار الصماء آلهة ؟ أين تفكيركم ؟ ءألغيتم عقولكم ؟ أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟

يا قوم ، اعبدوا الله الذى خلقكم ورزقكم ، ومنَّ عليكم ، وآتاكم ما لم يُؤت أحداً من العالمين !

ولكن القوم عجبوا من قوله ، واستغربوه ، وتهكموا به ، وقالوا : أجئتنا ، لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد أباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا ، إن كنت من الصادقين .

فرد عليهم بقوله : أو عجبتم ، أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم ، على رجل منكم ، لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟

يا قوم : لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ ويا قوم ، استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مدبرين .

* * *

وأدركهم العناد ، كما أدرك آباءهم قوم نوح ، وأبوا عليه أن يؤمنوا ، إلا أن يأتيهم بدليل واضح ، وآيةٍ بينة ، على صدق رسالته ، وصحة دعواه ، وأصروا واستكبروا .

« يا هود ، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ! » .

بل طغوا فى إصرارهم ، وتجبَّرُوا فى عنادهم ، وافتروا كذبا على أصنامهم

وأوثانهم ، وادَّعَوْا أنها قادرة مقتدرة ، وأنها تبطش بمن يقاومها ، وبمن يدعو إلى دين غير دينها ، وأنها مسَّتْ بالسوء هودا ، فاختلط عقله ، واختبل تفكيره ، وهو من أجل ذلك يهْـذِى .

« إن نقول : إلاَّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء »

* * *

ولم يكن بُدٌّ من أن ينفض هود يده من هؤلاء الذين يَبَستْ عقولهم ، وتحجَّرت نفوسهم ، وغرقوا فى الـكفر إلى أذقانهم .

فتولى عنهم ، وقال لهم : يا قوم : لقد نصحت لـكم ، ولـكن لا تحبون الناصحين . ياقوم إنى أشهد الله ، واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه .

ثم تحداهم ، ليعرف آخر ما يدخرون فى عناده من شدة ومجادلة .

فـكيدونى جميعاً ، ثم لا تُنظِرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، الذى يملك ناصيتى وناصيتـكم ، ما من دابةٍ إلا هو آخذ بناصيتها .

* * *

وكذلك أبى قوم هود أن يخضعوا ، وأن يؤمنوا : وكذلك حقت عليهم ، كلمة ربك ، فأنزل بهم عقابه وعذابه .

* * *

وكان عقابهم سحاباً أول الأمر ، فحسبوه نعمة ورحمة من ربهم ، فإذا هو نقمةٌ وعذابٌ نازلٌ بهم .

ثم كانت الريح الصَّرْصَرُ العاتية ، ريح السَّموم والحُسُوم ، عَفَّرتهم بالرمال ، وملأت أعينهم بالحصا ، ثم عَنُفَتْ بهم ، فَسَفَتْ عليهم ، وعلى

دورهم ، فردمتها وردمتهم ، وحملت عليهم حملة مغبرّة ، فاقتلعتهم ، وقوّضت ديارهم وقصورهم ، وطمرتهم فى جوف الأرض .

ريح السَّمُوم والحُسُوم ، سبع ليال ، وثمانية أيام ، فكنت تراهم ، وقد تردّوْا ، وانطرحوا على الأرض صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ولا ترى لهم من باقية .

« فلما جاء أمرُنا نجينا هوداً ، والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يَغْنَوْا فيهاَ ، ألا بعداً لعادٍ قوم هود » .

صالح

أرأيت الوارث السفيه ، الذى يغرق فى ميراث لم يتعب فيه ، ولم يجمعه من قطرات عرقه ؟ .

وقد اجتمع عليه شبابه ، وفراغ وقته ، وكثرة ماله ؟ .

فيفسد خُلُقه ، ويَعْوَجُّ سيره ، وتسوء حاله ؟

إن الشباب والفراغ والجِدَة مَفسدةٌ للمرء أىّ مفسدة

* * *

أرأيته حين لا يعتبر بما نُكِبَ به آباؤه وأجداده ؟ .

أرأيته حين يغضب إذا نصحه أحد أقاربه ؟ أو عميد أسرته ؟ .

أرأيته حين يرفض النصيحة ، ويلوى وجهه ، ويُطيل لسانه ، ثم يُدير ظهره ، ثم يُولِّى فى صحبة الشيطان ، وأعوان الشيطان ، حتى يُرْدُوه فى الهاوية ؟

* * *

كذلك كانت ثمود ، قوم صالح ! .

ورثوا آباءهم قوم عاد ، بعد أن أهلكهم الله ، بتلك الريح الصرصر العاتية عصفت بهم ، سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ولم تتعظ ثمود بما جرى لعاد ، يوم خَلَفُوهم فى الأرض ، واستعمرهم الله فيها ، فاستمرءوا النعمة ، ولم يشكروا عليها ، وبطروا بها ، وعتوا عُتُوًّا كبيراً .

وعاثوا فى الأرض فساداً ، وعبدوا الأوثان والأصنام عناداً .

* * *

فأرسل الله إلى ثمود ، أخاهم صالحاً ، يدعوهم ليعبدوا الله و يتقوه ، وليطيعوا صالحاً فيما يدعوهم إليه ، وألا يتبعوا الكافرين المسرفين ، الذين يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ومجانبة الدين الحق ، والإغراق فى الإشراك بالله ، الذى يؤدى بهم إلى جهنم .

قال لهم : ياقوم اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم غضب الله وعذابه .

ياقوم : أُتتركون فيما ها هنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طَلْعُها هضيم ، وتنحِتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله ، وأطيعونِ ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

فاستشاطوا غضبا وحقدا ، وكبُر عليهم أن يكون صالح صاحب دعوة إصلاح ، ورسول دين جديد فيهم .

واستثارهم أن يكون صالح ، هو الذى يداوى أمراض مجتمعهم ، فقالوا : ياصالح ، قد كنت فينا مَرْجُوّاً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ وإنا لفى شكٍّ مما تدعونا إليه مُريب ؟

وغاظهم أن يسارع الفقراء والمساكين إلى دينه فيتبعوه ، ويؤمنوا به ، ويوحِّدوا الله ، وينفُضوا عنهم لباس الشرك ، وعبادة الأوثان .

فقالوا : ياصالح ، اطَّيَّرنا بك وبمن معك ، أنتم مشئومون ، شأمتمونا معكم ، فتوالت علينا المصائب ، من يوم أن ظهرتم بدعوتكم هذه .

وأخذتهم الكبرياء والأنفة ، أن يقودهم إلى الهدى ، والدين الجديد ، واحدٌ منهم ، ليس أشرفَهم ؛ ولا سيِّدَهم .

وقالوا : أبشراً منا ، واحداً ، نتبعه ، إنا إذن ، لفى ضلال وسُعُر . ءألقِيَ الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر !

* * *

و بلبلت دعوة صالح أفكارهم ، وحلَّتْ وحدتهم ، وفرقت جمعهم ، فأصبحوا شِيَعاً وأحزاباً ، وكلهم فاسدٌ ومُفسد ، وخاذل ومُخَذِّل ، « وكان فى المدينة ، تسعة رهط ، يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

* * *

وائتمروا بصالح ، ودبروا له المكيدة ، ورسموا الخطة ، أن يتجمعوا عليه ، ويقتلوه ، حتى إذا ما خلصوا منه ، قالوا للمطالب بدمه ، وهم يحلفون له ، إنهم ما شاهدوا مقتله ، ليبرءوا من دمه ، و إن كانوا هم القتلة .

والقاتل غير الشاهد ، وهم بِظَنِّهم أنهم بذلك يصدقون .

* * *

ثم أرجئوا القتل ، إلى ما بعد أن يثبتوا كذبه فى دعواه ، أو عجزه أن يثبت صدق دين الله .

وقالوا : يا صالح ، إئتنا بآية واضحة ، ومعجزة بينة ، وقال لهم : ياقوم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكلْ فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم ، لها يوم تشرب فيه وحدها ، ولكم يوم آخر تشربون فيه وحدكم ، وإياكم أن تُغِيرُوا عليها فى يومها .

وما كادوا يعرفون أنها ناقة ثمود ، وأنها آية الله ، وهى التى يتحداهم بها فى صدق رسالته ، وأنها عماد حجته ، حتى جَرُموا عليها ، وتصدَّوْا لها ، وضاقوا ذرعاً بها .

وقالوا : هذه الناقة نذيرُ شرِّنا ، ومَثَارُ وَعِيدنا ، لقد هان أمرنا ، حتى أصبحنا نخشى ناقة تسير فينا ، وتقاسمنا ماءنا وشرابنا .

وكيف نهاب ناقة ، ومتى كان للنوق كرامة ؟

وعز عليهم أن يساموا سَوْمَ الناقة والجمل ، فتصايحوا لكرامتهم ، وتنادَوْا ، وأجمعوا أمرهم ، وهم يمكرون .

* * *

وجاء رجلٌ أحمق منهم ، واستل خِنجرهُ ، وطعن الناقة وعقرها . وأتى عليها .

* * *

فغضب صالح ، وربُّ صالح ، وحقتْ عليهم كلمة العذاب . فكانت الرجفة الراجفة ، زعزعت القلوب الواجفة ، والأبصار الخاشعة ، وقالوا : أإنا لمردودون فى الحافرة ؟

واهتزت جنبات الأرض ، ودمَّرتْ كل من عليها ، وصيحة من صيحات جبريل ، تزلزل الجبال ، وتقطع الأوْصال وتُطوِّح بالأمانى والآمال ! .

* * *

فأخذتهم الرّجفة ، وهم نائمون ، وحتى الذين استيقظوا لجأهم العذاب ، فخرُّوا ساجدين ، خوفاً واضطرابا ، وماتوا وهم يجلسون القرفصاء .

* * *

وحين اشتد عليهم الكرب ، و باغتتهم المصائب ، خرُّوا على وجوههم ، حتى لا يَرَوْا ما هو نازل بهم ، فأخذتهم الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنَوْا فيها ، ألا بُعدًا لثمود !

لوط

[... ومن سن سنة سيئة ، كان عليه وزرها ،
وكان عليه وزر من عمل بها ، إلى يوم القيامة]

وأىّ سُنَّة أسوأ من الجناية على رجولة الرجال ؟ !

إن القتل فى نظر المجتمع ، أهون من إهدار الكرامة طول الحياة ؟ .

* * *

جعل الله المرأة لنستولدها ، ولنحافظ على بقاء الجنس ، وأغرانا فى ذلك بما نلقاه فى لقائها من متعة ولذة .

* * *

وما بال الإنسان يشذ عن تلك الطريق التى رسمها الله للرجل والمرأة ، وما باله يسلك طريقاً قذرة مُوحِلة ؟ .

وأى جناية على الإنسانية ، أبشع من ن يأتى الرجلُ الرجل ، ويهجر المرأة ، وهى الإنسانة المهيَّأة لهذا الإتيان ، المخلوقة للولادة والنسل ؟ .

والمرأة فى تكوينها جمالٌ ونعومة ، وفى طبعها رقةٌ وإغراء وبينها وبين الرجل تجاذب مثل ما بين نوعَىْ الكهرباء من سالبٍ وموجب .

* * *

والله سبحانه ، لم يخلق لآدم آدمَ آخر ، ليأتيه ويتناسل منه . بل خلق له حواء ، وكل امرأةٍ فى الدنيا ، حواء لآدم .

* * *

وما بال الطبيعة تشذ فى الإنسان ، والمفروضُ والمعتقد ، أنه جنسٌ أرقى من الحيوان ! وعهدُنا بالحيوان الوحشى والمستأنس ، أنه لا يشذ ، فلا يأتى ذكورٌ ذكورا ! .

وإنما الذكر للأنثى ، والأنثى للذكر ، وتلك طبيعة الحياة .

* * *

إن هذا انحراف ، يسقط بالرجل ، ويهوى بالمرأة .

فأين تذهب هى إذا شرد منها الرجل ، أو استطرى فى جنبها الرجل !

وما مصير الرجل ، إذا فقد رجولته !

* * *

فى هذا الانحراف جريمةٌ مشتركة ، بل فيه جريمتان تجرحان البشرية !

* * *

ومن أين يلتمس المجتمع ، الحمِيَّة ، والشهامة ، والنخوة ، والغيْرة على العِرض ، والصلابة فى الحق ، والتأجج فى الوطنية ؟

* * *

أولئك قوم لوط !

لم يكفهم أن يكفروا بربهم ، ويجحدوا نِعَمه عليهم ، ولم يكتفوا بأن يشركوا بالله ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم ، ولا أن يقطعوا السُبُل ، وأن يأتوا فى ناديهم المنكر ، بل أوْغَلوا فى التدنِّى بالإنسانية إلى حَمْأة الحضيض .

« أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » .

« إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء . . . » .

أولئك قوم لوط الفَجَرة الساقطون !

فأى خيرٍ يُرتجَى من قومٍ أرْخَصُوا أنفسهم ، وأنْزلوها إلى منزلةٍ أحطّ من الحيوان ؟ !

* * *

قوم لوط ، الذين بَذَرُوا فى العالم بذْرة هذا الداء الوبىء ، وقد سرى فى دم الأجيال ، حتى يومنا هذا ، وحتى فى باريس ، التى تدعى العلمَ والنور .
فالقومُ هناك من سلالة قوم لوط ، وزادوا عليهم ، أنهم يعرضون على الناس حالات هذا الشذوذ ، فى هيئات مثنى وثلاث ورُباع ، بل وخُمَاس وسُدَاس ، فى وقتٍ واحد ، ومنظرٍ واحد . بصورة يقشعِرُّ منها البَدَن ، ويعرق لها الجبين .

* * *

اللُّواط ، يَجُرُّ إلى السِّحاق ، وهو أن تعلو المرأةُ المرأة ، ثم يجر إلى البِغاء ويؤدى إلى الخلْط فى الأنساب ، ويؤدى إلى وجود الأبناء غير الشرعيين ، ثم هو يقتل الأسرة ، ويميت العصبيَّة .

* * *

أصاب هذا الداء جسم الإنسانية ، فأحدث فى روحها وجسدها ، تَهتُّكاً يعجز أطباء الأخلاق والاجتماع عن أن يداووه .

* * *

قوم لوط ، الذين يدخلون على نبيهم لوط ، وعنده ضيوف من الملائكة جاءوهُ فى صورة شباب ناضرين ، ويأبون إلا أن يحاولوا اغتصابهم من بين يديه ، ليقعوا عليهم .

« ولما جاءت رسلنا لوطاً ، سِيءَ بهم وضاق بهم ذَرْعاً - خوفاً عليهم - وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومُه يُهرَعون إليه ، ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم : هؤلاء بناتى هنَّ أطهر لكم ، فاتقوا الله ، ولا تخزونِ فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ » .

فيردون عليه فى قِحَةٍ وبَجاحة : لقد عَلِمْتَ ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد .

فيضيق الرجل بقومه ، ويكاد صدره يتمزَّق من الغَيْظ ، ويعوذ بربه ، ويرفع إليه وجهه ويقول :

لو أنَّ لى بكم قوة — فأبطش بكم — أو آوى إلى ركنٍ شديد ، أنجو أنا وأهلى منكم وهو ضعيف أمام وحشيَّتهم ، وحائرٌ فى سوء أدبهم ، ومَغيظٌ مُخْنَقٌ من فُجورهم ، والله مطَّلِعٌ عليهم ، والملائكة الضيوف شهودُ جريمتهم .

فيقول له الملائكة :

يا لوط ، إنَّا رُسُلُ ربك ، لن يصلوا إليك ، ولا إلى أهلك بسوء ، يا لوط : إن ربك كتب عليهم العقوبة ، فاجمعْ أهلك ، وانْرُق بهم تحت ستار الليل ، ولا يشغلْك أمرهم ، ولا تأخذك الرأفة بهم ، ولا تفكر فى مصيرهم ولا يَعْنيك إلا من يتبعك منهم ، ولا يلتفتْ منكم أحد .

يا لوط : يكفيك ما لقيت ، فخذْ المؤمنين ، ودعْ وراءك الكافرين الفاجرين .

* * *

ويا لوط : دع هذه الخائنة ، التى لم تحفظك فى غَيْبتك ، ولم تناصرك على أعدائك المعاندين . « إلا امرأتك ، إنه مصيبُها ما أصابهم » .

يا لوط : إنها زميلةٌ لزوجة نوح ، فاطردها من صحبتك ، واحرمها من حضانتك ورعايتك ، واقذف بها فى حظيرة الهالكين . لتشقى شقاءهم ، وتتعذب عذابَهم ، فهىَ أَوْلى بأن تكون فى زُمرتهم ، وهى أحطُّ مِنْ أن تنال شرف مرافقتك ، والنجاة معك !

* * *

يا لوط : إن مَوْعِدَهم الصُّبْح ، وإن الساعة قد أزفت ، وليس الصبح ببعيد .

فلما جاء أمرنا ، جعلنا عاليهَا سافلَها ، وأمطرنا عليها حجارة من سِجِّيلٍ مَنْضُود ، مُسَوَّمةً عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد .

حجارة من جهنم ، مرتبة ، معلَّمة بعلامات الأشخاص الذين تُرمَى عليهم ، فتهلكهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

شعيب

عجبٌ للناس ، أجيالا بعد أجيال ، كل أغرقهم الله فى نعيمه ، ومنَّ عليهم بفضله ، إنهم لم يقابلوا نِعَمه بالشكر عليها ، حتى يحفظها عليهم ، ويزيدهم منها .

« لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وإنما يقابلون النعمة بالكفر ، والإحسان بالإساءة ، والغنى بالطغيان ،

وكذلك كان أهل مَدْيَن ، العرب الذين أقاموا فى أطراف الشام . فقد كفروا بربهم ، وأشركوا به ، وتخلَّوْا عن عبادته ، وانقطعوا لعبادة الأَيْكَةِ !

وما الأيْكَة ، إلَّا خميلةٌ من شجر ، نبت حول بحيرة من ماء ، فطال شجرها ، والْتَفَّتْ أغصانها ، وكسا ظلها ، وراق ماؤها ، ولطُف هواؤها ، فكانت (الغدير) ! .

والغدير ، أُغرِم به الشعراء من قديم ، وما زالوا به مغرمين ! .

* * *

والغدير والأيكة ، فى صحراء محرقة ، لا بد يَشتهوى المحرورين ، ويجذب الظِّماء إلى ظله وبَرْدِ مائه ، ويحتوى العشاق فى حنايا خمائله ، ويُؤْوِى الطيور ، فتغرد على أفنانه ، فيبدو فتنةً لمن كان له رقة طبع ، واعتدال مِزاج .

* * *

ذلك سر افتتان أهل مَدْيَن بالأيكة ، فأسرفوا فى حبها ، والحب يعمى ويصم ، حتى عبدوها .

وما الأيكة ، إلّا مظهر يسير ، من مظاهر نعم الله ، ولو عقلوا ، لمجّدوا الله في بديع صـنعه ، ولعبدوه لعظيم قدرته ، ولخرّوا ساجدين لله ، في معبد جلال الله ! .

ولـكنهم لم يهتدوا ، وعبدوا الأيـكة ، وهي من صنع الله ، ونسوا الله ، كما عبد الأقوام من قبلهم التماثيل ، لتقرّبهم إلى الله ، ثم عبدوها ، ونسوا الله .

ذلك شأن أهل مَدْيَن .

شأن آبائهم الأولين ، في الإشراك بالله ، وعبادة آلهـة يؤلّهونها من دون الله .

وفي العناد والاستـكبار ، والأنَفَة أن يتبعوا إنساناً أرسله الله ! .

* * *

وزاد أهل مَدْيَن على الأولين ، أنهم كانوا ذوي حرصٍ وجشع ، وأنانية وأثَرَة ، يحاولون جمع المال والغنى من أي طريق ، حتى لو كان بالغش والتدليس .

فقد كانوا يطففون الـكيل ، ويبخسون الناس أشياءهم ، وينـكرون على ذوي الفضل فضلهم ، ويُرْخصون ما في أيدي الناس ، ويُغَالون فيما يملـكون ، ويُضَيِّقون مكاييلهم حين يبيعون للناس ، ويُوسعونها حين يشترون من الناس ، ويُنْزلون الأسعار في شرائهم ، ويرفعونها في بيعهم .

بل كانوا يهوّنون من شأن الناس وقدرهم ، ويرفعون من قيمتهم ومنزلتهم .

ذلك هو التطفيف ، الذى هو الغش ، ونبينا عليه السلام قطع على الغشاشين ، فقال « من غشنا فليس منا » .

والله سبحانه جعل أشق أركان جهنم للمطففين فقال : ويلٌ للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوْفون ، وإذا كالوهم ، أو وزنوهم يُخسرون .

أولئك قوم شعيب ، أصحاب مدين .

أولئك الذين أرسل إليهم ، نبياً منهم ، ليهديهم ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكْيال والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثَوْا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدُون وتصدون عن سبيل الله مَن آمن ، وتبغونها عِوَجًا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .

وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذى أُرسِلْتُ به ، وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

يا قوم لا يَجرِمَنَّكم شِقَاقى ، أن يُصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح ، أو قومَ هود ، أو قومَ صالح ، وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد .

* * *

قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، لنُخرِجَنَّك يا شُعَيبُ ، والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودُنَّ فى مِلّتنا ، قال : أوَ لو كُنَّا كارهين ؟ قد افترينا على الله كَذِبًا ، إنْ عُدْنَا فى ملّتكم بعد إذ نجّانا اللهُ منها ، وما يكون لنا أن

نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا ، وَسِعَ ربُّنا كلَّ شىء عِلْما ، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين .

* * *

قالوا يا شُعَيْب ، أصَلاَتُك تأمرك أن نترك ما يعبُدُ آباؤُنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد .

يا شعيب ما نَفقَه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رَهْطُكَ لرجمْناك ، وما أنت علينا بعزيز .

قال : يا قوم . أَرَهْطِى أعزُّ عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ؟ إن ربى بما تعملون مُحِيط

وكذبوه ، وعاندوه ، وهدَّدوه . وتحدَّوْه .

فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة ، السحابة .

فلما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصَّيْحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأنْ لم يَغْنَوْا فيها . ألا بعداً لمِدْيَن ، كما بَعِدَتْ ثمود .

إبراهيم

لئن صحَّ ما زعموا : أن النمروذ ملك بابل ، كان رأى رؤيا أزعجته من نومه ، إذ رأى : أن طفلا يحبو على حجره ، ويمد يده ، ويخطف التاج من فوق رأسه ، فهبَّ يسأل العرَّافين تعبيرَ هذه الرؤيا ، وأفهموه ، أنه سيولد ولد ، فى أيامك هذه ، وسيكبر ، وسيكبر شأنه ، وسيكون زوالُ مُلكك على يديه .

ولئن صحَّ ما زعموا : أنه أمر أن يُذبح كلُّ طفل يولد ، حتى لا يسمح بالحياة لهذا الصبي الذى خطف تاجه فى منامه .

وأن أم إبراهيم ، وهى حبلى فيه ، خافت على وليدها أن يُذبح ، فهربت به إلى جُحْرٍ فى جبل خارج المدينة ، وولدت ولدها إبراهيم فيه ، وعاش الطفل فى هذا الغار المظلم المسدود مدة صباه .

وأن أمه كانت تذهب إليه ، متخفِّية تحت ستار الليل ، لترضعه ، أو تسقيه أو تطعمه ، ثم تسدُّ عليه بحجر كبير ، حتى لا يدخل عليه وحش أو تلدغه حشرة أو حية ، ثم تعود إلى المدينة ، وكأنها كانت فى زيارة . حتى لا تتنبَّه إليها الأعين ، أو يعرف الناس سرها ، فيذبح الملك وليدها .

وامتدت به الإقامة ، حتى أتم الرضاعة ، ففطمته ، ثم حبَا ، ثم وقف على قدميه ودَبَا ، ثم كبر وفَطِنَ وَوَعَى ، وفكَّر فى الغار ، وفيما وراء الغار .

ولئن صحَّ أنه لما جَنَّ عليه الليل ، وحَلَكَ ظلامُه ، أطَلَّ من باب الغار ، فرأى كوكباً يلمع فى السماء ، وقد بهره فى عُلوِّه وسُموِّه ، وسُطوع نوره ، فحسبه ربًّا يُعْبد ، فقضى الليل ، يسجد له ويعبده ، حتى إذا غاب عن عينه ، بحث عنه ، فلما لم يجده ، فكر فى غيابه ، وفكر فى ربٍّ يغيب عن عبده ، وأن الرب إذا غاب لا يستحق أن يعبد . فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين .

ونظر ، فرأى القمر بازغاً ، ساطع الضوء ، كامل النور ، بهى الطلعة ، ورآه أكبر من النجم ، وأسطع من الكوكب ، وأشمل فى النور ، وأجمل فى إضاءة الكون ، فقضى هزيع الليل يسجد له ويعبده ، ولكنه أفل وغاب عن عينه ، فخاب ظنه فيه ، واستكثر على نفسه أن يكون عبداً لربٍّ ، يأفل ويغيب ، وقال : أين ربى يهدينى ، لئن لم يهدنى ربى ، لأكونَنَّ من القوم الضالين .

فلما استبدت به حَيْرته ، جَرُؤ أن يزيح باب الغار ، وأن يظهر بالنهار ، وأن يرى الشمس ساطعة وهَّاجة ، فيها ضوء وحرارة وحياة .

قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، وعَبَدَها بإخلاصٍ واندفاع . وقضى اليوم فى ظاهر الغار . فلما أفلت ، فقد الأمل فى هذه الآلهة التى تظهر وتغيب ، والتى لا تدوم على ظهورها لعبّادها فى كل زمان .

* * *

وقلب نظره ، وأجهد فكره ، وحكم عقله ، فى هذه الآلهة ، فلم يجد

إلهاً منها ، يملأ نفسه قدسيَّة ، ولا يُفعم صدره جلالا ، ولا يُشبع رُوحه إيمانا بأنه ربٌّ معبود ، وإنه إله فردٌ صمد .

* * *

لئن صحَّ ما زعموا من حكاية الغار ، لكان إبراهيم ، بفطرته السليمة ، وفطنته الخارقة ، وذكائه الثاقب ، وحُسن تفهُّمه لما يقع تحت بصره ، وتفسيره لظاهر الكون الذى بدأ يعيش فيه ، لكان إبراهيم بهذا ، أول من اهتدى إلى ربه بفكره ، قبل أن يُنعم الله عليه بوحيه ، ولكان أول من آمن عن دراسةٍ وتجربة ، وأسلم بعد مناقشة نفسه فى خَلْقِ الله ، حتى اهتدى إلى العقيدة الحقة ، وإلى توحيد الله ، وإلى نَبْذِ الشرك والكفر ، ودين آبائه الأقدمين .

ولكان إسلام إبراهيم ، واهتداؤه إلى دين الله ، حجةً للذين يقولون : إن الإنسان يُكَلَّفُ بالاهتداء إلى الله ، لمجرد أنه عاقل ، وأن أهل الفترة ، بين دين ودين ، مُكلَّفُون مسئولون ، لأنهم عاقلون ، وأن ضريبة العقول ، أن تكون هاديةً إلى الله ، فإن لم تَهْدِ صاحبها ، وتصلْ به إلى ربها ، كانت كالمال ، حين لا تؤدَّى عنه الزكاة .

* * *

وإن كان إبراهيم ، قد اهتدى إلى ربه ، إلا أن العقيدة ، تحتاج إلى تطبيق ، والتطبيق تثبيتٌ وترسيخ .

* * *

فاتجه إلى ربه يسأله : ربِّ ، أرنى كيف تحيي الموتى ؟ وكيف تبعث الخلائق يوم القيامة ؟ بعد أن يفنَوْا جميعا ؟ وتأكلهم الأرض ، ويصيروا ترابا ؟

قال له ربه : « أوَلم تؤمِنْ ؟ » بعد أن اهتديت إلىّ بعقلك ؟ وأنعمتُ عليك ، بما أوْحَيْتُ إليك ؟

قال إبراهيم : « بلى » آمنت وصدَّقت ، وأسلمت وجهى لك ؟ ولكن ليطمئن قلبي إلى صدق ما اهتديتُ بعقلي إليه .

وليكون القلب والعاطفة والوجدان والروح سنداً وتقويةً للعقل ، ولأكون مُتجها إليك يا ربى بعقلي وتفكيرى وقلبي ووجدانى وروحى . ولا تكون فِيَّ ناحيةٌ من نواحى وعيي إلا متعلقةً بك ، متجهةً إليك .

قال ربنا لإبراهيم : فخذ أربعةً من الطير ، فاذبحْها ، وقطعها ، قطعا ، إرْباً إرْباً . واخلط قِطَعها ، ثم خذ من الخليط جزءا . وَضَعْه على قمة جبل ، وخذ من الخليط جزءا آخر ، وضعْه على قمة جبلٍ آخر ، ثم قف بين الجبلين ، وناد هذه الطيور ، تجدْها تأتى إليك ساعية .

أرأيتِ القدرة يا إبراهيم ، التى تَفْرز القطع المخلوطة ، وهذه الدماء الممزوجة ، وهذه الأنفس التى أزهقت ، واختلط أبيضها بأحمرها ، وصغيرها بكبيرها ؟ أرأيت أننا بقدرتنا يا إبراهيم نُعيد خَلْقها ، كما خلقناها أول مرة « كما بدأنا أول خلقٍ نُعيده » أرأيت كيف تعود إليك ، كأنْ لم يكن شىء ، ولم يكنْ ذبحٌ ولا تمزيقٌ ولا تفريق ؟

أرأيت هذه القدرة يا إبراهيم ؟ وبقدرتنا سنُعِيدُ الخلق ، كما خلقناهم أول مرة « وهو الذى يبدأ الخلق ، ثم يُعيده ، وهو أهْوَنُ عليه » .

واطمأن قلب إبراهيم إلى ربه ، وإلى قدرته ، ورسخ فى ذهنه أن الخلق لا بد يوم القيامة عائدون ، وعلى إيمانهم وكفرهم محاسبون .

* * *

واتجه إبراهيم بدعوته ، أول ما اتجه ، إلى أقرب الناس إليه ، وأعزهم عليه ، إلى أبيه آزر . إذ قال لأبيه : يا أبت ، لِمَ تعبد ما لا يسمعُ ، ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنك شيئاً ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ، ما لم يأتك ، فاتبعْنى ، أهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ، يا أبتِ ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان ، كان للرحمن عصِيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا !

هذا أدبُ الأبناء ، فى عرض الفكرة على الآباء فى لطف ولين .

قال له أبوه ، وهو مَغِيظٌ مُحْنَق ، يتهكم بولده ، ويستكثر عليه أن يكون الولد مُرشداً لأبيه « أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم » ؟ لئن لم تنته ، لأرْجُمنَّك ، واهجرنى مَلِيًّا .

فلم ييأس إبراهيم من هذا القول الغليظ ، والتهديد والطَّرْد ، ولم ينْسَ أنه يتحدث .. بيه فقال له : سلامٌ عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حَفِيًّا ، وأَعتزِلُكم وَمَا تَدْعونَ من دُونِ الله ، وأَدعُو ربِّى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

ولما تعصَّب أبوه وقومُه عليه ، وهزءوا به ، وسخروا منه ، وقالوا له : أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين ، يئس منهم ، وقطع الأمل فى هدايتهم ، وصحّح موقفه من وعده أن يستغفر الله لأبيه :

وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ، إلا عن مَوْعِدَةٍ ، وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوٌّ لله ، تبرأ منه .

ثم قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . أفرأيتم ما تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوٌّ لى إلاَّ ربَّ العالمين . الذى خلقنى ، فهو يَهدينى . والذى هو يُطعمنى ويَسقينى ، وإذا مرضت فهو يَشفينى ، والذى يُميتنى ثم يُحيينى ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

بل ربكم ، ربُّ السموات والأرض ، الذى فَطَرهُنَّ ، وأنا على ذلكمْ من الشاهدين .

* * *

وأسَرَّ إبراهيم فى نفسه ، أن يكون فى دعوته ، جريئاً عليهم مُهاجماً لعقيدتهم ، مهما كلَّفه الأمر ، فقال :

وتالله ، لأكيدنَّ أصنامَكم ، بعد أن تُوَلُّوا مُدْبِرين .

* * *

وغافل القوم ، وتربَّص بهم ، حتى خرجوا جميعاً فى يوم عيدهم ، وبقى وحده يفكر فى شأن القوم ، وهم أهله ، ولكنهم كافرون مشركون ، وأنه اهتدى إلى الله ، وأنهم لقوله ورسالته لا يسمعون ، وأنهم بهذه الأصنام متمسكون متشبِّثون ، وأن الزمن سيطول فى مجادلتهم وهم يجادلون .

والفكرة والعقيدة ، حين تستبد بصاحبها ، تدفعه إلى العمل فتدفع القائد حتى لا يرهب الموت ، ورجل المطافئ حتى لا يرهب اللهب ، ومنقذ الغريق حتى لا يخشى الغرق ، وطالب المعالى حتى لا يُغمض الجفن ، وطالب الثأر ، فلا يهدأ حتى يكرَعَ دَمَ الغريم .

ودفعتْ إبراهيمَ إلى أن يدخل المعبد ، ويرى الطعام ، المقدم قُرباناً للآلهة والأصنام ، فيحتقرها ويزْدَرِيها ، ويقول لها متهكماً ، ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

ويثور فيها ، وينزل عليها ضرباً بيمينه ، وركْلاً ورَفْسًا برجله ، ثم تأخذه سَوْرَةُ الغضب فيُمسك بالفأس ، فيحطمها تحطيما ، وَيُفتِّتُها تفتيتاً ، حتى يجعلها كِسَرًا وجُذَاذاً .

* * *

يا لله ، مدينةٌ خلَتْ من أهلها ، وليس فيها إلا شابٌّ واحد ، هائج ثائر غاضب لوجه الله ، ولدين الله ، وهو وحده يُشهر حرباً على الآلهة الزائفة ، مؤيَّداً بروح الله الحق ، يضرب ويخبط ويكسِّر ويحطِّم ، ويُرغِي ويُزْبد ، ثم لا يفكر فى نتيجة ما يفعل ، ولا فى غَضب القوم عليه ، ولا فى ثورتهم ضده ، ولا فى أى عقاب سينزلونه به .

فَعلَ ما فَعَل ، وعلّق الفأسَ فى رقبة الصَّنم الأكبر ، وخرج وهو يصيح ويجأر : الله أكبر . الله أكبر !

* * *

ورجع القوم إلى مدينتهم ، وزاغت أبصارُهم من هَوْل ما رأوْه قد حلَّ بآلهتهم ، وفُجِعُوا فى دينهم وفى عقيدتهم ، وفى معبدهم . والعقيدة مظهرُ الروح والعاطفة ؛ يثورون لها بوجدانهم ، ولا يحكِّمون عقولهم ، ويَهيمُون لها بقلوبهم ولا يرجعون إلى تفكيرهم ، ويندفعون تحت تأثير تقاليدهم ، ولا يكبَحُون جماحَ ثورتهم . ويقولون مَنْ هذا الذى جُنَّ جُنُونُه ، حتى فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لَمِنَ الظالمين .

ويقول بعضهم لبعض ، مُتجاهلاً قدر هذا النَّبى الهادى العظيم : سمعنا فتًى يذكرهم ، يُقال له إبراهيم .

قالوا فأتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون .

واجتمع الناقمون ، والتَمَّ الناس ، وتألَّبتْ عليه المدينة ، وانعقدتْ الجموع للمحاكمة .

وسأله زعماء القوم : أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

ذلك موقفٌ صعب ، لا يتحمله ولا يقوَى على مُجابهته ، إلا ذو العزم قوىُّ الجَلَد : إبراهيم ، فهو أبو أصحاب العزم من الرسل . حين يرى هؤلاء الغاضبين ، وهم خصومه وحكَّامُه ، وحين يرى المحكمة والمحكَّمين ، يرمونه بشرر الغضب ، ويتوعَّدونه بالشر ، وهو هادئٌ ثابت ، معتمدٌ على عقيدته ، مستندٌ إلى رعاية ربه ، لا يخاف ولا يَرْهَب ، ولا يحنِى رأسه ، ولا يتقَّى ولا يخاف إلا الله .

فيقول : بل فَعَلَه كبيرُهم هذا ، فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون .

فأىُّ تهكمٍ بالصنم الأكبر وأىٍّ ازدراء لعقيدتهم ، وأىُّ استخفافٍ بأحلامهم ؟

بل ، إن إبراهيم ، كان يرجو ، أن يعمل عملا ، أىّ عمل ، يُسبِّبُ اجتماع القوم على هذه الصورة ، حتى يقول لهم قَوْلَتَه ، ويُعْلن رسالته ، ويُبيِّن حجته ، ويُثبت فكرته ، وليُرِيهم قيمةَ ما يَحسبُونهم آلهة ، وليوضح لهم ، أن هذه الآلهة ، أعجز من أن تحمىَ نفسها ، أو تدفع التحطيم عنها فأولى وأجدر ألا تنفع أو تضر عُبَّادها . وأجدر بها ألا تكون آلهة تُعْبَد ، ولا تساوى إلا أنها أصنامٌ من حجارةٍ تكسَّر وتحطم .

وأوشك أن يقتنع بعض القوم بفكرته ، وأن يؤمنوا برسالته « فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون » .

ولكن إبليس ، رقص رقْصته ، وأشعل فِتْنته ، فنكَّسهم عن الحق . « ثم نُكِسُوا على رءوسهم » وعادوا يجادلون ويقولون : لقد علمتَ أنَّ هؤلاء الأصنام لا ينطقون .

قال : أفتعبدون من دون الله ، ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟

قالوا : حرِّقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين .

وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين .

* * *

وغضب القوم غضباً شديداً ، وتجمَّعوا عليه ، ليَفْتِكوا به ، وليمزِّقوه ، شرَّ مُمَزَّق . ولكنهم رأوا أن الفتك والتمزيق فى ساعة أو بعض ساعة لا يَشْفى

غليلَهم ، ولا يُبْرِد نارَهم ، وقرروا : أنه لا يَشفى غليلنا ، ويطفىء نارنا ، إلا إذا عذَّبناه عذاباً بطيئاً ، ونكَّلْنا به نَكالاً شنيعاً . وأنه لا يكفينا حرقه ، وإنما نُحرِّقه تحريقاً ، فى نار تتلظَّى وتتوهج ، وإلا أن يوقدها عليه كلُّ غضبان ، ويؤجج لهبها كلُّ مَوْتور ، ليعلو أُوارُها ، حتى يَشْوِىَ الطير فى جوِّ السماء ، وحتى يسمع بها التاريخ ويهمس بها فى آذان الأجيال ، تِلْوَ الأجيال .

ولا بد أن يشهد الخلق كلهم ، مَصْرع ذلك الفتى المتمرد على الآلهة الجاحد للأرباب ، المسفِّه للأحلام ، المحطم للأصنام ، المُبتدع لدين جديد ، يحاول أن يطمس به دينَ الآباء والأجداد .

هيا يا قوم ، أشعلوها ، واقذفوا به فيها ، فلقد كان يُهددنا بعذاب النار إنْ كفرنا ولم نؤمن بربه ، وها هو ذا قد كفر ولم يؤمن بآلهتنا ، فله عذاب النارِ . فأين إلٰهُه من آلهتنا ؟

وقالوا ابنوا له بنياناً ، فألقُوه فى الجحيم ، وكتَّفوه ، ووضعوه فى المنجنيق فى المقذاف الذى سيطوِّح به . فلما صار بين الكفة والنار ، ضجت الملائكة وأتاه جبريل ، يسأله : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ فرد عليه يقول : إما إن كنتُ أحتاج إليك ، فلست محتاجاً . فقال له جبريل : إذن فاسأل ربك ، فقال : علمه بحالى ، يُغنى عن سؤالى .

* * *

أرأيت العين ، يذهب بصرها ، فتعمَى ولا ترى ؟ أرأيت الجسم تُسْلَبُ

روحُه ، فيصير جثةً هامدة ، لا حركة فيه ولا حياة ؟ وأرأيت السكين تفقِدُ قوة الذَّبح ، فلا تقطع فى اللحم ؟

كذلك النار التى أَجَّجوها ، فزمْجَرت بصوتها ، وزغردت بألسنتها ، قد سلبها الله حرارتها وحرَّها ، فـكانت برداً وسلاماً على إبراهيم .

ويا ترى ؟ لمن تـكون العناية الربانية ، والعناية الرحمانية ، إذا لم تـكن لخليل الله إبراهيم ، فى ساعة كُرْبته ، واحْتدام شدته ! !

إن قوة العزم ، ورسوخ العقيدة ، وصلابة الروح ، واتصال العبد بربه ، وسموّ نفسه ، ليُنْسِي الإنسانَ حِسَّه وجَسَده .

* * *

وهدأت النار وخمدت ، وإبراهيم سليمٌ معافى ، لم يمسسه سوء . هائمٌ فى ساحة الله ، مُتَحَصِّنٌ برعاية الله ، هادىء النفس ، ثابت العقيدة ، كأنه قضى تلك الساعة فى جنة فسيحة ، يسرح بين ماء وخضرة ونسيم رطيب .

* * *

والناس ذاهلون ، وفى حَيْرتهم غارقون ، وعلى أنفسهم باللوم والخجل يعودون ، وكادوا يُسَلِّمون لإبراهيم ويُسْلمون ، ورجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ولـكنهم نُـكِسُوا على رءوسهم ، فعادوا لما هُمْ فيه من الـكفر والعناد يغرقون .

* * *

تلك ثورة الشعب على إبراهيم ، وقد تبلبلت أفكارهم ، وازَّلزلت عقيدتهم ،

وتحطمت أصنامهم ، وطاش آخر سهم صوّبوه إلى إبراهيم ، فراحوا فى شك من دينهم ، ولكنهم فى دينهم لا يفرطون .

* * *

وأين النمروذ ، الملك الجبار ؟ لقد خاف على عرشه ومُلكه من إبراهيم ! الذى غلب الشعب وحيَّره .

لقد استدعى إبراهيم ، وجادله ، ورسم خطة يهدم بها دعواه ، ويبطل حجته ، ويفسد رسالته ، ويبعث الشك فى عقيدته .

فسأل إبراهيم :

مَنْ ربك ؟

فأجاب : ربىَ الذى يُحيي ويُميت .

فقال النمروذ :

وأنا يا إبراهيم أستطيع أن أُحْيي وأميت .

قال إبراهيم :

فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأْت بها من المغرب .

فبُهِتَ الملكُ الذى كفر ! والله لا يهدى القوم الظالمين .

وماذا يفعل النمروذ فى فتى ، تجمّع الشعب لإحراقه ، فَنجّاه ربه ؟ ثم جادله الملك ، فأسكته ، وألزمه الحجة ، وبَهَتَه .

فلا القوة أهلكتْه ، ولا المجادلة أعْيَتْه وهدّتْه !

فليس إلا ما يفعل الملوك ، من الدس والخديعة ، وضَرْب الحصار ، وتضييق الخناق ، حتى يقتله التضييق .

وكان ما قدَّر النمروذ ، فضاق إبراهيمُ بالعَيش بين هؤلاء الناس ، وكره لمُقامَ فى قومٍ معاندين كائدين .

* * *

فهاجر ، وسافر من العراق إلى فلسطين ، ودعا الناس هناك ، ولَانَ فى دعوته مرة ، واشتد مرة ، وناقش وجادل ، ولَفَتَهم إلى النجم والكوكب ، القمر والشمس ، وأنها لا تقوى أن تكون آلهة تُعْبَد .

فلما لم يؤمنوا ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى لذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين .

* * *

وحاجَّه قومه ، قال : أتحاجُّونى فى الله ، وقد هــدانى . ولا أخاف ا أشركتم ، ولا تخافون أنــكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّلْ به عليكم سلطانا ؟ أىُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ، ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم ظُلْم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مُهتدون .

* * *

ولو أن أهل القرى ، آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء الأرض ، ولــكن كذَّبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسِبون .

* * *

ومن أين تنزل البركة ، ومن أين يهب الله رخاء العيش ، ووِسْعَة الرزق ،

لأهل فِلَسطين ، وهم قد كفروا بربهم ، فأقحط الأرضَ عليهم ، وأجْدَبَهَا فكزَّتْ و بَخِلتْ ، وضاق العيش بالشام ، وانقطع الأمل فى إسلام أهل فِلسطين .

* * *

ومن يُهاجرْ فى سبيل الله ، يجدْ فى الأرض مُراغَماً كثيراً وسَعَة .

وكذلك هاجر إبراهيم وزوجته سارة ، وابنُ أخيه لوط وزوجته ، ونزلوا مصر .

وفى مصر فرعون ، ملكٌ عِملاق ، من الرعاة الهُكسوس ، وقد سمع بهذا الوفد الوافد من فلسطين ، وتسرَّب إلى سمعه حديث الناس عن سارة ، الفلسطينية الجميلة الفاتنة ، فطلبها إليه ، وسأل إبراهيم عنها ، فأخبره أنها أخته .

* * *

هل كذب إبراهيم فى قوله إنها أخته ؟ ولماذا لم يصرِّح بأنها زوجته ؟ الحق أن إبراهيم لم يكذب فى أنها أخته . فقد كان الناس يتزوجون الأخت ، قبل أن تنزل الشريعة على إبراهيم .

وقد رأى إبراهيم من فرعون أنه لا بد سيأخذها لنفسه ، وأنه ليس فيه طاقةَ على أن يستخلصها منه ، وأن من الحكمة أن يُسَلِّمها على أنها الأخت ، وليست على أنها الزوجة ، والأخت يُصَاهَرُ عليها ، والزوجة يعزُّ على النفس اغتصابُها .

ولعلّ فيها حكمةً أخرى ، كما قال موسى فى عصاه « ولى فيها مآرب أخرى » ومن أجل ذلك ، رأينا إبراهيم مضطراً إلى قبول هذا الوضع ، مستسلماً لقضاء الله . ودعا الله ألا يؤذيَه ، لا فى الأخت ، ولا فى الزوجة .

* * *

وبات فرعون ليلته ، فى أحلامٍ ورُؤًى مزعجةٍ مُفْزِعة ، وأفكارٍ شاردة ، ونفسٍ ضائعة ، وهمٍّ نازل ، وخوفٍ لا يدرى له سبباً ولا مصدراً .

إذا مدَّ يدًا شُلَّتْ ، وإذا سعى برجلٍ زَلَّتْ ، وإذا همَّ تخاذل وانحطَّ لا يستطيع حَرَاكا .

واستغاث ، ولا غَوْث ، واستنجد بالصبح ، فلا يطلع . وأيقن أن قدرة الله أقوى من بطش فرعون ، وأن هذا الرجل النازل فى ضيافته كريمٌ على الله . وأن إيذاءه يجلب غضب الله .

فردَّ المرأة إليه كريمةً عزيزة ، ووهب لهما أموالا وخيرا ، وأرْدَفَهُم بخادمةٍ مصرية جميلة ، واسمها هاجر ، وأفسح لهم ليقيموا فى مصر ما يشاءون .

* * *

ولكن إبراهيم ، النبى ، الرَّحَّالة ، لم يُغْرِه رَغَدُ العيش بمصر ، ولم يَنْس أن عليه واجبا أن يعود إلى الشام ، إلى القوم الظالمين .

* * *

ولعل فى إقامة لوطٍ بمصر ، وزوجته معه ، بعضَ السر فى تعجيل إبراهيم بالارتحال ، عن بلاد ليست بلاده ، زوجة لوط ، التى يقول القرآن فيها :

«ضرب الله مثلا للذين كفروا ، امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل أدخلا النار مع الداخلين» .

* * *

ولعل سرًّا وراء نُصح إبراهيم لابن أخيه لوط ، حين سافرا من مصر

واقترح عليه ، ألا تُقيمَ الأسرتان فى بلدٍ واحد فى الشام ، حفظاً على القرابة ، وحرصاً على دوام الأُلفة .

وقد عمل لوط بنصيحة عمه إبراهيم ، فنزح إلى حدود الشام ، فى سَدُوم ، وأقام هناك يؤدى رسالته فى قوم لوط .

* * *

وأقام إبراهيم فى الشام ، مع زوجته سارة ، وخادمته هاجر ، الفتاة المصرية الجميلة ، هدية فرعون ، إلى الرجل الطيب ، المحفوف برعاية الله ، المحروس بحراسة الله .

* * *

وعاش إبراهيم سعيداً ، فى الخير الذى ساقه معه فرعونُ مصر ، بين زوجته سارّة ، وقد تقدَّمتْ فى سنِّها وقد عَقِمَتْ ، فلم تلد ، وبين خادمته هاجر ، وهى فى مَيْعَةِ الصِّبا ، واكْتمال الصحة ، واستواء الجمال .

وإبراهيم قد جاوز الستين ، وقد تاقت نفسُه إلى ولد ، وزوجتُه سارّةُ تُحسُّ حنينه إلى ولد ، وإن لم يتحدثْ ، وإن لم يتشوّق .

* * *

ودفعها حبُّها لإبراهيم ، أن تقدِّم له هاجر ، زوجةً جديدة ، فهى خادمةٌ مرافِقةٌ ومُوافقة ، وسوف لا تكون أكثر من خادمةٍ وأمٍّ ولد . ولعل ذلك يسدّ حاجةً فى نفس إبراهيم .

* * *

وإبراهيم يتأبَّى على سارّة ، ويخاف عليها الغَيْرة ، ويُعلن رضاه بما هو

فيه . وسارة تلح عليه ، وتتحمَّس في عَرْضِ هذه الضَّرة ، على زوجها إبراهيم .

* * *

ويدخل إبراهيم بهاجر ، فتلد الولد ، والولدُ قوةٌ وسَنَد ، وقِطعة من كبد . وعديلُ الروح والجسد .

* * *

ولكنه يا إبراهيم من ضَرَّتى هاجر ! وقد ربطك بها ، وأنا بك لم أرتبط ! يا إبراهيم ! نفسى تحركتْ ، وهمومى تجـدّدتْ ، ودموع عينى تحدَّرتْ ، وضلوعى تقوَّضتْ .

يا إبراهيم ! أنا لا أطيق أن أرى هذا الولد ، ولا أم هذا الولد !

فبالله عليك ، وبحق عِشرتى بين يديك ، كنْ بى رحيماً يا إبراهيم ! ولا تُعَجِّلْ بقتلى ، ولا تُنَغِّصْ علىَّ بقيَّةَ عمرى !

بالله عليك ، خذ هذا الولد وأمَّه ، وارم بهما فى وادٍ سحيق ، لا أسمع عنهما خبراً فيه .

* * *

وأراد الله أن يستمع إبراهيم إلى سارة ، التى فقأت عينَها بيديها ، وقدمت ضَرتها عليها ، وضحَّتْ من أجل رضاه ، واستحلفته ألا يُبادلها قسوة بعطف ، ولا جَفوةً بوداد !

فأخذ هاجر ، وولدَها إسماعيل ، وخرج بهما ، يهيم على وجهه فى أرض الله ، لا يدرى إلى أين تسُوقُه قدماه !

وطاف ما طاف ، من الشام إلى العقبة ، إلى مداخل جزيرة العرب ، إلى جَوْف الجزيرة ، بين جبال ووديان ، وصحراء ورمال ، حتى أذن الله أن يَحُطَّ فى وادٍ غير ذى زرع ، بين جبلين أصمَّين ، واستودعهما الله فيه ، وقفل راجعاً ، مُشتَّت الفكر ، زائغ البصر ، مُوزَّع العاطفة ، بين زوجته سارة الكريمة عليه ، تقيم فى الشام باكية دامعة ، وبين زوجته هاجر أمِّ إسماعيل ، وقد ألْقَى بهما فى الوادى السحيق .

* * *

وتمشى وراءه هاجر ، وتتعلق به ، وتقول : يا إبراهيم : على مَنْ تتركنا ؟ فيلتفت إليها ، وقلبُه باكٍ ، وعينه دامعة ، ويقول لها : أتركُكما على ربى . فتطأطئ رأسها ، وتَغُضُّ بصرها ، وتكفكِف دمعها ، وتقول : إذن ، الله لا يُضيِّعُنا . يا إبراهيم ، ارجعْ ، والله يرعاكَ ويرعانا !

وتعود هاجر إلى طفلها إسماعيل ، وقد اشتدت الشمس ، وصَفِرَتْ الأرض وأوحش المكان ، فلا زرع ولا ضَرْع ، ولا دَيَّار ، ولا نافخَ نار .

وعطشتْ ، وعطش الولد ، فقامتْ تدور فى المكان ، تبحث عن ماء ، تُطفِى به حُرقة العطش ، فلا تجد ، وتتلفّت ، فلا ترى إلا الجبال الصمّاء ، ترى جبل الصَّفَا ، وقد أوقدته الشمس بوَهَجِها ، فلاح عليه سَرَابٌ ، والسَّراب دخان الأرض المَلْفُوحَة بالقَيْظ ، يُخَيِّل لمن يراه من بعيد أنه ماء ، وما هو بماء .

فتجرى هاجر ، وتصعد فى جبل الصفا ، فلا تجد ماء .

فتجرى هاجر ، وتصعد فى جبل الصفا ، فلا تجد ماء .

ثم تنظر إلى بعيد ، فترى جبل المَرْوَة ، وترى عليه ماء ، وما هو بماء ، وإنما هو السَّرَاب ، فتجرى إليه ، وتصعد فيه ، فلا تجد ، ثم تلتفت إلى الصّفا ، فترى فوقه السّراب الخادع ، فتجرى إليه ، فلا تجد ، ثم إلى المروة ، فلا تجد .

سبعة أشواط تجريها ، بين جبلَىْ الصفا والمروة ، باحثةً عن ماء . لتسقى الطفل إسماعيل ، فلا تجد .

فعادت إليه ، وجلست إلى جانبه ، واستسلمت لأمر الله ، وتضرَّعت إليه والطفل يصرخ ، ويضرب الأرض برجليه .

والله سبحانه ، لا ينسى صبيَّة جميلةً غريبة ، طوَّحت بها المقادير من أحضان أهلها بمصر ، إلى الشام ، إلى ضَرَّةٍ عنيفة ، إلى هذا الوادى الشحيح ، الذى وقف على حافته إبراهيم ، يصلى لله ، ويدعوه :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع ، عند بيتك المُحرَّم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً من الناس ، تَهْوِى إليهم ، وارزقْهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون » .

* * *

وكانت البشارة ، بشارة استجابة دعاء إبراهيم ، إذ نبع الماء ، تحت قدمىْ الطفل ، ونبع صافياً بارداً ، سائغا للشاربين .

فسقتْ ولدها ، ورَوت عطشها ، وخافت على الماء أن يغيض فى

جوف الرمال المحرقة ، فأخذت تلمُّه بيديْها ، وتقول : زِمْ يا ماء زِمْ
فكانت عين زمزم .

* * *

وحامت الطيور على ماء زمزم ، وحلَّقتْ فى جو السماء ، ورأى العرب أن طيراً تُحوِّم ، ولا تُحوِّم إلا على ماء ، فوردوا ، واستأذنوا صاحبة العين ، فى أن يشربوا من مائها ، فأذنت ، واستضافوها . فضيَّفتهم ، وعاشوا إلى جانبها ، فاستأنست بهم ، وكبر طفلها ، ودرج بين أطفالهم ، وتكلم بلغتهم ، واستعرَبَ إسماعيل ، وأصبح منهم .

* * *

وعاود الحنين إبراهيم ، فكان بين الحين والحين ، يعود إلى الوادى ، ليرى ابنه إسماعيل ، ثم يعود إلى سارة العجوز ، التى تتحرَّق شوقا إلى ولد ، كما وهب الله لضَرَّتِها هاجر الولد .

* * *

وإبراهيم شيخٌ فانٍ ، لم يُعقِّبْ ، وفيه عاطفةٌ عطشى ، تَحِنُّ إلى النَّسْل ، وتأنَسُ بالأولاد .

ومَنْ يُحرَمِ الولد ، يُحِسُّ بالفِقدان ، ويرى نفسه ، كأنه شجرٌ بلا ثمر . وهؤلاء يَرَوْن أنهم سلسلةُ حياتهم مُنقطعة الحلقات ، فهم يعيشون فى عطش الحرمان ، وجوع العُقْم .

وإبراهيم كان غنياً ، والغَنِيُّ أشدُّ عطشاً وجوعاً وشوقاً إلى الخَلَف .

ومن أجل هذا خرج إبراهيم من الشام ملهوفاً إلى الوادى السحيق فى

الحجاز ، وهى رحلةٌ طويلة ، يَحْدُوه الحنين إلى إسماعيل ، وإلى أم إسماعيل ، ويناجى نفسه فى الطريق ، ويناجى ولده ، تلك إرادةُ الله يا ولدى ، كتب علينا البِعادَ والبَيْن ، وهبك لى فى شيخوختى ، ليُشْبِع شوقى ونَهَمِى ، ثم تكون إرادة الله ، ألا أربيك فى حِجْرى ، وأصْنَعَك على عيْنى .

لابد أنك يا إسماعيل قد كبرت ، ودَرَجْت مع الصبيان العرب ، ورُبِّيتَ بينهم ، ولقَّنُوكَ لغتهم ، وطبعوكَ على طبْعهم .

أفما حدَّثوكَ عن أبيك الذى رماكَ فى واديهم ، أبيك الذى جفاكَ ، وفى بيته وأهله ما آواكَ !

يا ليتك يا إسماعيل لا تنسى أباكَ ، ومتى يا إسماعيل ألقاكَ ، وأراكَ إلى جانبى صَبياً يافِعاً ، تُذْهِب وَحْدتى ، وتسمع عنى قصة حياتى ، وتستُر عوْرتى ، وتردُّ غَيْبتى ، وتخلِّد ذِكْرتى .

* * *

ولقى إسماعيل أباه ، فأكرم مثواه ، ولم تسعْهُما الدار ، فخرجا إلى الخلاء . يمشيان ويسعيان ، ثم يعودان آخر النهار ، ثم يُصبحان فلا يسعهما إلا الفضاء . ولو استطاعا لعاشا فى جو السماء .

* * *

شوقٌ وحنين ، ووصالٌ بعد بَيْن ، وسَدٌّ لنقصٍ كان ينكسر له قلب إسماعيل ، حين يرى الآباءَ ولا يرى أباه .

وإشباعٌ لعاطفةٍ كان يُدارى لَهيبَها إبراهيم حين يرى الأطفال ، ولا يرى إسماعيل !

* * *

وفى نشوةِ هذا اللقاء ، أرادتْ حكمة الله أن يمتحن إبراهيم أشقَّ امتحان ، لا فِى ماله وهو كثير ، ولا فى جسمه وبَدَنِهِ وهو قوىّ ، وإنما كان الامتحان فى وحيده ، وفلذة كبده إسماعيل .

* * *

أراه الله فى منامه ، أنه يذبح إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء تكليف .

وأصبح إبراهيم مهموماً مغموماً ، كيف يقوى على ذبحه ، وقد كان مُكْتَوِياً مُلْتاعاً لبعاده ؟ وكيف يَجْلَد على حزِّ رقبته وإزهاق روحه ؟ وماذا يبقَى من عقله وجَلَدِهِ واحْتماله ، ليدفِنه ويُوارى جثَّته ؟

يا ربى تقبَّلْ نفسى فداءً لولدى !

أستغفرك يا ربى ، فهذا قضاؤك ، ولا رادَّ له .

اللهم إنى لا أسألك ردَّ القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه !

* * *

واصطحب إبراهيم ، ولده إسماعيل ، وخرجا يسعيان ، فلما بلغ معهُ السَّعْى قال له : « يا بنى ، إنى أرى فى المنام ، أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى » ؟

والولد البارُّ بأبيه ، يُكرمه ويُطيعه ولا يُخزيه .

لك الله يا إسماعيل ، ولك الله يا إبراهيم !

في طاعة الله تنسَى أنه ولدُك ووحيدُك !
كلا والله ما نسيت ، ولـكنّه الانقيادُ لأمر الله .
وتنسى يا إسماعيل ، أنه يطلب رقبتَك ، و يسألك روحَك !
كلا والله ما نسيت ، ولـكنه الانصياعُ لأمر الله .

نفسان طاهرتان تتناجَيَان ، ولا رقيبَ إلا الله ، وما سمعهما إنسٌ ولا جان ، ولا حنَا عليهما حانٍ ، ولا أبصرهما عدوٌّ شَمْتَان .

وقال له إسماعيل : « يا أبت ، افعلْ ما تُؤْمَرْ ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

يا أبت ، اذبحْنى ، ولـكنْ بعيداً عن أمى ، حتى لا تفْجعها فىَّ ، فهى وَحْدَها التى حَنَتْ علىَّ ، واغْتَرَبَتْ مِن أجْلى ، ودَفعتْ حياتها ثمناً لحياتى !

يا أبت اذبحْنى ، ولـكنْ لا تفجعْ فِيَّ أصدقائى الصِّبيانَ العرب .
و يا أبت اذبحْنى ، ولـكنْ لا تفجعْ نفسَكَ فِيَّ ، فأنا حبيبُكَ ووحيدُك !
و يا ليتنى يا أبى ، أستطيع أن أذبح نفسى بنفسى ، على مذبح مَرْضاتِك حتى لا أُتْعبك ، ولا أشقَّ عليك !

و يا أبت ، أنا ابنُك ، وطَوْعُ أمْرِك ، وسآخذ معى الحبلَ والسكِّين ، وسأسْبقُك إلى وادى مِنَى ، وفى قاعه اذبحْنى ، بين جبـاله العالية ، وسكونه الرهيب .

وَعَدَ إسماعيل أباه ، وصدَقَ وعْدَه ، ولو أنه سيدفع رقبتَه وحياته ثمناً لوعده . « واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادقَ الوعد » .

* * *

وإسماعيل فى طريقه إلى مِنَى ، لَحِقَ به الشيطان إبليس ، فوسوس له بقوله : يا إسماعيل ، لا تستمعْ لهذا الشيخ الذى شاخ وخَرِف ! يا إسماعيل شبابُك وحياتُك ، وأمُّك التى ستعمى من بكائها عليك !

ولكن العقيدة الراسخة لا تُزَعْزِعها الوساوس ، فأخذ جَمَرَاتٍ ورَجَمَه بها ، وصدَّه عن طريقه ، وسار .

ثم اعترضه إبليس مرة ثانية ، ووسوس له يقول : يا إسماعيل ، إن أباك لم يرَ فى منامه رؤيا ، وإنما هو رجلٌ عجوز حرَّضَتْه عليك زوجته سارة ، ضَرَّةُ أمك ، التى طردتْكما من الشام ، وهذه محاولةٌ أخرى للقضاء عليك ففتحْ عينيْك ، فلَسْتَ الآن فى طاعة أبيك المسكين ، وإنما أنتَ ضحيةُ الغَيْرة ، غَيْرة الضَّرة . وقد نبَّهتُك ، فخُذْ حِذْرَكَ !

ولكن العقيدة السليمة ، لا تَهُدُّها الدسيسة ؛ والقلبَ العامِرَ لا تُخَرِّبُه شائعاتُ السوء .

فجمع جمراتٍ ، ورجم إبليس ، وصدَّه وأخزاه !

وجاء إبراهيم ، فقدَّم إليه إسماعيل الحبلَ والسكين ، وهمَّ أبوه أن يربطه ويُكتِّفه ، ولكنّ إسماعيل قال : يا أبت . أنا مُستسلم لك ، راضٍ بقضاء الله وأحب أن تذبحنى من غير وَثاق ، حتى يكون لى ثوابُ الرضا بمقدور الله .

فأضجعه إبراهيم على جنبه ، واستجمع قوّته وشجاعته ، لذبح ولده .
وأمسك السكين بيدٍ مرتعشة ، وأعصابٍ محطمة مُنْهارة ، ونفسٍ مُنكسرة ، وقلبٍ مَكْلُومٍ حزين .

وحزّ بالسكين رقبة ولده ، ولكنّ السكين لا تحُزُّ ولا تقطع ، فهى كالعين التى سُلِبَ بصرُها فأصبحتْ لا ترى ، وهى كالنارِ التى أوقدوها لتحرق إبراهيم ، ولكنها كانت برداً وسلاماً عليه .

وكذلك كانت سِكينُ إبراهيم ، لا تحُزُّ ولا تقطع .

والشيخ يَزُمُّ شفتيه ، ويكتم نَفَسَه ، ويستنجد بما بقى فى نفسه من شجاعة ، وبما بقى فى عضلاته من فتوة ، ويحزّ بالسكين ، فلا تحزّ . ولا تقطع .

وتأخذه الرحمة فيبكى ، وتدمع عيناه ، فتسقط الدموع على دموع إسماعيل الباكى رحمة بأبيه .

دموع على دموع ، تغلِى وتفُور بحرارة الإيمان ، فيصعد منهما عمودٌ من نور ، وقَبَسٌ من طاعة الله ، والاستسلام لقضاء الله ، والتضحية فى حب الله بالحياة ، وهى أغلى ما وهب الله !

وضجَّت ملائكة الله فى سماه ، وتعلَّقَتْ بعرش الله ، تدعو وتستجير بالله .

ارحمْ يا رب هذا الشيخ الكبير ، وافدِ يا ربِّ هذا الغلامَ الصغير !

واستجاب الله ، ورحم إبراهيم وإسماعيل ، وأنزل جبريل بالفِداء ، بكبشٍ من كباش الجنة ، وقال :

يا إبراهيم ، ربُّك يُقْرِئُك السلام ، ويُنعم عليك وعلى إسماعيل بالفِداء والإكرام .

« يا إبراهيم ، قد صدَّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نَجْزى المحسنين ، إن هذا لَهُو البلاء المُبين ، وفَدَيْناه بِذِبْحٍ عظيم ، وتركْنا عليه فى الآخرين سلامٌ على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » .

* * *

وهلَّل إبراهيم ، وكبَّر إسماعيل ، وفرحت لفرَحِهما السموات والأرض والجبال ، وكان يومُهما يومَ عيد ، عيدِ الأضحى ، الذى رسمه إبراهيم لمَّا ضحَّى بالفداء .

* * *

لك الله يا إسماعيل ، إنك سيِّد الأبناء ، وعميد الأبرار ! أين منك أجدادك أولاد آدم ، الذين اقتتلوا من أجل عروس ! وما اقتتلْتَ ولا غضِبْتَ من أجل نفسك !

وأين منك عمُّك ، ابنُ نوح ، الذى خرج عن طاعة أبيه ، وقد كنتَ فدائياً مثالياً فى طاعة أبيك .

* * *

وعاد إبراهيم إلى الشام ، بعد هذا الابتلاء ، راضياً ، خاشعاً مؤمناً ، وقد رسخ إيمانُه ، وعمُق يقينه ، وسبح فى ملكوت الله ، لا يرى ولا يسمع ، ولا يُبصر ، ولا يفكر إلا فى الله .

« ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يجمعون » .

و « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » .

ورحمةُ ربنا أوْسَع ، وفسيحُ رضاه أَرْحَب ، مما نظن ونأمُل .

فلقد كان إبراهيم غارقاً فى حيائه من الله ، إذ حَبَاه وفَدَى له إسماعيل .

وما لبث أن حَطَّ رحالَه عند سارة ، حتى شاركته فى الثناء على الله .

وسبَّحتْ الله فى علاه ، وخرَّتْ ساجدةً حامدةً شاكرةً على ما قضاه .

و « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

فقد دخل عليها ، وعلى إبراهيم ، ملائكةُ الله ، يزُفُّون إليهما البُشْرى ، بولدٍ سيولد لهما ، واسمُه إسحٰق ، ومن وراء إسحٰق يعقوب .

فلما سمعت البُشرى ، اختلط عليها أمرُها ، وتوزَّعت عواطفُها ، بين شيخوختِها التى لا أمل فيها أن تلد ، وبين بشارة من الله أنْ سيَهَبُ لها الولد ! فضحكت بمِلْءِ شِدْقَيْها مرة ، وضَرَبتْ وجهَها بكفَّيْها مرة ، وغرقت فى العَجَب مرة ، وخافَتْ قولَ الناس فيها وفى زوجها الشيخ مرة .

وفزعت لِهَوْل موقفها ، وقالت : ياويلتا ، أألِدُ وأنا عجوز ، وهذا بَعْلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب !

قالوا : أتعجَبين من أمر الله ! رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيت .

* * *

وبعد فترةٍ من الزمن ، طالتْ أو قصُرَتْ ، كبر إسماعيل وَشَدَا ، ودرج مع أطفالِ العرب الذين عاشوا حوله ، وهم يلهون ويلعبون ، ويركبون

الخيل ، ويتبارَوْن فى الفروسية ، ويرمونَ بالسهام والقِسِىِّ ، ويجرون وراء الغزلان . وتزوج إسماعيل ، وبنى بيتاً وكوَّن أسرة .

وجاشت فى نفس أبيه الشيخ عاطفة الأبوة ، أن يرحل ليزور ولده إسماعيل الغريب . ووصل ، وطرق الباب ، فردتْ عليه زوجةُ ولده ردًّا غير كريم ، ولم تعْزِمْ عليه ، ولم تُحسن التحدث إليه ، بل شَكَتْ الحال ، وسوء المآل ، وقلة المال ، وشظفَ العيش ، وضِيقَ النفس بالحياة .

والأب العجوز النازح من الشام إلى الحجاز ، يتحسَّسُ أخبار ابنه ، فيسمع من هذه الزوجة ، كلاماً عن ابنه لا يسُرّ ، ويرى من لِقائها ووجهها ما يضر ، فلم ينزل عن ناقته ، ولم ينشرحْ صدرُه ، وقال : إن جاء إسماعيل ، فسلمى عليه ، وقولى له : إن رجلاً من الشام ، جاء يزورك ، فلم يجدْكَ ، ولم يَسعدْ بك ، وساءه أنك غيرُ سعيد ، وهو يدعو لك ويوصِّيك أن تُغيِّر عتبةَ بابك .

فَشيَّعته بجَفْوة ، وأغلقتْ الباب فى وجهه .

وعاد إسماعيل ، فأخفتْ عليه ، ولكنه شم رائحة أبيه .

فتحدثتْ حديث الغضبانة ، عن رجل عجوز ، يسأل ويوصِّى ؟ ومالَه ! ومالَنا ، يبحث فى أحوالنا ، وينصحُنا أن نغيِّر عتبة بابنا ! !

فقال إسماعيل : ياتاعسة الحظ ، وياخائبة الأمل ، سعادةُ الإنسان فى حفظ اللسان ، إنه أبى ، جاء يسأل عنى ، ويطمئن علىَّ .

وتغيير العتبة ، تطليق المرأة ، وتسريحُ الزوجة ، اذهبي فأنت طالق .

* * *

وعاد أبوه بعد قليل ، لانشغاله عَليه ، وطَرَق الباب ، فلَقِيَ الترحيب والتأهيل بالضَّيف الكريم ، والأب الرحيم ، وأن إسماعيل سيعود عما قريب ، وأنزلْ ياسيدى ، فأنا هنا خادمته وزوجته . وهو سعيدٌ ، وفى خيرٍ مزيد ، وعيشٍ رغيد . ولما لم ينزلْ ، استحلفتْهُ بالله لَينتَظِرَنَّ .

ثم دخلت ، وما أسرع ما خَرجَتْ ، بماء ليغسل به وجهه ورأسه ، ثم دخلتْ ، وما أسرع ما خرجتْ ، وعلى رأسها زادٌ من لبنٍ وتمر ، وسقته ماءً بارداً سائغاً للشاربين .

فقال لها : باركَ الله عليك وعلى إسماعيل ، سلمى لى عليه ، وقولى له إن أباكَ ، مطمئنٌ عليك ، ويدعو لك ، ويوصِّيك أن تُثبت عتبة داركَ .

وجاء إسماعيل ، فهلَّلت وكبَّرتْ لزيارة الشيخ الكريم ، وأنها تمنَّتْ عليه أن يستريح ، ولكنَّه لم ينزلْ .

فقال : ياسعيدة . هذا أبى ، حلَّتْ بركاتُه ، واستجيبتْ دَعَواتُه دعا لك بالتثبيت ، لِقاءَ ما أكرمت ، وأحسَنْتِ اللِّقاء .

«يُثبت اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابت ، فى الحياة الدُّنيا ، وفى الآخرة ، ويُضلُّ الله الظالمين ، ويفعلُ الله ما يشاء » .

* * *

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى ، بوادٍ غيرِ ذى زرعٍ ، عند بيتك

المحرم ، ربَّنا ليُقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدة من الناس تَهْوِى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون » .

* * *

أين كان بيت الله المحرَّم ، يوم دعا إبراهيم ربه ؟
أكان يعرف إبراهيم مكانه ؟ أم ألهمه الله أنَّ هذا مكانُه ؟
أو أنَّ هذه الرَّبوة ستكون مكانَه ؟

* * *

أم كما قالوا : إن الملائكة بَنَوْا مسجداً هنا ، سَجَدُوا لله فيه ، وطوَّفوا حوله ، تسبيحاً لله ، وثناء عليه ؟

* * *

أم كما قالوا : إن آدم ، يوم هبط إلى الأرض ، بنى مسجدَه هنا ، ثم قدُم واندْثر ، وغمره طوفانُ نوح ، وبقيتْ أطلاله ؟

الذى كان ، أن إبراهيم أسْكَنَ إسماعيل هنا ، ليُصَلِّى لله ، ولتُصلِّى ذريتُه فى هذه البقعة الطيِّبة من الأرض ، وسأل إبراهيمُ ربَّه ، أن يجعل قلوب الناس تهْفُو وتهوى إلى هذا الوادى القاحل المُجْدب ، الذى لا زرعَ فيه ولا ضَرْع . وسأل الله ، أن يَمُنَّ عليهم بالثَّمر ، والثمرُ من الشجر ، والنخلُ وفير ، وخيره كثير .

* * *

وكان كل دعاء إبراهيم ورجاؤه ، أن يُوفِّق هؤلاء الذين سيعيشون فى هذا الوادى إلى شكره على ما أنعم ، والثناء والحمد على ما وهب . من تيسير

أسباب الحياة والرزق ، فى صُقع من الأرض ، لا تُرجى فيه حياة ولا رزق .

* * *

ولعل من استجابة الله لدعاء إبراهيم ، أن فَرَضَ الحجَّ على الناس ، ليحملوا إليهم من مالٍ ورزقٍ وزاد ، ومنَّ عليهم بالشجر والثمر ، ومنَّ عليهم بثمر الأرض من مناجم الذهب ، ومنابع البترول ، وأفاء عليهم بفضله العميم ، ولعلهم على ذلك يحمدون ويشكرون ! .

* * *

والذى كان ، أن الله سبحانه ، جعل من دون استجابة دعاء إبراهيم ، اختباراتٍ وامتحاناتٍ وابتلاءات .

« وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ ، فأتمَّهن » .

فابتلى إبراهيمَ فى هَجْرِه ضَنَاه إسماعيل .

وابتلى هاجرَ فى الصبرِ على الحَبْس ، فى وادٍ غير ذى زرع . وأعطشها ، حتى كادتْ تهلِك ، وأوْحَشَها ، حتَّى كادت تَنْبُو بالمكان . وأهدى إليها العين ، حتى يرى إنْ كانت ستضِنُّ على العرب العطاش ، وجمَّع عليها العرب ، وهى شابَّة ، ليبلُوَها فى رعايةِ نفسها ، وصيانةِ عِرْضِها ، ومَاء وجْهها وحَضَانَةِ ابنها .

واختبر إبراهيم ، بِلَهَبِ الشَّوْق والحنين إلى ولده ، وهو فى قُطْرٍ غير قُطره ، فجعله نَهْباً مُوَزَّعاً بين سارة فى الشام ، وبين هاجر وإسماعيل فى الحجاز .

وابتلاه بذبح ولده ، ثم فداه ، ليسبُر غوْرَ صبره ، على قضاه . وبشّره بإسحق ، ومِنْ وراء إسحق يعقوب ، ليرى مقدار شكره .

وابتلاه بسَفَرَاتِه ورَحَلَاتِه من الشام إلى الحجاز ، ليزورَ إسماعيل فتصدُمه زوجةُ إسماعيل الناكرة . ويزورُه مرة أخرى فتلقاه زوجتُه الشاكرة .

وابتلاه بتوزيع جُهوده بين هذا وذاك ، وهو لا يزال مُكلَّفاً بدِينه ، ونَشْرِ رسالته ، والدعوة إلى الله .

قوّاك الله يا إبراهيم ، فى اختبارٍ وابتلاءٍ توضع فى البُوتَقَةِ لتَنْصَهِر ، فتخرج منها ، خالصاً من الدَّرن ، صافىَ المعدن ، لطيفَ الحِسّ والإيمان .

حتى إذا أتمَّ الله صُنْعَكَ على عين الله ، وحَسْبَما أرادك الله ، كلَّفَك أن ترحل رِحلةً خطيرة ، لمُهِمَّةٍ خطيرة .

* * *

أن ترحل يا إبراهيم هذه المرة من الشام إلى الحجاز ، لتبنى أنتَ وولدُك إسماعيل ، بيتاً لله ، أول بيوتِ الله ليعبُدَ الناس فيه الله :

« إن أول بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذى ببكة ، مباركاً وهدًى للعالَمين . فيه آياتٌ بيِّنات ، مقامُ إبراهيم ، ومَنْ دخله ، كان آمنا » .

« وإذ بَوَّأْنا لإبراهيم مكانَ البيت ، ألا تُشْرِكْ بى شيئا ، وطَهِّرْ بيتى للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السُّجود » .

« وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت ، وإسماعيل ، ربَّنا تقبلْ منَّا ، إنَّك أنت السميع العليم ، ربَّنا واجعلْنا مُسْلِمَيْنِ لك ، ومِنْ ذريتنا ، أمةً

مُسلمةً لك ، وأَرِنَا مَناسِكَنَا ، وتُبْ علينا ، إنك أنت التوابُ الرحيم .
ومَنْ يرغبُ عن مِلَّةِ إبراهيم إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرةِ لمن الصالحين ، إذ قال له ربُّه أسلمْ قال : أسلمتُ لرب العالمين » .

أليس فى دعاء إبراهيم ، بشارة ، بدعوة نبيِّنا محمدٍ ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ؟ حين دعا فقال :

« ربنا وابعثْ فيهم رسولًا منهم ، يتلو عليهم آياتِك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ؟ .

* * *

وإبراهيم يبنى وإسماعيل يُناول ، فى الله ، ولله ، حتى بُنيت الكعبة ، فكانت أولَ بيتٍ للعبادة ، وكلُّ مسجدٍ للعبادة ، ولكنْ للكعبة فضلُ الأوْلويَّة . كالابْن البِكْر بين إخْوتِهِ وأخواته له الهيبةُ والقيمةُ والاعتبار .

* * *

يوسف

ويوسف بن يعقوب بن إسحٰق . وإسحٰق بن إبراهيم ، عليهم السلام وكلهم من بابل ، وحتى الذى يهجر بابل ، لا يلبث أن يعود إليها .

* * *

وبابل منبع الأحلام ، ومزرعة الروحانيات ؛ وعجائب الدنيا أهمُّها برج بابل ، والحدائق المعلقة ، والسحر والسحراء فى بابل .

« وما أُنزل على الملَكَيْن ببابل ، هاروت وماروت ، وما يُعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » .

وبابل ، التى درج منها إبراهيم ، والتى عاش فيها إسحٰق ، وخلَّف فيها ابنه يعقوب ، قبل أن يرحل ، ووصَّى ابنه ، أن يرجع إلى أخواله فى بابل ليزوجوه ، وليسندوه ويعزّزوه .

* * *

ومن بابل ، رجع يعقوب إلى الشام ، بزوجتين أختين ، وجاريتين ، وخلَّف من هاتين ، وهاتين ، اثنى عشر ولداً .

* * *

وكان ألطفهم وأجملهم ، جمالا فتَّاناً ، ولده يوسف ، فكان أبوه يعقوب يحبه ، ويحتضنه ، ويشغل به كل وقته ، وينصرف به عمن سواه

حتى تحركت نفس الأخوة ، ودبت الغيرة بين الضّرة والضرائر ، والأخ والأخوة ، وتفتحت الأعين ، وابتدأت المكايد .

* * *

وأصبح يوسف ، يقص على أبيه رؤيا ، رآها فى منامه : « يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » .

وأبوه يعقوب ، طول عمره فى الأحلام ، وتفسير المنام ، فليست الأحلام غريبة لديه ، ولا تفسيرها صعباً عليه ، فقال ليوسف :

ومن يكون يا ولدى يوسف ، الأحد عشر كوكباً ، غير إخوتك الأحد عشر ؟ ومن يكون الشمس والقمر ، غير أمك وأنا ؟

تعبير رؤياك يا بنى ، أن الله سيسعدك ، ويعلى قدرك ، حتى يكون إخوتك ووالداك فى احترامك وتعظيمك !

* * *

وهذه الرؤيا يا يوسف ، إذا سمعها إخوتك ، فسيغارون منك ، والغَيْرة تحرق المحبّة ، وتُعمى عن الأخوّة وتدفع على تدبير المكايد ، وتنفيذ الخطط التى يرسمها الشيطان .

« يا بنى لا تقصصْ رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين » .

* * *

وسيختارك الله نبيًّا يا يوسف ، تهدى قومك ، وتأخذ بيدهم إلى طريق الله . وسيُتم الله نعمته عليك ، ويعلمك تفسير الأحلام ، وستُم

هذه النعمة أهلك ، كما أتم الله نعمته على جدك إسحق ، وعلى جدك الأكبر إبراهيم .

* * *

وبدأت المكايد والمؤامرات ، بين الأخوة الحاسدين لأخيهم يوسف ، فاجتمعوا فى ندوة ، بعيداً عن أبيهم ، وقالوا : لَيُوسف وأخوه ، أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصبة ، إن أبانا لظالم فى إيثاره وتفضيله هذين الولدين علينا ، وإنه باحتضانهما ، وانصرافه عنا بهما ، سيضيع علينا كثيراً من عطفه ورعايته ، وسنحرم بسبب هذين الولدين خيراً كثيراً .

ولا نستطيع أن نجبر أبانا على حبنا ، أو أن يقسم حبه بالعدل بيننا ، فقد انشغل كل قلبه بحبهما ، والقلب إذا مال وحبَّ ، سلانا وهجر .

* * *

والرأى ، أن نزيح هذا الولد يوسف من بين عينيه ، فنقتله ، أو نأخذه ونطرحه فى واد سحيق ، فتأكله سباعه ووحوشه ، فلا يعود يراه ، ولا يمضى زمن حتى ينساه ويسلوه ، ثم يعود إلى حبنا ورعايتنا .

والمؤامرات والمؤتمرون ، قد يكون فيهم واحد ، طيب القلب ، رحيم النفس ، رقيق الحس ، يقدِّر عظم المسئولية ، فقال أخوهم الأكبر :

لا تقتلوا يوسف ، ففى القتل وحشية ، وجلبٌ للعار ، وعقوقٌ للأبوّة ، وإهدار للأخوّة .

إن كان لابد أنكم مصرون على إبعاد يوسف عن أبيه ، فلا تسجلوا

على أنفسكم جريمة القتل ، واقذفوا به إلى أقصى الأرض ، أو ألقوه فى الجب ، فى هذه البئر ، فإن مات ، كان موته بعيداً عن أعيننا ، وندعى أنه سقط وغرق فيها ، وإن عاش ونشله أحدٌ فسيذهب به إلى حيث لا رجعة .

* * *

وأعجب هذا الرأى ، الأخوة المؤتمرين ، وراق فى أعينهم ، فأقرُّوه ، وزاد واحد منهم ، فقال : ونخلع عنه قميصه ، ونلطخه بالدم ، وندعى أن ذئباً أكله ، فلم يبق منه شيئاً إلا قميصه !

* * *

وتمت المؤامرة ، واستقر الرأى ، وبدءو ينفذون .

* * *

وذهبوا إلى أبيهم ، يتلطَّفون ويتخاضعون ، ويتصنَّعون التودُّد والحنان ، على يوسف الصغير المحبوب ، العزيز على أبيه ، وعلى إخوته جميعاً !

فقالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنّا على يوسف ، وإنا له لناصحون ، وعليه محافظون .

إنه يا أبانا محتاج إلى الرياضة واللعب ، والرَّتع فى الخلاء ، حيث الهواء ، والشمس الضاحية ، والفضاء الفسيح ، فيجرى دمه ، وتجود صحته ، ويزهو جماله ، ويمتد قوامه ، ويمتشق عوده ، ونحن حراسه ، وجنوده ، المحبون له ، المؤتمنون المحافظون عليه .

« أرسله معنا غداً ، يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون » .

* * *

وقلب المؤمن دليله ، وفراسة الشيوخ ، قراءة فى وجوه الناس ، فقال : يا أولادى ، إننى أخشى ، أن أسمح لكم به ، وأرسله معكم ، فتنشغلوا عنه ، فيهجم عليه ذئب فيأكله وأنتم عنه غافلون .

* * *

قالوا : عارٌ علينا يا أبانا ، أن نكون عصابة فى مثل عددنا ، وقوتنا ، وأن يغلبنا ذئب ، فيأكل أخانا الجميل يوسف .

إننا إن غفلنا عنه ، وأكله الذئب ، نخسر أخانا ، ونحرم رضا أبينا وتسوء سمعتنا الطيبة فى أهلينا ونستحق لوم الناس علينا .

* * *

وأخذوا يوسف ، وساروا به ، وعين يعقوب تشيّعهم ، وقلبه يسابقهم ، وروحه معهم ، حتى غابوا عن عينيه ، ودخلوا فى الخلاء ، واتسع لهم الفضاء ، ووصلوا إلى الجب . إلى البئر .

واجتمعوا عليه ، على طفل جميل ، مُدلّل فى حجر أبيه ، وما رأى شدة فى معاملة ، ولا تعود خشونة ولا خصومة ، وقلبه برىء من كل كُرهٍ وضغينة .

ثم هو يرى هؤلاء العشرة ، يتألّبون عليه ، ويوسعونه شتما ولعناً وضربا ، ثم ينزعون عنه ثيابه ، ويمزقونها من على جسده إلا قميصاً ترجّاهم أن يتركوه عليه ، لعله يستره إذا عاش ، ويكفنه إذا مات .

وطرحوا أخاهم يوسف فى الجب المظلمة ، ويوسف مستسلم لقضاء الله ، فألهمه الله ، وأوحى إليه ، أن اصبر ، فسيأتى اليوم الذى يكرمك الله فيه ، ويرفع قدرك ، ويُحْوِج هؤلاء إليك ، فتواجههم بقسوتهم ، وهم لا يشعرون ولا يدرون ، ولا لحساب فى المستقبل يحاسبون .

* * *

وانقضى اليوم وهم يحسبون أنهم أراحوا أنفسهم من كابوس ، وأنهم أزاحوا صخرة كانت تسد عليهم باب أبيهم .

وما كان يوسف كابوساً ولا صخرة ، وإنما هى الغَيْرة ، ويابئس ما تفعل الغيرة !

* * *

وغابت الشمس كما غاب يوسف ، وهدأت نفوسهم ، كما يهدأ الليل ، وفكروا فى كلام يدخلون به على أبيهم ، فقالوا وهم يتصنّعون البكاء كالنساء : ياأبانا ، اعذرنا ، فقد حدث ما لم يكن فى حُسباننا ، ذهبنا نتسابق ، وأغرانا السباق واللعب ، حتى سهوْنا عن عزيزنا يوسف ، وكنا تركناه عند متاعنا وغدائنا ، فانقضّ عليه الذئب ، فأكله .

ياأبانا ، إننا لفى حسرة وألم ، وقد بكينا حتى انفطرنا ، على أخينا وحبيبنا يوسف . ويزيد حسرتَنا ، أنك تشكّ فينا ، وفى صدق كلامنا ، مهما حلفنا لك ، وإن لم تنفع الأحلاف والأيمان ، فالدليل على صدقنا وإخلاصنا قميصه هذا الذى مزقه الذئب ، ولطّخه بالدم .

فهذه أيمانُنا ، وهذا دليلنا ، فماذا بقى علينا ؟

يا ليته يا أبانا أبقى منه لحماً أو عظماً ، فكنا جئناك به ، ولكن الذئب الكاسر أجهز على لحمه وعظمه ، ثم لعق دمه ، وكاد يأكل قميصه ، لولا أن أدركناه !

* * *

ولكن أين هذا كله من قلب الأب ، المحطّم الآسى ، على ولده ، وعلى أعز ولد ، يطأطىء رأسه ، ويكفكف دمعه ، ويقول : يا أولادى : إن قلبى ليحس ، وإن روحى لتقول كلاماً غير هذا ، وإنه لا ذئب ، ولا دم ، وإنما هى النفس الأمّارة بالسوء ، والتدبير السيىء ، والغَيرة المتقدة ، وعقوق الأبوة ، وإهدار الأخوة !

اللهم صبراً جميلا ، ورضا واستسلاماً ، وعوناً وجلداً ، على كيدكم ، وسوء نيتكم !

* * *

ومرت قافلة من قوافل التجارة ، فاسترَوحت المكان ، وحطّتْ تستريح ، وبعثوا الساقى بالدلو ، إلى البئر ليملأ دلوه ، وأدلى الدلو ، فتعلق به يوسف ، فلما رآه الساقى ، هلّل واستبشر ، وتفاءل بالخير ، وعجب أن تمنحه البئر ماء ، وغلاماً جميلا .

* * *

وقدمه للقوم ، فقالوا : ما عهِدْنا الآبار تهدى إلى الناس غلماناً ، ولابدّ أنها جريمة ، جريمة إخفاء هذا الغلام عن أهله ، وإننا إذا انتظرنا فى هذا

المكان ، حتى تنكشف الجريمة ، فسيضيع وقتنا ، بين التحقيق والتدقيق ، وربما نُسبت إلينا جريمته ، ولابد من أن نخفى هذا الولد ، وأن نحمل بضاعتنا ، ونشد رحالنا ، هيًّا يا رجال إلى مصر ، بهذه اللُّقْية ، لنتخلص منها ، فنبيعها بثمن ، أىِّ ثمن ، لمن يرغب فيه ويشتريه .

* * *

وباعوه لعزيز مصر ، ورئيس حكومتها ، بثمن بَخْس ، دراهم معدودة وهم فيه زاهدون . ودخل به على زوجته الشابّة ، كمن يحمل أغلى هدية إلى زوجته ، ولكنها فترت حين رأت الغلام ، وانطفأ لمعان وجهها ، وانجرحت عاطفتها ، فهذا دليل جديد على شوق الرجل إلى ولد ، وعلى أنها ليس لها ولد ، وهمَّت أن تقول كلاماً .

ولكن زوجها عاجلها ، وسبق عليها ، وقال لها : ياعزيزتى : هذا غلام اشتريناه فأكرمى مَثْواه ، وقدِّرى جماله وصباه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً ، يؤنس وَحدتنا ، ويُذهب وحشتنا ، ويملأ البيت علينا .

* * *

وعاش يوسف فى قصر العزيز ، بعد أن كان بالأمس فى الجب ، وعاش فى نعيم الملوك ، بعد أن كان يرعى الغنم فى إخوةٍ لا يحبونه فى المراعى والوديان .

وهدأت نفسه بهذه النَّقلة ، ونما جسمه ، واتسع فكره ، ونضج عقله ، ونضر شبابه ، وازدهر جماله ، وشعَّت فى جسمه حيويته .

ومنَّ الله عليه بسرٍّ من عنده ، فرعاه وتولاه ، وحفظه من نزوات الشباب ووسوسة الشيطان ، وزاده فضلا ، فعلمه تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام .

واكتمل شبابه ، وامتلأ عودهُ ، واستطال قوامه ، وبانت فتنته ، وكلل الله نِعَمه عليه ، بالحشمة والوقار والاتزان ، وبالعلم الربّانى ، وبالثقافة الإلهية ، جزاء رضاه ، وإخلاصه للوزير الذى اشتراه وآواه ، وأكرم مثواه .

* * *

ويوسف غارقٌ فى التعلق بالله ، منصرفٌ عن كل شىء سواه .

وزُليخة زوجة العزيز غارقةٌ فى متابعة الشيطان ، يَلْفِتها إلى جمال الجسم فى يوسف ، ويصرفها عن جمال روحه ، ويفتنها فى غرامه ، ويصرفها عن أدبه واحتشامه .

ويوسف يصعد فى طريق الخير ، وزليخا تنحدر فى طريق الشيطان .

* * *

فهى تتابعه بالنظرات ، وترميه بألحاظ الجفون ، وتهمس بالآهات والتنهدات ، وتستلفت نظره بالتموُّج والتثنى ، وتستثير نفسه بإبداء الزينات والمفاتن ، وترمى شباكها عليه بكل ما فى وسعها من حيل ، ويوسف مشغول القلب بالله ، وفى خوف الله !

وهى تحسب أن انصرافه وهدوءه صدود وتمنُّع ، فيزداد هيامها ، وتحتدم سَوْرتها ، وتتأجج نارها ، ويتوهج لهيبها ، فيُجَنُّ جنونها ، وتغيب عن وعيها ، وتنسى قيمتها ، فتلْتاع فى غلامها ، وتدعوه إلى نفسها ، وتراوده عن نفسه ، وتغلِّق الأبواب عليه ، وتستخدم قوتها فى إخضاعه ، والاستيلاء عليه .

* * *

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلّقت الأبواب ، وقالت : هَيْتَ لك » .

* * *

والإنسان : عقلٌ وعواطف ، وعواطف الشاب أكثر وأعنف من عقله ، ولكنَّ الله غلَّب عقله على عواطفه ، فرأى يوسف أن من الجحود والنكران ، أن ينسى جميل صاحب القصر ، وأنه آواه ورباه ، وأنه أفسح له حتى اكتمل فى وعيه وعقله وخلقه ، وأنه أنزله من نفسه منزلة الولد ، وأن هذه أصبحت منه بمنزلة الأم ، ولا ترتفع عين الولد فى أمه ، مهما تاهت فى ضلالها . وصاحب القصر قد ائتمنه على عِرضه وماله .

ويرى يوسف أن الله سبحانه قد ساق إليه كل هذا النعيم ، فكيف يجعل شكره فى معصيته ؟ وكيف يشكر صاحب القصر بهتك عرضه ؟ .

ورأى يوسف قدرة الله ، فاستحيا من الله ، فبرد جسمه ، واعتصم بإيمانه ، واستبدَّ فى اعتصامه ، والاحتفاظ بدينه وشرفه ، ولولا ذلك لانزلق مع الشيطان .

ولقد همَّت به ، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

ويا قوة الله التى حفظتك يا يوسف ! ويا عين الله التى ما تنام عنك ! .

أىّ خُلُقٍ مهما سما ، وأى عزيمة مهما اشتدت ، وأى نفس مهما تحصنت ، لا تقع فريسة لهذا الإغواء والإغراء ، فى خلوة وتأجج وجنون ، لولا رعاية الله وعصمته ! .

والناس هم الناس ، وأبوهم آدم الذى انكبَّ من أجل ثمر فى شجر !

فما بالنا بشاب فتى عزَب ، يعف عن أطيب فاكهة تلقى تحت رجليه ، فلا يسقط عليها عينيه ، بل يدوسها بقدميه ؟ .

* * *

ومنظر آخر ، منظر شاب استطاع أن يصد تيار الفتنة لحظة ، فما يصح له أن يقف فى وجه التيار ، فلئن قوى وصد التيار مرة ، فقد تخونه قوته ، وتفلت منه أعصابه ، فيهوى من قمة اعتصامه ، إلى سفح عواطفه ، إلى حضيض نزواته .

ورأى أن من الخير والحكمة ، أن يفر من وجه الشيطان ، وأن يهرب من مسرح الرذيلة ، ويخرج ناجياً بنفسه قبل أن تتعلق بها شِصّ الشباك .

فجرى نحو الأبواب المغلَّقة يفتحها ، ورأت زليخا أنه سيفر من بين يديها ، قبل أن تُبْرِدَ غُلّتها ، وتُطفى ظمأها ، وأن الفرصة إن أفلتت فلن تعود .

فجرت وراءه تناديه ، وتستعطفه بجمالها وأبهتها ، وقوتها ومالها ، ثم بدموعها ودم قلبها ؛ ولكن النفس متى صدَّتْ وجمحت ، فلن يكبحها كابح ، ولن يُلينها أو يكسرها أىّ قوة ، متى ارتكنت إلى قوة الله .

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تُقبل

ولحقت به قرب الباب ، فشدته من ثيابه فمزقتها ، فلم يلتفت إليها ، وفتح الباب ليخرج ، ولكن . . !

ولكن يا لهول ما رأى ! لقد رأى العزيز الحاكم ، واقفاً بالباب يتسمّع !

« واستبقا الباب ، وقدّت قميصه من دُبُر ، وأَلْفَيا سيدها لدى الباب» . ما لكم في هرج ومرج ؟ ماذا أرى ؟

مالك يا يوسف ؟ ومالك يا زليخا ؟ فسكت يوسف ، لأن الحق سيتكلم ، وتكلمت زليخا ، لأنها تخشى أن يظهر الحق .

* * *

وما أقوى المرأة على التمثيل ، وعلى النفاق ، وعلى تمكنها من أعصابها ؟ امرأة العزيز ، التى كانت منذ لحظة ، تتهاوى إلى أسفل مواطن الرذيلة ، ويكاد عقلها أن يفارقها إلى غير رجعة ، والشيطان قد لبس جسمها ، وأشعل نارها ، وأرخص عفافها ، وأهدر كرامتها ، فداست بقدمها شرفها .

تستطيع فى لمح البصر ، أن تسترد وعيها ، وتملك نفسها ، وتتمكن من أعصابها ، وتنتصب فى وقفتها ، وأن تُلْقى عارها على أكتاف غيرها ، وأن تتقمص مُسُوح العفاف والشرف ، وأن تقول لزوجها : إن غلامك هذا خائن حاول الاعتداء على عفتى وكرامتى ، وما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن ، أو عذابٌ أليم .

وتمثيل عواطف العُهْر فى أسفل صورة ، ثم تمثيل عواطف الطُّهْر فى أسمى صورة ، فى وقت واحد ، قوة لا تستطيعها إلا المرأة .

* * *

أما الرجل ، يوسف ، فقد صمدَ لهذه المفاجأة ، وثبت فى موقفه ، ولم تخنه أعصابه ، ولم ينفجر ثائراً لهذا التلوُّن البارع ، ولا هذه الجرأة الجريئة ، ولم يزد على أن قال الحق : هى راودتنى عن نفسى .

ولم يشرح ، ولم يَحُك ، ولم يفصح ، ولم يفضح ، وذلك فعل الكريم النبيل ! وكان موقفاً رهيباً ، بين الحق فى صمته وسكونه ، وبين الباطل فى عجيجه وضجيجه .

وليُحقَّ الله الحق ، ويُبطل الباطل ، دخل ابن عم هذه المرأة الفاجرة ، وعرف ما كان ، وسطع بريق الحق فى عينيه ، وطنَّ طنين الباطل فى أذنيه ، وغلب البريق على الطنين ، فنطق بالعدل ، وشهد بالصدق ، وفسَّر الموقعة ، وأدلى بالحجة : « إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل ، فصدقتْ ، وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ ، فكذبتْ ، وهو من الصادقين ، فلما رأى قَميصه قُدَّ من دُبُرٍ ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » .

وأحسَّ العزيز بحَرَج الموقف ، وبخطورة السُّمعة . وقدَّر أن الشدة ، لا تصلح علاجاً ، وأن من الحكمة إغضاء العين ، والانحناء للعاصفة .

فالتفت إلى الشاب الجرىء البرىء ، وقال : يا يوسف : أَعْرِضْ عن هذا ، وتسامحْ فى حقك ، فأنت أهلٌ لثقتنا فيك ، وأبعدُ من أن يتسرب الشك إليك .

وأنت يا زليخا : يا مخطئة ! استغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين .

* * *

وتسرَّبَتْ الإشاعات ، ودوَّت الأقاويل ، وملأت المجالس والأندية ، وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبًّا ، إنا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن ، وعذلهن ، وما يدور حولها

فى مجالسهن ، أرادت أن تدفع عن نفسها اللوم ، وتقطع ألسنة الغيبة ، وأن تجعل نساء المدينة يعذرْنها ، ويخفّفْن من نهشها ؛ فدبرت لذلك أمراً ، ودعتهن إلى وليمة عندها ، وغذاء فى قصرها ، وهيأت المكان ، وأعدت المقاعد الوثيرة والمتكآت المريحة ، والأرائك الفسيحة ، وقدمت لهن الفاكهة ، تفاحاً وكمثرى وأعدت السكاكين لتقشيرها .

ثم كانت المفاجأة . . . . !

فاجأتهن ، بأن أطْلَعت عليهن يوسف ، فى شرْخ شبابه ، واكتمال إهابه وفتنة جماله ، واعتدال قوامه ، ووجهه الوضّاح ، وورد خده الفوّاح ، وسحر عيونه ، وأسر جفونه ، وقوة روحه ، وسَبْيِ سكونه ، وجلال أدبه ، ورهبة احتشامه ، ونور طلعته .

والنساء يأسرهن الجمال ، ويسبيهن امتشاق القوام ، فوقعن كلهن فى أسره وسحره ، وذهلن عما فى أيديهن من فاكهة وسكين ، ورُحْن بلا وَعْى ، يُقطِّعن أيديهن ، وقلْن فى شهْقة الوَلْهان : حاشَ لله ، ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم ! رحمةً بها يا يوسف ! ورفقاً بفؤادها ، وحنانيك على قلبها .

إنك تقتلها بتأبِّيك واعتصامك ، وأنت غلامها وفتاها ، فلها ودادُك ووصالُك ، ولا لوم عليها ولا تثريب !

وانتصرت زليخا ، وأخذتها نشوة الانتصار ، وثملت بخمر المكيدة والإيقاع ، وازدهتها الأيدى المقطَّعة ، والدماء المنهمرة ، والفاكهة المضرجة ، والعيون الزائغة ، والأفواه الفاغرة ، والعقول الذاهلة ، لأول نظرة يُلقينها على شاب جميل .

وقالت : نظرةٌ واحدة ، قطَّعت الأيدى ، وأسالت الدماء ، وأذهلت العقول ! ولو طالت نظراتكن إليه ، وأقمْتُنَّ بين يديه ، لقطَّعْتن القلوب عليه ، ولذبتُنَّ شوقاً إليه ، وأهلكتنَّ أنفسكن بين يديه .

« فذلكنَّ الذى لُمْتُنَّنِي فيه ، ولقد راودْتُه عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعلْ ما آمره ، ليسجنَنَّ ، وليكونَنْ من الصاغرين » .

* * *

ويوسف كما هو يوسف ، ثابتٌ راسخ ، كثباته ورسوخه ، يوم ألْفيَا سيدها لدى الباب .

بل إنه اليوم أحوج إلى رعاية الله ، وحصانته وعصمته ، فلقد كانت واحدهٌ هائجة عليه ، واليوم واحدة ، ووحدات ، يُقطِّعْن أيديهن عليه ، ولا عاصم اليوم ، إلا عصمة الله !

* * *

وأدار لهن ظهره ، ورفع إلى السماء وجهه ، وبسط كفه ، ودعا ربه : فى هذه الساعة الحرجة ، ساعة الفتنة . فقال : « رب ، السجنُ أحبُّ إلىَّ مما يدعونَنِي إليه ، وإلا تَصْرِفْ عنى كيدَهنْ ، أصْبُ إليهن ، وأكُنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

* * *

وأحدثت هذه الدعوة ، وتلك الوليمة ، رجَّةً فى المدينة ، وفضيحةً فى كل بيت ورجعتْ كل مدعُوَّة ، ذاهلة تائهــةً مُتيَّمةً فى حب يوسف ، فاتن الأميرة ، وساحر الأميرات الفاتنات .

وخاف أهل المدينة الفتنة على نسائهن ، ورأى الوزير الخطير ، أن يَصُدَّ هذه العاصفة الجارفة ، بأن يُبعد يوسف عن أعين الهائمات المتيمات ، وأن يحتجزه فى سجن القصر ، لعل البُعد يُنسيهن يوسف ، ولعل السجن يُطفى شُعلة جماله ، ويُذوِى نضرة شبابه .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوْا الآيات ، ليسجُنُنَّه حتى حين » .

* * *

ويوسف ، كان يدعو الله ، أن يُبَدِّله بحبهن سِجْناً ، وبقربهن بُعدا ، وبفضيحتهن سَتْراً بين جدران يخلُص فيها لعبادة الله .

* * *

وفى السجن ، أكرمه الله ، فأمدَّه بالعلم ، وزوده بالحكمة ، وألهمه تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام .

* * *

ودخل معه السجن فتيَان ، سجينان آخران ، ولم يمض يومٌ ويومان ، حتى رأى الفَتَيان رؤيا فى المنام ، فأصبحا يقُصَّان ما رأيا على يوسف : قال أحدهما : إنى أرانى أعصر العنب ، وأقطِّره وأعتِّقُه فيكون أجود خمراً . وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خُبزاً ، تأكل الطير منه .

يا أخانا يوسف ، ما تأويل رؤيانا ، بالله عليك اصْدُقْنا ، وأرِحْ خواطرنا ، لعل فيها الخير ، ولعل فيها فرجاً بعد شدة ، وانفِكاكا من سجن ، فالسجن مقبرة الأحياء ، وشماتة الأعداء ! .

* * *

ياصاحبَيِ السجن ، أما أحدكما ، فسيُعفى عنه ، ويشمله عطف الملك ، وسيُقرِّبه إليـه ، فيكون ساقيـه ، والمؤتمن على حياته ، وسيعلو ذكره ، ويسمو قدره .

وأما الآخر ، فسيثبت اتِّهامه ، وسيُقْتَلُ ويُصْلب ، حتى تأكل الطـير من رأسه ، قُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان .

* * *

وغلط يوسف غلطة ، ما كان ليقع فيها نبيٌّ ولا رسول .

وما كان ليقع فيها يوسف الذى أبت نفسه أن يجلس على عرش النساء ، وفى عفةٍ وكرامةٍ ، داس على قلوب الفاتنات الحسان ، وهو يخطر داخلا السجن ، طائعاً مختارا .

* * *

ولله حكمة فى أن يغلط يوسف ، حتى تـكون لنا فيها موعظة وعبرة .

* * *

حاشاك يا يوسف ، أن تنسى ربك وإلٰهك ، وتطلب العون من إنسان كان بالأمس سجيناً معك ! .

هل استبطأْتَ رحمةَ ربك ؟ وهل ضَجِرْتَ من ابتلاء الله وامتحانه ؟ وإذا كنتَ ، وأنت النبى المعصوم ، تفزع من الابتلاء ، وتتشوّق إلى الخلاص ، وتستغيث بإنسان ، فماذا يصنع الذين ليسوا بأنبياء ، ولا أصفياء الرحمن ! .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك » ! .

وكان أن أدّبه الله ، وأنْسَى ذلك الإنسـان ، فظل يوسف فى السجن بِضْع سنين . نعوذ بالله من غضب الله ! حتى الأنبياء ، لا يُعْفَوْنَ من غضب الله ! .

* * *

وإذا كانت لَفْتَةٌ واحدة ، التفت فيها يوسف عن ربه ، كان جزاؤه وتأديبه سبع سنين فى سجن مظلم ، فماذا يكون جزاؤنا وعقابنا ، وحياتنا كلها فى غَفْلَةٍ عن ذِكر الله ، وعن الصلاة ، وعن تحرِّى ما أمر الله ، وفى الإغراق فيما حرّم الله ؟

لنا الله ! ربَّنا لا تؤاخذْنا إن نَسِينا ، أو أخطأْنا ، ربَّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به ، واعفُ عنا ، واغفرْ لنا ، وارحمْنا ، أنت مولانا .

* * *

ولو يُؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولـكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

* * *

وشاء الله سبحانه ، أن يهيء ليوسف أسباب العفو عن هـذه الهفوة ، والإفراج عنه من هذا السجن ، وأن يجزيه على ما صبر واعتصم ، وأن يخرجه من السجن إلى كرسى الحـكم ، وأن يضع فى يديه زمام الخلق ، وأن يُحـكمه فى أرزاق الناس ، وأن يجعله أميناً على خزائن الأرض .

* * *

ويشاء الله سبحانه ، أن يُهيىء ليوسف الخلاص ، ومن نعمة الله على يوسف ، ألا يكون للوزير فضلٌ فيه ، وإنما كان الملكُ نفسه محتاجاً إليه .

* * *

وقال الملك : إنى أرى سبع بقراتٍ سِمَانٍ يأكلهُنَّ سبعٌ عِجَاف ، وسبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ ، وأُخَرَ يابسات .

فهبَّ من أحلامه مذعوراً ، واستغاث بالمفسرين والعرّافين ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلَّا يَخْرُصُون ، وقالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وقال ساقى الملك : يا مولاى ، لقد تذكرت ، تذكرت صاحبى فى السجن ، الذى بشَّرنى بعفوك منذ سبع سنوات ، إنه وحده يا مولاى ، الذى يُنبئُنا بتأويل رؤياك . ائذنْ لى يا مولاى الملك ، أن أدخل السجن عليه .

واعتذر الساقى ليوسف من نِسيانه ، وسأله : يا يوسف : أَفْتِنَا فى سبع بقرات سمان يأكلهُنَّ سبعٌ عِجَاف ، وسبعِ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابسات ، لعلى أرجعُ إلى الناس ، لعلهم يعلمون .

قال يوسف : يا صاحبى ، رؤيا ملككم هذه ، امتحانٌ كبير ، وحَذَرٌ حَذِير ، وخيرٌ كثير ، وشرٌّ مستطير ، ولا عاصم إلا الله القدير ، ولابد من تفكير وتدبير ، تُخْصِبُ الأرضُ سبع سنين ، وتقْحَطُ سبعَ سنين ، ثم يأتى بعد ذلك عام سَمِين . تزرعون سبع سنين دَأَباً ، فما حصدتم فذَرُوه فى سُنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبعٌ شِداد يأكلْن ما قدمتم

لهنّ إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام ، فيه يُغَاثُ الناسُ ، وفيه يَعْصِرُون .

* * *

وعاد الساقى إلى الملك ، فخَشِىَ العاقبة ، وخاف على شعبه أن يَغْرَق فى النعمة ، ولا يدَّخر من يومه لغده ، ولا مِن يُسْره لُعسره ، فيهلك الناس أجمعون .

* * *

وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول ، كان يوسف كما كان هو يوسف ، لم يَخِفَّ ، ولم يَفْزَع ، ولم يستَخِفّه هذا الاستدعاء ، فإن النفوس الأبيَّة ، لا تذِل ولا تستخذى ، مهما استبدّ بها الزمن ، وأرهقها الظلم ، وما يزيدها ذلك إلا إيماناً واعتصاماً ، وقال فى عزة وأَنَفَة : ارجعْ إلى ربك فاسأله ، ما بالُ النسوة اللاتى قطَّعْن أيديهن ، ونسين أنفسهن ، وبذلْن فى تحريضى على الشر جُهْدهن ، وناصَرْن أُختهن ، وعَذَلْنَنِى ولُمْنَنى فى هجرهن ، فهن صواحب الشيطان يا ساقى الملك ! والله أعلم بموقفى وموقفهن ، وهو ربى صاننى ، فصرف عنى كيدهن ، فما هِمْتُ بهن ولا بصاحبتهن وإن كنَّ أوقعننى فى السجن سبع سنين بظلمهن ومكرهن ، وأنا على هذا لسْتُ من الآسفين .

* * *

وعاد الساقى إلى الملك ، فأمر بجمعهن وقال : ما خطبكن إذ راودْتُنَّ يوسف عن نفسه ؟ قُلْن حاش لله ، ما عَلِمْنا عليه من سوء .

وقالت امرأة العزيز : الآن حَصْحَصَ حقه وبان ، واتضح نُبله وكرمه ، وأنا حقاً اعْتَدَيْت عليه ، وطَمِعْتُ فيه ، وراودْتُه عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، وأُقرِّر وهو غائب ، أنني لم أستطعْ أن أسْلُبه شرفه ، وأنني خُنْتُه ، وغدرْتُ به .

ولعل يوسف ، حين اعتصم بالسجن ، وردَّ ساقي الملك ، كان ذلك ليتأكد للملك ، حين يستمع إلى شهادتين ، أنّ يوسف برىء ، وأنه عفَّ عن أن يخون العزيز فى عِرضه ، يوم كانت الخيانة ميسورةً لديه ، سهْلةً عليه ، ويوم كانت الخيانةُ تَغمُرُه برضا الأمير ، وزوجة الأمير ، ولكنه عفَّ فاتَّهمتْه واستعصم فسجَنَتْه ، وجعلتْه من الصاغرين ، ولكن الله لا يهدى كيدَ الخائنين .

* * *

ولم تأخذْهُ نشوةُ الانتصار ، ولا أغْرَتْه حَوْجةُ الأمة إليه ، واعتمادُها فى وقت الشدة عليه ، ولا غرَّه أن أصبح رجلَ الساعة وسيِّد الموقف ، ولكنه سجد لله يشكره ويصلى له ، ويغالب نفسه ، التى ضاقت بالحبْس سبع سنين ، وضاقتْ بالمرأة التى غلبتْه وحبستْه ، واستعان بالله على كَسْرِ شِرَّةِ النفس العطشى إلى الثأر والانتقام ، وما أُبرِّىء نفسى ، إن النفس لأمّارةٌ بالسوء ، إلا ما رَحِمَ ربِّى .

ولَقِىَ الملكَ ، وتحدث إليه ، فرأى فيه مخايلَ الأمانة ، وحِكمَةَ التصرف ، وعزة النفس ، وأَمارات السيادة ، فقرَّبه إليه ، ورفع منزلته لديه ، وولاه

خزائن الدولة ، وبين يومٍ وليلة ، افرِج عنه من سجنه ، وتربَّع فى كرسى وزارته ، وقال الملك ، وهو واثقٌ من نفسه : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظٌ عليمٌ .

* * *

وجادت السماء ، وفاض النيل ، وأخصبت الأرض ، وشاعت البركة ، وعمَّ الخير ، وغنَّى الطير ، وأمر يوسف الناس ، أن يدفعوا لمخازن الدولة ما يَفيض عن الآكلين ، يتركونه فى سنابله ، ويكدِّسونه فى مخازنه ، عاماً بعد عام ، سبعة أعوام ، حتى فاضت المخازن بالرزق الوفير .

ثم بخلت السماء ، وشحَّ النيل ، وأجدبت الأرض ، وأنكرت الزرع ، وأكلت البذر ، وجفَّ النَّبت ، وصَمَتَ الطير ، وشاع الجوع ، وخاف الناس الهلاك ، وفزِعوا إلى يوسف ، ففتح المخازن ، ووزَّع الأقوات ، وأطعم الجياع ، وأمَّن الناس ، وعدل فى العطاء ، فحسُن ذِكره ، وذاع صيته ، وتسرَّب الحديث عنه ، حتى خطَّى الحدود ، وملأ ربوع الشام .

وفى أرض كنعان ، يعيش الناس فى أرض قحْط ، وعيش شظف ، ورزق جاف ، وقد سمعوا عن مصر ماسمعوا ، من بحبوحة فى الخير ، وسَعَةٍ فى الأرزاق ، وسمعوا أن وزيرها الكريم ، لا يضن على مَن يقصدونه ، ولا يبخل على المحتاجين .

* * *

وخرج بنو يعقوب العشرة ، راحلين إلى مصر ، ودخلوا على الوزير الخطير ، فعرفهم ، وهم له مُنكرون .

عرفهم يوسف ، لأنهم إخوته ، وصُوَرُهم فى ذهنه منذ صباه ، كما هى لم تتغير ، والصُّور المنقوشة فى ذهن الصِّغر ، تبقى واضحةً كالنَّقْش على الحجر .

عرفهم ، ولم يعرفوه ، فهو الآن قد تغيّر ، وكبر بعد صِغَر ، واغتنى بعد فقر ، وعاش بعد أن دفعوه إلى الموت ، وعزَّ بعد أن حقَّروه وأهانوه ، ووَزَر بعد أن كان من رُعاة الأغنام ، فكيف يعرفون وُجُوداً من عَدَم ؟

ومن أجل هذا عرفهم ، وهم له مُنكرون ، ولم يخطرْ على بالهم أنه نجا من الجب الذى ألقوْه فيه ، وأنه عاش وكبر ، ونزح من القدس إلى مصر ، ليصير وزيراً خطيراً .

ولكنّ الدم يحنّ إلى الدم ، مهما فرّقتْ بينهما الجفْوة ، وقطّعتْ حبل الوداد القسوة فهؤلاء إخوتى ، أبناء أبى ، وأنا أخوهم ، وابن أبيهم .

* * *

ولكن ! ما بالُك يا يوسف ، لاتنْسَى أساهم ، ولا تزال تذكر غلظتهم وجَفَاهم ، وما بالُك يا يوسف ، تأخُذُك نفسُك ، فلا تسارع بالتعرُّف إليهم ، ولا ترتمى فى حِضْنهم ، ألا تزالُ واجداً عليهم ؟

* * *

وحاوَرَهم وداوَرَهم ، وساءلهم ، وأكثَرَ من التحرِّى عنهم ، والتدقيق فى بحث أمرهم ، والتفتيش عن أخبارهم ، وما بلدُهم ؟ وما حَسَبُهم ونَسَبُهم ؟ ومن أبوهم وأمُّهم ؟ وكم إخوتُهم ؟ ومَنْ لِأَبيهم ومَنْ لأمِّهم ؟ وأين هذا ؟ وأين ذهب ذاك ؟ حتى انشغل بالُهم ، من طول تفرُّسِه فيهم ، وتساءلوا

فيما بينهم ، ما لهذا الوزير يتقصَّى أخبارنا ، ويتشكك فى أمرنا ، وأبينا ، وإخوتنا ؟

وما سَمِعْنا أنه انشغل بغيرنا ، كما انشغل بنا ؟

هل لَمَسَ سُوءَ حالِنا فعطف علينا ؟ أم شك فى عددنا فَحَذِرَ منا ؟

أم هناك أمرٌ خَفِيَ علينا ؟

* * *

ولما جهَّزهم بجَهَازِهم ، قال : ائتونى بأخٍ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنِّى أوفِى الكيل ، وأنا خيرُ المنزلين ، فإن لم تأتونى به فلا كَيلَ لكم عندى ولا تقرَبون . وقال لِفتْيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رِحَالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون .

فلما رجعوا إلى أبيهم ، ورأَوْا آثار إكرام العزيز فيهم ، وكيف ردَّ بضاعتهم إليهم ، وأنه بهذا ، قد ورَّطهم ليأتوه بأخيهم ، توجهوا إلى أبيهم ، يُراوِدُونه ويُمنُّونه ، ويترجَّوْنه أن يُرسل معهم أخاهم ، فإنَّ عزيز مصر قد شكَّ فيهم ، وسوف لا يُصدِّق دعواهم ، إلا بدليل يقدمونه بين أيديهم ، وإلا فقد أنذرهم بالحرمان ، وحذَّرهم من دخول الأوطان .

يا أبانا ، ما نَبْغِى أكثرَ مما ترى ! فهذه غَلَّةٌ بلا ثمن ، وبضاعةٌ ردها إلينا ، وقد وَعَدنا أن يزيدنا حِمْلَ جملٍ بلا مُقابل ، إنْ نحن صَدَقْنا وَوَفَيْنا .

يا أبانا إننا نَعِدُك أن نحفظ أخانا ، وأن نردَّه سالماً إليك .

* * *

قال : لن أُرْسِلَه معكم ، حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً من الله ، وعهداً عليكم ، أن تردُّوه علىَّ ، وتُعيدوه سالماً إلىَّ ، وألَّا تُؤْذونى فيه ، كما آذيتمونى فى أخيه .

* * *

ويا رحمة الله ! ويا حنان قلوب الآباء ! حتى فى هـذه الشدة يا يعقوب ، وأنت مكروب ، وجُرحُك ما يزال يقطر دماً من أجل يوسف ؛ وحتى وأنت تُسلِّمُ أخاه بنيامين ، لإخوته هؤلاء القُساة الظالمين ، من أجل الغذاء والتموين ، وحتى وأنت تحِسُّ وتتوقَّع أنك ستُلْدغ من هذا الُجحر مرَّتين ، وحتى فيما أنت فيه وتعانيه ، يأخُذُك الرفق والحنان بهؤلاء ، فلا تقسو عليهم فى الحلِف ، ولا تُضيِّق عليهم الخناق ، وتفتح لهم باب الاعتذار ، إذا حدث ما لم يكن فى الُحسْبان . وتقول : إلا أنْ يُحاطَ بكم ، إلَّا أن تُغْلَبُوا على أمركم ، أو يخرج الأمرُ عن طَوْقكم ، أو حين لا تستطيعون أن توفوا بعهدكم ، فيُؤْخَذُ أخوكم عَنْوةً عنكم ، وحينئذٍ فلا تثريب ولا حَرَجَ عليكم .

أهى الرحمة يا يعقوب ؟ أم هو التنبُّؤ بما سيكون ؟ أم هى إرادةُ الله ترضاها ولا تتحدَّاها ، أم هى فِراسة المؤمن ، حين يرى من بعيد بلا تحديد؟! فلما آتَوْه مَوْثِقَهُم ، قال : اللهُ على ما نقول وكيل .

وسمحت نفس الأب الحزين المكلوم ، وأَذِنَ لهؤلاء ، أن يصطحبوا معهم أخاهم وأن يذهبوا به إلى عزيز مصر الذى مَنَّاهم ، وقد يكون يا أولادى أبرَّ به منكم ، فخذوه على بركة الله ، وأمره وأمرى إلى الله !

* * *

ويالقلوب الآباء على الأبناء ! يالقلبك يا يعقوب ؟ ولله ما أحنى ضلوعَك على بنيك ، فلا تنسى أبداً أنهم بنوك ، مهما عقُّوك !

تخاف عليهم الرَّدى ، وتخشى عليهم العَيْن ، والعَيْن الحاسدة ، سَهْمٌ مُسدَّدة ، وأسلحةٌ مُحدَّدة ، بل هى نارٌ موقدة !

وقد استغاث نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحسد ، ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حسد .

ويخرجون يا يعقوب ، فتَتَبْعُهم عينك ، ومعهم قلبُك ، وتحرسُهم دعواتُك ، وتنصحهم . يا بَنِيَّ : لا تدخلوا من باب واحـد ، وادخلوا من أبواب متفرقة .

ثم يردّك إيمانك بالله ، والرضا بما سبق فى قضاء الله ، واعتقادك أنه لا ينفع حَذَرٌ مِن قَدَر ، فتسترجع وتقول : وما أُغْنِي عنكم من الله من شىء .

ثم تُسَلِّمِ أمرك لله ، وتتوكل على الله ، كما يتوكل عليه كل من آمن بالله ، إنِ الحـكْمُ إلا لله ، عليه توكلْت ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

* * *

ولمـا دخلوا على يوسف ، ورأى أخاه ، سجد شكراً لله ، على أن ساق إليه أخاه ، ووجده على قيـد الحياة ، فى يد أعداه ، وهُم الذين من قبلُ طاردوا أخاه ؟

* * *

ودعاهم إلى طعام ، وأجلسهم اثنين اثنين ، فبقى بنيامين بلا رفيق ، فبكى من وَحْدته ، وتذكر يوسف فى غَيْبته ، وتحدَّرتْ دموعه ، وضاقتْ ضلوعه .

وثارتْ شجون يوسف لما رآه ، وتحركَتْ نفسُه لسابق ما عاناه وقاساه .

فمال على أخيه ، وقال : يا بنيامين ، أنا أخوك ، فلا تحزَنْ ، ولا تَبتئسْ بما كانوا يعملون ، ولا تكاشِفهُم بما يجهلون ، وسأدبِّر أمراً وهم لا يشعرون ، وستبقى وهم راحلون .

* * *

فلما جهَّزهم بجهَازهم ، قال لِفتيْانه : دُسُّوا كأس الملك فى رَحْلِ أخى بنيامين ، مِن حيث لا يدرون ، ثم دَعُوهم يرحلون .

* * *

وخرجوا ، وخرج معهم بنيامين ، إلى ظاهر المدينة ، وحين بدءوا الطريق إلى الشام ، لَحِقَ بهم المنادى يصيح : يا أهلَ الشام ، يأيَّتُها القافلة الراحلة ، أيَّتُهَا العِير ، إنكم لسارقون !

قالوا : وأقبلوا عليهم ، ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفْقِد صُوَاعَ الملك ، وهو غالٍ علينا ، مُقَدَّسٌ لدينا ، وعارٌ فينا ، أن تضيع كأس ولينا ومولانا .

ونذْرٌ علينا ، أن نُهدى إلى مَن يردُّه إلينا ، حُمولة جَمَلٍ كبير من قمح وشعير ، وهذا وعْدُ وزير ، ووعْدُ الوزير خطير .

* * *

قالوا : تالله ، لقد علمتم ما جئنا لنُفْسدَ فى الأرض ، وما كنا سارقين ! ونحن أُمناء خُلَصاء ، مِن وَلَدِ الأنبياء ، وشريعتُنا من السماء !

فسألوهم : وماذا فى شريعتكم لعقاب السارقين ، وما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه ، مَنْ وُجِد فى رَحْلِه فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين !

فبدأ بأوْعِيَتِهم ، قبل وِعَاء أخيه ، ثم استخرجها من وِعَاء أخيه ، وحقّ حكْمُ الشرع فيه ، وأخَذَ بنيامين بكأس الملك .

كذلك كِدْنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دِين الملك ، وديوان المملكة ، إلا بإرادة الله ، وليس بتفكيرك ولا تدبيرك يا يوسف ، إلا أنْ يشاء الله .

وبُهِتَ الأخوة العشرة ، واختلط عليهم أمرهم ، لهوْل العار الذى سيلحق بهم ، ولهذا الأخ الذى سرق ، فنُسِبَتْ السرقة إليهم أجمعين

* * *

فطاش عقلهم ، وانساب لسانهم ، فقالوا : إن يسرقْ فقد سرق أخٌ له من قبل ، يُريدون يوسف ، وما سَرَق يوسف ، ولكنها دَفْعَةُ الغضب ، وزَحْمة الحَرَج ، والتنصُّل من العار ، فكان عذرهم أقبح من ذنبهم .

وأسَرَّها يوسف فى نفسه ، واحْتَسَبَها عليهم ، ولم يُبْدِها لهم ، وقال وهو غاضب زاهدٌ فيهم : أنتم شرٌّ مكاناً ، والله أعلم بما تصفون .

* * *

واحمرَّ وجه الوزير ، وبان غضبه ، وكشَّر نابه ، وأغمض جفنه ، لحشُّوا بخطئهم ، وسوء تنصُّلهم من تضامنهم ، وتمرُّدهم على شريعتهم ، وحرج موقفهم فى بلدٍ غير بلدهم .

وماذا يصنعون لأبيهم ، وقد أشهد الله عليهم ، أن يُرجعوا إليه أخاهم .

فراحوا للوزير يعتذرون ويستعطفون ويقولون :

يأيها الوزير ، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك

من المحسنين ! قال : معاذ الله ، أن نأخـذ إلا مَن وجدْنا متاعنا عنده ، إنا إذَنْ لظالمون .

وصرف عنهم نَظَرَه ، ووَلى ظهره ، وأغلق الباب بينهم و بينه .

* * *

ووقعوا فى ضيق ، وانحدروا فى مأزق ، واجتمعوا بعيداً عن النـاس ، وتناجَوْا فى أمرهم ، قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم ، قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ، ومِنْ قبلُ ما فرَّطتم فى يوسف ، فلن أبْرَحَ الأرض ، حتى يأْذَنَ لى أبى ، أو يَحْـكُمَ الله لى ، وهو خـيرُ الحاكمين ، يحكم بينى و بينكم ، و يُظهر حقى وحقكم ، يوم نصحتُكم ألا تقتلوا يوسف ، وألا تمسُّوه بسوء ، و يا إخوتى ، هذه أختُ تِلك ! وسيأخذكم ربّـكم بتمرُّدكم علىَّ ، وأنا أكبركم ، وعلى أبيكم ، وهو ذو فضل عليكم .

ارجعوا ، و ياخَيْبَةَ ما رجعتم ، إلى أبيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسألْ القريةَ التى كنا فيها ، والعِيرَ والتجَّار الذين كنا معهم ، واحْلِفُوا له : إنا لصادقون .

* * *

وماذا يفيد يعقوب ، مِن أعذارٍ ومعاذير ، إلا أن يستسلم للمقادير ! وماذا يستطيع ، وهو الشيخ الـكبير ، ذو القلب الـكسير ، إلا أن ينصرف إلى الله يدعوه و يضرع إليه ، و يقول : بل سوَّلتْ لـكم أنفسُكم أمراً ، فصبرٌ جميل ، عسى الله أن يأتينى بهمْ جميعاً ، إنه هو العليم الحـكيم .

* * *

وتولّى عنهم ، وراح يَنْدُب حظّه ، ويبكى ولدَه بعد ولدِه ، والجُرْحُ الأول أعمق ، والجرح على الجرح أنكى وأشدّ .

* * *

فبكى ، وتحسّر ، وطال بكاؤه حتى نفِدَتْ دموعه ، وابيض سواد عينه ، فعمِىَ ، وكظم غيظه ، وانطوى على نفسه ، وشَرَدَ فكره ، وكاد يهلِك ، إلا أن تتداركه رحمة الله .

* * *

وعزَّ على أهله حالهُ ، فواسَوْه وصبَّروه ، ولامُوه على إغراقه فى أحْزانه فقال لهم : ياقوم ، مالكم تلومون وأنتم لاتعلمون ، إنما أشكو بَثِّى وحزنى إلى الله ، وأعْلَمُ من الله ما لا تعلمون .

وما أحلى الأمانى والآمال ! هما رَوْحٌ وريحان ، وعَوْنٌ على الحدَثان ، وصِمَامُ الأمان فى حياة الإنسان .

وما أحبَّ الأمل فى الله ، والتمنِّى على الله ! حين يقول يعقوب لبَنيه لاتَيْئَسُوا من رَوْح الله ، إنه لايَيْئس من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون .

يا بَنىَّ ، اذهبوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه .

* * *

ياليت الآباء هكذا يصنعون ، ويبعثون رُوحَ الأمل فى بنيهم حين لايُوَفَّقُون وياليتهم يأخذون بأيديهم حين يسقطون ويقعُون ، ولا يَسخطون ويَصْخَبُون ، وياليتهم بهدْيك يا يعقوب يسترشدون ، تدفعُهم إلى العمل ، بما تُوَلِّدُ فيهم من أمل ، يا بَنىَّ ، لاتيئَسوا من رَوْح الله !

وجهّزوا جَهَازهم ، وحملوا متاعهم و بضاعتهم ، ودخلوا مصر ، وقد هدَّهم التعب ، وكدّهم العيش ، وضاقتْ بهم السُّبل ، لأبيهم الفانى ، وأخيهم الأسير ، والعزيز الغاضب ، والقحْط القاتل ، والحياة المهدَّدة ، والنفس المنكسرة .

ودخلوا عليه ، فقالوا : يأيها العزيز ، مسَّنا وأهلَنا الضُرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزْجَاة ، من صوفٍ ، ودراهمَ زُيُوف ، وقليلٍ من قليل ، فأوْفِ لنا الكيل ، وتصدَّقْ علينا ، إن الله يَجْزِى المتصدِّقين .

* * *

و يوسف دقيقُ الحس ، رقيقُ القلب ، لطيفُ الوجدان ، و إلى هذا الحدِّ لا يطيق ، أن يرى على إخوته الذُلَّ والتذلُّل ، والمهانة والاستكانة ، وطَلَبَ الصدقةِ والمعونة .

أما إلى هذا ، فما قَصَدْتُ يارَبِّ .

* * *

و بدأ يلين القلب ، ويَبْسِم الوجه ، وتبدو البشاشة ، وتظهر النَّخْوة ، و بوادر النَّجْدة ، وعلامات العفو والسَّماحة ، ولمَعَتْ العَيْن ، وسحَّتْ بدمْعِ الغُفران والمحبَّة .

هل عَلِمْتُمْ ما فعلتم بيوسف وأخيه إذْ أنتم جاهلون ؟

قالوا أَإنَّك لأنت يوسف ؟

قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منَّ الله علينا ، إنه من يتَّقِ ويصبرْ ، فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين .

اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين .

* * *

اذهبوا بقميصى هذا ، الذى أبقَيْتموه على جسدى ، ليستُره إنْ عِشْت ، أو يُكَفِّننِي إنْ متُّ ، يوم الجبِّ ، فألقوه على وجه أبى ، يرتدّ بصيراً ، وائتونى بأهلكم أجمعين .

* * *

يرحمك الله يا يعقوب ، تَشَمُّ ريحَ يوسف من مصر إلى الشام ، أمْ هى ريحُ الله هبَّتْ على فؤادك ، فطيَّبتْه وطرَّتْه ؟

* * *

ألم تقُلْ يا يعقوب ، لا تيئَسُوا من رَوْح الله ، فذلك رَوْحُ الله ، وريحان الأمل ، وعِطر الوِجدان ، وفَوْحُ الاطمئنان !

* * *

يرحمك الله يا يعقوب ، تجِدُ ريحَ يوسف ، وتَشَمُّها على بُعْد الطريق إليك ، وتخشى أن يُكذِّبوك ، ويتهِمُوك بأنك خَرِفْتَ ، وهم كما حَسِبْتَهم ، يحلفون ويقولون : تالله ، إنك لفِى ضلالك القديم ، وإنك لمريضٌ سقيم .

* * *

فلما أن جاء البشير ، ألقاه على وجهه ، فارتَدَّ بصيراً ، قال : ألم أقُلْ لكم : إنِّى أعلم من الله ما لا تعلمون .

قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين .

قال : سوف . وبَعْد حين ، وبعد أن أطمَئِنَّ على ولدى وولدى ، وبعد أن يَكتحل بمرآهما عينى ، وبعد أن تَبْرُدَ نار الفراق بالتلاقى ، وبعد أن يسكن قلبى ، ويَرُوحَ عنى غضبى ، وبعد أن أَصفُو إلى نفسى ، فأتوجَّه إلى ربى ، سَوْف أستغفِر لكم ربى .

* * *

ولما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أَبويْه ، ورفعهما على العرش وخرُّوا جميعاً له ساجدين .

أمُّه الشمس ، وأبوه القمر ، والكواكب إخوته الأحد عشر .

* * *

وقال : يا أبت . هذا تأويلُ رؤياى من قبل .

قد جعلها ربى حقاً .

وقد أحسنَ بى إذْ أخرجَنِى من السجن .

وجاء بكم من البَدْو .

من بعد أن نَزَغَ الشيطان بينى وبين إخوتى .

إن ربى لطيف لما يشاء .

إنه هو العليم الحكيم .

* * *

ربِّ ، قد آتيتنى من المُلْك ، وعلمتَنِى من تأويل الأحاديث ، فَاطِرَ السموات والأرض ، أنت ولِيِّى فى الدنيا والآخرة .

توفَّنِى مُسْلِماً ، وأَلِحْقنِى بالصَّالحين .

موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

ا ـ ل ـ م ـ أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكوا ، أنْ يقولوا آمَنَّا ، وهم لا يُفْتَنُون ؟ ولقد فتَنَّا الذين مِن قبلِهم ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقوا ، وليَعْلَمَنَّ الكاذبين .

* * *

ولقد فتن الله آدم وابْتلاه فى ولديْه ، وفتن نوحاً فى ولده يوم تمرَّد عليه وفتن إبراهيم فى ذبح ولده إسماعيل ، وفى النار يوم أوْقدوها عليه ، وفتن يوسف ويعقوب ، وفتن أمَّ موسى وابتلاها ، يوم أوحى إليها : أن أَرْضِعيه ، فإذا خِفْت عليه . فأَلْقيه فى اليَمِّ ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادُّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين .

* * *

يا ربِّ ! هو ولدى ، وفَلْذة كبدى ، فهَبْ لى القُدرة على أن أرْميه فى البحر .

* * *

يا رَمَاكَ الله يافرعون ! وفَرَى كبدكَ ! تُلْجئنى أن أُلقى بولدى فى نهر النيل ، وإلَّا ذبحتَه ، وشفَيْتَ بدمه الغليل الذى يأكل صدرَكَ ، وأطفيْتَ النار التى تتلظَّى من الأطفال بين جنبيك ، وليس من ذنب ، إلا أنَّك رأيتَ

فى منامك : أنَّ ولداً سيولد ، وسيُطيح بعرشك ، وسيقاوم طغْيانك ، وسيُفسد عليك أُلوهيَّتك !

* * *

وما ذَنْبُ ولدى ؟ وما ذَنْب كلِّ ولد ؟ وما جَنَى ؟ وما جَنَت كلُّ أم ؟ حتى تفجع الأمهات فى أولادهن ؟

* * *

لقد سلَّط الله عليك أطْيافَ المنام ، لتبلْبِل بالَكَ وتشغلك ، وتفزِّعك بكُفْرانك ، وعُتوّك وسُلطانك ، ألا قَاتَلَكَ الله يافرعون ! وهو قَاتِلُك بما أسلَفْتَ لهذا الشعب !

* * *

وراحتْ المسكينة ، تصنع صندوقا ، وتفْرِشه بفرشٍ طَرِىّ ، وتفتح فى غطائه ثقوبا ليتنفس الوليد ، وهى حَيْرى فيما تضع معه من زاد ، ولا زاد غير لبنها ، ويا ليتها تستطيع أن تبْذل إليه ثديها .

ولكنَّ إيماناً ملأ قلبها ، أنْ أرْضِعيه وكَفَى ، فالله راعِيه ومُغَذِّيه ، وحارسه ومُنْجيه ، بل لا بد من أن تظهر قدرته فى أن يُربِّيه فى حِجْر عدوِّه ومُجافيه .

* * *

وأودعَتْه الصندوق ، واستودعته الله ، وبلَّت حطام الصندوق بالدموع ، وأفرغتْ عليه كلَّ ما فى حشاشتها من حنان : وفى جُنْح الظلام أسلمته للماء فى النيل .

* * *

فأىُّ قلبٍ قلبُكِ يا أمّ موسى ؟ وأىّ نُور غمره ! وأىّ ثقةٍ فى الله ثبّتته ؟

وأصبح فؤاد أمِّ موسى فارغا ، إنْ كادتْ لتُبْدِى به ، لولا أنْ ربطْنا على قلبِها ، لتكون من المؤمنين .

وقالتْ لأخته قُصِّيه وتتبّعِيه ، فسارتْ على شاطىء النيل تُحَاذِيه ، وتسرع إذا أسرع به التيار ، وتُهَدِّى سيرها إذا هدَّأ ، و ياَلَهْفَ قلبِها ، حين مال به الموج ، فدفعه إلى قصرِ الملك فرعون ، إلى شاطئه ، وفى أعشابِ حدائقه . رَكَنَ الصندوقُ واضْطَجع .

وكادَتْ أخته تصرخ ، ولو كان الصندوق يسمع ، لحذّرتْه أنْ يقفَ أمام فرعون ، فـكلُّ ما نخشاه ، وكلُّ ما اضْطرنا إلى أنْ نُلْقيه فى البحر ، خوفنَا عليه من فرعون ، أفتَقْذِفُه يا مَوْجُ بين يديه ؟ وإلى حَيث نَخْشَى عليه ؟

يا ربِّى لك حِكْمَة ، ومِنْك التَّوجيه ، وعليك الخلَاص !

* * *

وكان فرعون وامرأته ، يُطَلّان على النيل ، من شُرفات القصر ، فرأيَا الصندوق ، وجاء به الحُراس إليهما ، وهمَّ فرعون أن يسبق امرأته ، إلى فتحه . والـكشف عما فيه .

ولـكنَّ رحمة الله سبَقتْ إلى قلبها ، فأفعمه بحب مَن فيه .

وانفتح الصندوق ، وانبعث منه عمودٌ من النور ، نفذ إلى قلبها فأضاءه ، وإلى صدرها فرطَّبه بمحبته ، وإلى جوانحها فأشعلها بالحنان عليه ، وإلى عاطفةِ الأمومة : وهى عَطْشى تتحرّق ، فألهمها أن تتبنّاه .

وألقيْتُ عليكَ محبةً مِني ، ولتُصْنَعَ على عينى ، وصاحت قائلة : قُرَّةُ عينٍ لى ولك .

وثار فرعون لِمرآه ، وهمَّ أن تلطمه يداه ، وأن تَرْكله رجلاه ، ولـكنْ ! ولـكنَّ امرأته ، شخَصَتْ بعينيْها إليه ، وترجَّته واستعطفته بحبِّها لديه ، أن لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أوِ نتخذه ولدا .

* * *

يا رعاكِ الله أيتهـا المرأة ! يا ذاتَ القلب الرحيم ! أنقذْتِ موسى من الذبح ، وفتحتِ له باب الحياة ، ووهبت له عمراً من جديد ، ليحمل الرسالة ، ولينقذ هذا الشعب المسكين ، ويُنجيه من الطغاة المفسدين !

وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذْ قالت : ربِّ ابْنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ، ونجِّنى مِن فرعون وعمله ، ونجِّنى من القوم الظالمين :

* * *

وتلقَّفتْ موسى من بين يديه ، وأَنْجته من مخالب الموت ، ووضعته بين سَحْرِها ونَحْرِها ، وأخرجتْ له ثديها ، ولـكنَّ موسى ، مُحَرَّمٌ عليه أن يرضع إلا من ثدى أمه المؤمنة الصابرة .

وحرَّمنا عليه المراضع ، فما يقْبَل ثديا ، وما يقبل شرابا ، وما يَـكُفُّ عن بكاء ، مُرِضعٌ ، ومُرضعٌ ، ومَرَاضع ، واحدةٌ تِلْوَ الأخرى ، حتى أزعج القصر ، وسَرَتْ فيه رُوح الإشفاق على الرضيع ، وحتى تمنَّى كلُّ مَن فيه ، أن لو يعرفوا أى مُرضعة ! وسأل بعضهم بعضا ، وهم لا يدرون ماذا يصنعون .

واختُه قريبةٌ منه ، ولا يدرى أحدٌ مِن أمرها شيئا ، فلعلها فتاةٌ صغيرة ، دفعها حبُّ الاستطلاع ، إلى أن تدخل البُستان بلا حساب ، لتعرف خَبَرَ طفلٍ وجدوه فى صندوق ، تحمله أمواج النيل .

وتقدمتْ إلى هؤلاء المُشفقين عليه ، وقالت : هل أدلكم على أهلِ بيت يَكْفلُونه لكم ، وهم له ناصحون ؟

* * *

بارعةٌ هذه البنت فى طريقة عَرْض فِكرتها ، ولو كانت بنتاً أخرى ، لقالت : أستطيع أن آتيكم بمُرضع أعرفها ، ولكنها أصرَّت على أن يُسلِّموه إليها ، فتسلِّمه إلى أهل بيتٍ يُرضعونه ويتعهَّدونه ويُربُّونه ، وأن يجعلوا بيتهم دار كَفَالة .

فردَدْناه إلى أمّه ، كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حقٌّ ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنها أخته ، وأن المُرضع أمُّه .

* * *

واطمأن قلبها ، وصدق وعدُ الله ، فأرضعتَه ، وأكْمَلَتْ رضاعه ، وامرأة فرعون ، تسأل عن الوليد ، وتُوصِّى عليه ! وتُغْدِق أجْرَ رضاعه ، حتى بلغ الفِطام ، فعاد إلى القصر ، ليُرَبَّى فى حِجرهم ، وليعيش فى المقاصير .

فأصبح ابنَ القصر ، ووحيدَ الملكة ، وبَلْسم جراحها ، ورِىَّ عطشها ، وولدَها يوم لا ولد لها ؟

وفرعون يرى ، ويَغَار ، ولا يملك إلا أن يسكت مرة . ويجامل الملكة مرة ، فيتصنَّع المحبة ، ويتظاهر بالإعزاز ، ويُبدى كلَّ رعاية وعطفٍ وحنان .

ولكنّ فرعون ، كان بين الحين والحين ، تتحركُ نفسُه ، وتتحفز غَيرْته ، من هذا الوليد ، الذى شغل قلب امرأته عنه ، وأبْرَدَ عواطفها نحوه ، فيُهمّ به ليبطش أو ليقتل ، فكانت تدركه ، وتهدّئ من ثورته ، وتطفى من نار غيرته .

ولكنْ ما عُذر الصبى ، إذا جلس يوماً فى حِجْر فرعون ، يلعب على صدره ، ويَثِبُ على كتفيه ، ويشدُّ خُصْلَةً من شعرات ذقنه !

أما إلى هذا الحد ، والاجتراء على لحية الملك ، فليس إلا الذبح ، وثار ، وأثار الضجيج والغبار ، ونادى السيّاف ، لولا أن تداركتْه المرأة بحيلتها ، واستشفَعَتْ بأن الصبى ، لا يدرى ، أنَّ ذلك يُغضب ، وأنَّ الطفل لا يُفرِّق بين التمْرة والجمرة ، وقدَّمَتْ هذه وتلك ، وشاء الله ، أن يتناول الجمْرة ، ويَدَعَ التَّمرة ، ويدفعها إلى لسانه ، فتصيبه بسوء .

* * *

وكبر موسى واستوى ، وصنعه الله على مُراده وعينه ، وربَّاه فى حِجر عدوه ، وآتاه الله حِكمة ، ومنحه علما ، وكذلك نجزى المحسنين .

* * *

وموسى ، لا ينسى أنه من بنى إسرائيل ، يعلم ذلك ، ويحسُّه فى دمه وعواطفه ، ويرى أن بنى إسرائيل قومُ مستضعَفون ، يُذلّهم فرعون ، ويضغط عليهم فى حياتهم . ويُدرك أنه إنما آتاه الله العلم والحكمة ، وكرّمه هذه التكرمة ، ليدرك قومه ، وينقذهم من ظلم الظالمين .

وهو من أجل هذا ، يفور ويغضب ، وتثور عصبيَّته ، حين يخرج إلى المدينة ، فيرى رجلا من هؤلاء الفراعنة المفسدين ، يقاتل رجلا عِبْريًّا من بنى إسرائيل ، فاستغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوِّه ، فوكزَ موسى ذلك المُعْتدى الفرعونى ، ولكَمَهُ لكْمةً قوية ، يُناصر بها قريبَه المظلوم على ظالمه ، فكانت ضربةً قاضية ، قتلتْه ، وأزهقتْ رُوحه .

* * *

ولكن موسى ، لما هدأ لنفسه ، وأفاق من تعصُّبه وعصبيَّته ، وبان له سوء فعله ، ندم ، واستغفر ربه ، من جريمةٍ ما كانت تدور بخَلَدِه ، وإنما كانت حماقة ، وما الحمق إلا من عمل الشيطان ، إن الشيطان لَغَوِىٌّ مُضِلٌّ مُبين ، وقال : ربِّ ، إنى ظلمتُ نفسى ، فاغفرْ لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، وقال : ربِّ ، بما أنعمتَ علىَّ فلن أكون ظَهِيراً للمجرمين .

* * *

وحمل أهلُ القتيل قتيلهم ، وهُمْ جبابرة فراعنة ، وراحوا يبحثون عن القاتل ، فلم يعرفوه . وتربَّصوا به ، وترقبوه لعلهم إليه يهتدون ، فيقتلونه ، ويُوقعون به العذاب الأليم . فأصبح موسى فى المدينة خائفا يترقَّب .

وجاءه قريبُه الإسرائيلى ، يستعينه ، كما استعان به بالأمس ، ليقتل رجلا آخر من القوم ، فانتفض موسى ، وفزع فيه ، وحذَّره أن يُغْرِيه عطفُه عليه ، وخوَّفه نتيجة جَلْب المشاكل إليه ، وهمّ به ليرْدَعه ، وليفهِّمه أن التعصُّب والعصبيَّة لن تنفعه ، وقال له موسى : إنك لَغَوِىٌّ مُبين .

ولكن هذا الأحمق السَّفيه ، خاف من موسى ، وظن أنه سيقتله ، فقال : يا موسى ، أتريد أن تقتلنى ، كما قتلتَ نفساً بالأمس ؟ إنْ تريد إلا أن تكون جبّارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين .

وإذا الذى استنصره بالأمس يستصْرِخُه ، ويُؤلِّبُ الناس عليه .

* * *

وعرف القوم فى المدينة ، أن موسى قاتل ، وأنه مطلوبٌ بقتيله ، وائتمر به القوم ليقتلوه ، وجاء رجل طيب ، من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرجْ إنى لك من الناصحين .

فخرج منها خائفا يترقب ، قال : ربِّ نجِّنى من القوم الظالمين .

* * *

أهكذا تكون القرابة ؟ وأهكذا تكون عاقبة الإنسان فى اندفاعه فى حب أهله ؟ يا سبحان الله !

أمنْ قصر الملك ، ومن حِجْر فرعون ، وفى استواء القوة ، وكمال العلم ورجحان الحكمة ، ونُصْرة المظلوم ، والتعصّب للأهل ، والتفانى فى حماية القوم ، أمن كل هذا تخرج يا موسى شريدا طريدا ، مطلوبا بالثأر خائفا تتلفّت ، مذعورا تترقب ، فى غَلس الليل ، وسواد الوحدة ، لا أهل ، ولا زاد ، ولا راحلة ، ولا أمل ، إلا فى النجاة بالنفس ، والإفلات من الموت ؟ !

* * *

أيجزع ؟ أم يلعن هذا الأحمق المغفل ؟ الذى جر عليه الويل ، وجلب له

الحرمان والتشريد ، والفرار من وجه الثائرين الغاضبين . فزعزع حياته ، وخلع عنه سعادته ، وقديماً قيل : اتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه !

* * *

وكان لابد من الفرار ، ولكن إلى أين يفر ؟ وهو فى مصر ؟ أإلى المغرب ؟ وكله صحراء جرداء . أإلى الجنوب وهو عالم مجهول .

لابد من الفرار بالدين ، إلى منبع الأديان ، إلى منبت الأنبياء ، إلى الشرق .

والشرق بعيد ، من الفيوم إلى الشام ، يمشى بالليل ، ويستكِنّ بالنهار ، حتى يعبر البحر الأحمر ، أو يدور مع الشاطىء حتى يدخل من شبه جزيرة طور سيناء ، حتى يدخل بلاد العرب .

وهنا يلقى أول ناس يلقونه ، قبائل مَدْيَن ، الذين أرسل الله إليهم نبيهم الشيخ العجوز الفانى شُعَيْبا ، فطرح نفسه تحت شجرة ، يستروِح فى ظلها ، وليريح جسمه ، ويطمْئِن روحه إلى أن نجا من القوم الظالمين .

ورأى على بعد ، ناسا مجتمعين ، ورعاة أغنام يتزاحمون ، على عين ماء ، يسقون أغنامهم ، ورأى أن الأقوياء يزاحمون الضعفاء ، وأن الضعفاء محرومون لا يسقون .

وأبصر من وراء هؤلاء المتزاحمين ، بنتين جميلتين ، تحجزان غنمهما عن زحمة الناس حتى يسقى الأقوياء .

والمرأة فيها حياء وضعف ، وبهاتين الغريزتين تستثير نخوة الرجال ، فيندفعون إلى خدمتها ومعونتها .

وكذلك كان موسى ، فتقدم إلى الفتاتين يسألها ، ما خطبهما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يُصدِر الرِّعاء ، وأبونا شيخ كبير .

فتقدم موسى ، وزحم القوم كما يتزاحمون ، وسقى لهما الغنم ، ثم تولى إلى الظل ، والله أعلم به ، وبجوعه ، وتعبه ، وما يجول بخاطره ، من مطاردة الكفرة فى وطنه ، ومن مشقته فى هربه وسفره ، ومن الوحشة فى غربته .

فاتجه إلى ربه ، يدعوه ، أن يفرج كربه ، وأن يوسع ضيقه ، وأن يؤنسه من خوف ، وأن يهيىء له الزاد والمنزل .

ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

* * *

وفيما هو غارق فى مناجاة الله ، جاءته إحدى البنتين ، تمشى إليه فى حياء وخفر ، وفى جمال نضر ، قالت : يا هذا ، إن أبى يدعوك ، ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

وما كان موسى يترقب أجرا على معروف ، ولكنه ملهوف ، يرى أن هذه الدعوة التى دعاه إليها الشيخ ، نعمة ساقها الله إليه ، وما يصح وهو غريب أن يرفض هذه الدعوة ، أو يرد هذه النعمة .

* * *

وسار هو والفتاة ، ثم رأى أن تمشى أمامه لتدله على الطريق ، ثم رأى أن يسبقها وأن تمشى من ورائه ، وتنبهه إلى منعطفات الطريق ، حتى لا يتبعها بعينه ، والنظرة الأولى لك ، والثانية محسوبة عليك .

* * *

ووجد شعيب أبوها ، ذلك الشاب ، المهذب ، القوى ، الغريب ، وهو شيخ كبير ، محتاج إلى شاب ، مهذب ، قوى ، غريب ، وسمع منه ، وعرف عنه ، وتفرّس فيه ، وعلق الأمل عليه ، فطمأنه ، وطيب خاطره ، واستضافه عنده .

* * *

وما أجمل المصارحة فى تربية البنت ، حتى تعيش مع الناس ، صريحة ، لا تنافق ، ولا تتوارى ، تبدى عاطفتها ورغبتها فى شجاعة وعفاف ، فتريح نفسها من الـكبت ، وتريح أهلها من المراقبة ، فتظللها الثقة ، وراحة البال ، ورضى النفس !

وما أجرأها حين تقول : يا أبت ، استأجره ، إنّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمين . فقد خبرته فى قوّته ، يوم زاحم الأشداء المتزاحمين ، فأفسح الطريق ، وسقى الغنم ، وما تعرض له متعرض ، أو زاحمه مزاحم .

وخبرته فى أمانته ، يوم سارت إلى جانبه ، فخشى قول الناس فيها أنها تمشى مع رجل غريب ، وخشى أن تقع عينه عليها ، حين سارت أمامه لتدله على الطريق ، فأخرها وراءه ، وتلك غاية حدود الأمانة على فتاة جميلة ، أرسلها أبوها إليه يستدعيه .

والرجل ، شيخ مجرب ، ناضج الأبوّة ، فاهم للدنيا ، دارت برأسه فـكرة ، وكثيراً ما تدور برءوس الآباء أفكار ، ولـكن الآباء لا يقدرون على ما قدر عليه شعيب ، ولا يدرسون مسائلهم ، كما درسها شعيب .

فهو قد تحدث إلى هذا الشاب الغريب ، وانتهى إلى رأى فيه .

والرجل العاقل يخطب على ابنته ، من قبل أن يخطب لابنه .

والشيخ قرر أن يكسب هذا الشاب ، وأن يزوجه ، وقرر أن يمنحه ، لا ، بل أن يمكنه من حقه فى اختيار زوجته ، فلم يلزمه أن يتزوج إلا برغبته وبعد مشورته ، والشيخ يعلم أنه لابد أن يقدم الزوج مهراً لزوجته ، وأن مهر الزوجة لابد أن يكون على قدرها ، مناسباً لمقامها ، وقدَّر أنْ يكون المهر مالا إذا كان فى يد الزوج مال ، أو يكون عملا يساوى ذلك المال . وقدر أن يكون عمل زوج البنت عند حميه ، أوْلى من أن يعمل عند الغرباء ، وقدَّر أن مهر بنته ، يساوى أجر هذا الزوج على عمله مدة ثمانى سنوات ، وقدَّر أنّ الزوج قد يُهدى إلى زوجته هدايا إذا شاء ، وقدَّر حـدَّ هذه الهدايا ، يساوى أجرَه على عمله سنتين .

قال شعيب لموسى : إنى أريد أن أُنـكِحَك إحدى ابْنَتَيَّ هاتين ، على أن تأجُرَنى ثمانىَ حِجَجٍ ، فإن أتممْتَ عشراً فمِنْ عندِك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء اللهُ من الصالحين .

وقال موسى لحميه شعيب ، رضيتُ ذلك الاتفاق بينى وبينك ، أيَّمـا الأجلين قضيتُ ، فلا عدوان علىَّ ، والله على ما نقول وكيل .

* * *

أليس هـذا نواة التشريع ؟ لقانون العمل الفردى ؟ بين العامل وصاحب العمل ؟

وأليس فى هـذا رسمُ خطةِ بناء التعاقد بينهما على الشفقة والمودة ،

وألا يكون فيه إعناتٌ ومشقة ؟ وأن يكون التعاقد قائماً على شهادةٍ وشهود ، وهما بنتاه ، والله على ما نقول وكيلٌ ؟

ولكن ! أكان هذا الحدُّ والعَدُّ ، معدَّل مهور الزوجات فى ذلك العهد ؟ أجر ثلاثة آلاف يوم ، غير الهدايا ، لعامل أمين مهذب قوى مثل موسى ؟ يحمل الأعباء ، ويرعى الشئون ، ويُخلص فى الخدمة ، ويَدْرَأُ العادية ؟

فى أيامنا هذه ، لا يكفى العاملَ الأمين المهذب القوى ، إلا نصفُ جنيه ، يعيش بربع جنيه ، ويوفر ربع جنيه ، وربعُ جنيهٍ فى ثلاثة آلاف يوم تساوى : سبعمائة وخمسين جنيهاً ، غير ما عرض عليه من الإهداء إن شاء قدَّم ، وإن شاء لم يقدم ، فإن أتممتَ عشراً ، فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك .

* * *

أكان هذا من شعيب مغالاة فى مهر ابنته ؟ * غالى بنفسِيَ عِرْفانى بقيمتها * ؟

أم كان ذلك منه ، ليُفسح لموسى الأمل ، ويمدَّ له فى خيط الأجل ، لعله يُروضِ نفسه على الإقامة فى وطنٍ جديد ، فيستبدل وطناً بوطن ؟

أكان ذلك عن إعزاز لابنته ، فما أحبَّ أن يزوجها اليوم ، لترحل عنه فى غَدِه ؟

أم كان ذلك ، ليُشرِّع للناس أن البنت ليست عاراً ومَعرَّةً على أهلها ، إذا حسَّنوا تربيتَها ، وأن أباها يكسب رجلاً بها ، ويَقْوَى بمصاهرتها ؟

* * *

ولعل شعيباً كان أبعد نظراً ، وأسمى تدبيراً من كل ما نفكر .

ورأى أن مصلحة موسى ، فى البُعد عن أولئك القوم الكافرين ، الذين يطلبونه فى وطنه بدم القتيل ، وأن من الخير لموسى ، أن تطول إقامته فى مِحْراب الصلاة ، ومعبد الفلاة ، ورهبانية الصحراء . فلا يكون ما يشغله فى الحياة ، عن الله وعن الصلاة ، حتى تبلغ سِنُّه الأربعين ، سِنَّ القوة على احتمال النُّبوَّة والرسالة ؟

* * *

فلما قضى موسى الأجلَ الذى تعاقد عليه ، كان قد اشتد به حنينه إلى وطنه ، فلم يشتر به وطنَ زوجته ، ولم يُلْهه عنه عزُّ حميه وماله ، ولم يفعل ما يفعلُ أبناؤنا فى هذا الزمان ، حين يسافرون إلى الغرب فى طلب العلم ، فيقعُون على الأجنبيات ، ويبيعون أنفسهم وأهلهم وأوطانهم ، ويرحلون على هوى الزوجات ، ويرتمون هناك تابعين مسخَّرين ، وإلا عادوا إلينا ، أنقاضاً محطمة ، بعد أن يَذْوِيَ شبابُهم ، وتهلِكَ نفوسُهم ، وتَمُوع شخصياتُهم ، وترخُصَ فى سوق الوطن أسعارُهم .

وموسى كان أكرمَ على نفسه ، وكان وطنُه أكرمَ عليه من نفسه ، فجمع شمله ، واصطحب أهله ، ورجع قافلا إلى مصر ، مُزوَّداً بدعوات شعيب .

فوصل إلى حدود بلاد العرب من الغرب ، ووقف على أبواب جبل الطور ، والجبل تِيهٌ ، يَتِيهُ فيه من لم يعرف الطريق ، وضلَّ موسى طريقه ، فأقام زمناً حتى يهتدى ، فلَسَعَهُ البرد ، ولسع أهله ، فالتمس الهداية على ضوء النار ،

التى يوقدها الناس ، ليهتدى بها الضالّ ، وليُكْرَمَ بها الضيف ، وَيدْفأ بها البَرْدَان .

وقد آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا ، إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جَذْوَةٍ من النار ، لعلكم تصْطَلون .

وسار فى سفح الجبل ، حتى نزل الوادى المُقدَّس ، الذى ناداه الله فيه ، واختاره لرسالته ، ومنّ عليه فكرّمه ، وجعله من المرسلين .

* * *

وماذا يكون من مظهر التأدُّب فى الاستماع إلى الله سبحانه ، إلا أن يخلع الإنسان نَعلَيْه ، وماذا يُفهَمْ من خلع النعل ، وحَفَى القدمين ، إلا الخضوع ، والالتفات بكافة الحواس ، إلى تَلَقِّى هذه المهمة الخطيرة ، والانصراف عن مشاغل الحياة من أهل ومن مال ؟

فلما أتاها ، نُودِىَ : يا موسى ، إنى أنا ربُّك ، فاخلعْ نعليك ، إنك بالوادى المقدَّسِ طُوًى .

* * *

ونداء اللهِ عبدَه ، وكلامُه إلى الأنبياء ، كان تَلَقِّياً رُوحِيًّا ، فيتَمَثَّلُ هذا التَلَقِّى الرُّوحِىُّ للجسد ، فيجرى به اللسان من إملاء الروح .

وفى أيامنا ، نسمع الأصوات المجسَّمة ، لا ندرى من أى ناحية أتتْ ، وإنما هى أصواتٌ تملأ الرُّوحَ والجسد .

وأنا اخترتك ، فاستمعْ لما يُوحَى ، إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدْنى وأقمِ الصلاة لذكرى ، إذا ذكرتَنِى ، أو لتذكُرَنى بها .

وما تلك بيمينك يا موسى ! قال : هى عصاى ، أَتَوَكَّأُ عليها ، وأَهُشُّ بها على غنمى ، ولِىَ فيها مآربُ أخرى ، تنفعنى فى تقريب البعيد ، وصدِّ العُدوان ، وتسهيل المصاعب ، وتفريج الكروب .

وقال الله لموسى : أَلقِها ، فألقاها ، فإذا هى حيةٌ تسعى ، فخاف موسى واضطرب ، من سرٍّ فى عصاه ، كان خافيا عليه ، ولِهَوْلِ ما رآه ، حين تَلْتَقِمُ الحجر ، وتبتلع الثمر ، وتأكل الشجر ، فجرى موسى ليهرب .

وقال الله لموسى : خُذْها ، ولا تَخَفْ ، سنُعيدُها عصاً ، مرةً أخرى .

وقال الله لموسى : وَضَعْ يدكَ فى جيبك ، واضْمُمْ يَدَكَ إلى جناحك ، وتحت إِبِطِك ، ثم أَخْرِجْها ، لترى أنها بيضاء بياضَ اللبن ، لا بياضَ البُهاق والبَرَص .

فالعصا ، يا موسى ، آيةٌ ومُعجزة ، ويدُكَ آيةٌ أخرى ومُعجزة .

واذهبْ يا موسى ، بهاتين الآيتين ، وهذين الدليلين القاطعيْن ، إلى فرعون بمصر ، فذَانِكَ بُرْهانان من ربِّك ، إلى فرعون وَمَلَئِه ، إنهم كانوا قوما فاسقين .

* * *

مُهِمَّةٌ ، تحتاج إلى عَزْمٍ وَجَلَد ، تُلْقَى على عاتق رجل غائب عن وطنه زمانا طويلا وهو مطلوبٌ بثأرٍ قديم ، ومهمتُه أن يُحَوِّل فرعون الطاغية الجبار من دين إلى دين . وأن يزحزحه من قمة مجده ، إلى سفح عامَّة شعبه ، وأن يرفع من نفسيَّة هذا الشعب الكسير المظلوم ، وأن يُسَوِّىَ بين هؤلاء وهؤلاء .

* * *

وطلبَ موسى من ربه مَطلَبَيْن : طلبَ الأمانَ من الثَّأْر ، والحمايَة من الثَّائرين وهو يعلمِّ أن الله حامِيه ومُنْجِيه ، ولكنه أحب أن يُعلِّمَ الناس ، أن يستعينوا على قضاء حوائجهم ، وفكِّ كروبهم بالدعاء .

وفى فاتحة القرآن ، علَّمنا الله ، أن ندعو ، ونعبد ، ونستعين بالله .

ربِّ : إنى قتلْتُ منهم نفساً ، فأخاف أن يقتلونى .

وطلب المعونة على المهمة الشاقة ، وهو يعلم أن الله مُعينُه ومُقوِّيه ، ولكنه تعليمٌ للناس ، ألا تَغرَّهم قُواهم ، فيَتصَدَّوْا للعظائم ، من قبل أن يُعِدُّوا العُدَّة ، ويشحذوا القوة ، ويلتمسوا المدد .

ربِّ اشرحْ لى صدرى ، ويسِّرْ لى أمرى ، واحلُلْ عُقْدةً من لسانى ، يَفقَهُوا قولى .

وأخى هارون ، هو أفصحُ منى لساناً ، فأرسلْه مَعِىَ رِدْءًا يصدِّقُنى .

* * *

ولأمرٍ ما ، طلب موسى من ربه ، أن يجعل هارون أخاه وزيراً له فى دعوته ؟ أكان ذلك للعطَب الذى عَطَبَ لسانَه ، يوم همَّ فرعونُ بقتله ، فاستشفعتْ فيه امرأة فرعون ، وقالت : إنه صبىٌّ صغيرٌ لا يعرف التَّمر من الجمْر ، وأَبَى فرعون بحماقته إلَّا أن يَعرِضَ عليه تَمْرةً وجَمْرة ، وشاء الله ، أن يمُدَّ يده على الجمْرة ، ويقذفها فى فمه ، فتعطَّبَ لسانُه وتخلَّفَتْ فيه عاهةُ اللَّثْغة ؟

أم كان ذلك لأن موسى ، وهو فى جبل الطور ، يوم ناجاه ربه ،

تجسَّمت له مسئولية الرسالة إلى ناسٍ فراعنة ، يتزعَّمهم فرعون الطاغية ، ولابد له من سَنَدٍ ومُعين ، يشدُّ أَزْرَه ، ويُقوِّى ظهره ، ويكون فى الشدائد رِدْءَه ، وليس مَنْ يَصْلُح لهذا إلا أخوه ؟

أم كان ذلك ، لأن موسى يعلم وهو فى جبل الطور ، أن هارون يقيم بمصر بين القوم فهو أدرى بهم ، وأبْصَرُ بأحوالهم ، وأخْبَرُ بالطريقة التى تُوصِّل إلى قلوبهم ، وباللسان الذى يستميل عواطفهم وإحساساتهم ، فهو لهذا أقوى وأقدر على إقناعهم ، وهو لهذا يكون أفصح لساناً من موسى ؟

أم كان ذلك ، لأن موسى يرى أنه حريصٌ أول الأمر على إيمان أخيه هارون ، وعلى تصديقه برسالته ؟ وكذلك كان يفعل الأنبياء من قبلُ ومن بعدُ ، حيث كانوا يبدءون بدعوة أهليهم ، وبأقرب الناس إليهم ، وحتى لا يكون بُعْدُ هارون عنه ، أو تكذيبُه إياه ، مُثَبِّطاً لهمَّتِه ، مُخَضِّضاً لشوكته ، فيستهلك قوته بين أهله وقومه ؟

وياموسى لا تخفْ ، فهـذا هارون معك ، يؤمن بك ، وقد أشركناه فى أمرك ، وقد أَلْهمناه أن يخرج من مصر إليك فى جبل الطور ، ليكون فى معِيَّتكَ ، وليـكون وزيرَكَ وسنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ، ونجعلُ لـكما سلطاناً ، فلا يصِلُون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

اذهبْ أنت وأخوكَ بآياتى ، ولا تَنِيَا فى ذِكْرِى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليِّناً ، لعلَّه يتذكَّر ، أو يخشى .

اذهبْ إلى فرعون إنه طغى ، فقلْ : هل لك إلى أن تزَكى ،

وأهْدِيَك إلى ربك فتخشى ؟ . كلا ، فاذهبا بآياتنا ، إنَّا معكم مستمعون ، فأْتِيَا فرعون ، فقولا : إنا رسولُ رب العالمين .

* * *

ميدانُ لسان ، ومعركةُ أديان ، وأسلحةُ الدليل والبرهان ، وسَنَدٌ من الرحيم الرحمٰن . وسلطانٌ لموسى أىّ سلطان ،

ولكنْ كما قال القرآن ، وجادِلْهُمْ بالتى هى أحسن . قَوْلٌ ليِّن ، ودِين بيِّن ، وأسلوبٌ هيِّن ، لعلَّه يتذكر أو يخشى ، والله يهدى من يشاء .

* * *

وقال موسى : يافرعون . إنى رسولُ ربِّ العالمين ، حقيقٌ على ألَّا أقولَ على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسلْ مَعِىَ بنى إسرائيل . وأَعْتِقْهم من عُبوديتك ، وارحَمْهم من بطشك ، ولا تَحْجُرْ عليهم ، فتحرمهم من اتِّباع الدِّينِ الذى أدْعُو إليه .

* * *

قال فرعون : وما ربُّ العالمين ؟ قال موسى : ربُّنا ، ربُّ السموات والأرض ، الذى فَطَرهُنَّ ، قال فرعون : لِمنْ حوله : ألا تستمعون ؟

قال موسى : ربُّنا ، ربكم وربُّ آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله : إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون .

قال موسى : ربّنا ، ربّ المشرق والمغرب ، وما بينهما ، إن كنتم تعقلون .

قال فرعون لموسى : لئن اتخذتَ إلهاً غيرى ، لأجعلنَّك من المسجونين .

قال موسى : أَوَلَوْ جئتُك بشىء مبين ؟

قال فرعون : فأْت به ، إن كنتَ من الصادقين .

فألقى موسى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده ، فإذا هى بيضاء للناظرين .

قال فرعون للملأ حوله : إن هذا لسِحْرٌ مُبين ، وإنه لساحرٌ عليم ، يُريد أن يُخرجكم من أرضكم ، بسحره ، وما جاء ، إلا ليَلْفِتَنَا عمَّا وجدنا عليه آباءنا ، وإلا لتكون له ولأخيه ، الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لهما بمؤمنين .

فماذا ترون ؟ وماذا تأمرون فى هذيْن الساحرين .

قالوا : أرجِئْهُ وأخاه ، وابعثْ فى المدائن حاشرين ، ليأتوك بالسحرة العالمين .

وجُمِعَ السَّحَرة ، وتجمَّع الخلق ، ليشهدوا أىَّ السِّحْرَيْن أقوى وأصدق ، وليعلموا أىَّ السَّحَرةِ أغلب .

وطمِع سَحَرَةُ فرعون فيه ، وفَرَضُوا أجْرهم عليه ، واشترطوا رَفْع شأنهم لديه ، وموسى ثابتٌ لا يتزعزع ، مستيقنٌ فى نصْر ربه ، ينظر إلى كفرهم وباطلهم .

ويقول لهم : ألْقُوا ما أنتم مُلْقون .

فألقَوْا حبالهم ، وعصيَّهم ، وقالوا : بعِزَّةِ فرعون ، إنَّا لنحن الغالبون .

وألقى موسى عصاه ، وقال : بعِزَّةِ الله . الذى لا إله سواه ، نعبُده

ونخشاه ، والوَيلُ لِمنْ كابَرَ وعصاه ، وعَصَى نِدَاءَ الله ، وألقى عصاه ، فإذا هى حيةٌ تسعى ، تلقفُ وتلتَهِم ما يدَّعُونَ ويَأْفِكُون .

* * *

وذَهِل فرعون ، وبَرَدَتْ حماسته ، وانطفأت شعلته ، وأُسْقِط فى يده ، لما رأى السَّحرة ، خروا ساجدين مُسْلِمين لموسى ، ويقولون : آمناً برب العالمين .

* * *

معركة أدْيان ، بأَسلحة الدليل والبرهان ، وبمَدَدٍ من الرحيم الرحْمٰن .

وطاش سهم فرعون ، وخسر المعركة ، وتزعزعت ثقة الناس فيه ، وكفروا بألوهيته ، وفكروا فى موسى ودينه وقوَّته ، وانْحاز المفكرون إليه ، وخشِيَ المستضعَفون إنْ اتبعوه ، أن يبطش بهم فرعون وجنوده ، إنهم كانوا قوماً فاسقين .

* * *

ووقف فرعون يزْأَر ولا زئير ، ويتوعَّد السَّحرة ولا وعيد ، ويحلف ولا أَيْمان له أنه سيقتلهم ويُصَلبُهم ، ويقطع أيديَهم وأرجلهم من خِلافٍ ، وسيجعلهم عِبْرةً للناس .

* * *

وما كان قولَهم إلا أنْ قالوا : لا ضَيْرَ علينا من غضبك ، ولا يُخيفنا تهديدُك ، إنا إلى ربنا مُنْقلِبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، لأننا سنكون أوّلَ المؤمنين .

واشتد الغيظ بفرعون ، فالتفت إلى موسى ، يُعَيِّره بفضله عليه ، و بتربيته فى حِجْره ، و بين يديه ، وعلى عَيْنَيه ، و يقول له : ألم نُرَبِّك فينا وَلِيداً ، ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين ؟ و يُهدِّده بالثأر القديم ، وفعلتَ فَعْلَتَكَ التى فعلْتَ ، وهربْتَ وفرَرْتَ ، وأنت من الكافرين .

وقال موسى : يا فرعون . ربِّى سبحانه الذى ربَّانى ، وعلى عينه صنعنى وحمانى ، وفرض حياتى عليك ، فى بيتك على رَغْمِك ، وملأ بمحبتى قلب امرأتك ، فكانت حِمَاىَ من بطشِك ، يوم كنتُ شَجًى فى حَلْقِك ، وقذًى فى عينك ، وما مِنْ ساعة ، إلا كنت أنا فيها مُهَدَّداً بغَدْرِك ، لولا عينُ الله كانت ترعانى وتحرسُنى منك ، وتدفع عنى أذاك .

فجعلنى الله عُقُوبَتَك ، وسَوْطَ عذابك ، جزاء ما قتلتَ من أبناء شعبك ، وذبحْتَ أطفالاً أبرياء ، لاحول لهم ولا لأمهاتهم قِبلَك ، ولا ذنبَ جَنَوْه ، ولا جُرْماً أجرموه .

و يا فرعون . فعلتُ فَعْلَتِى هذه ، وقتلْتُ المُعْتدِى ، وما نويْتُ ، و إنما كنتُ أنصرُ مظلوماً على ظالم ، وكان أحمقَ طائشاً من جُندك ، الذين طَغَوْا بطغيانك ، و بَطِرُوا على الناس بسلطانك ، فأغريتهم بالضعفاء ، حتى استذلُّوا الأحرارَ الأبرياء .

و يا فرعون . كانت فَعْلَتِى نَزْوَةَ شباب ، وغَيْرةَ حَمْقَى على أحْباب ، يوم كنتُ غضَّ الإهاب ، لم أشْرُفْ بعدُ برسالةِ العليم الوهَّاب !

* * *

وأىُّ صَبْرٍ للطاغية ، وأىُّ أمَانٍ له على مُلْكِهِ مِنْ هذا الدَّاعِية ؟

وأىُّ بقاء لدِينِ الحماقة والجهل والقوة ، أمام دِين السَّلامِ والعلمِ والهداية .

وبين الدِّينَيْن تنَازُعٌ فى البقاء ، ولا بَقَاءَ إلا للأصلح ، وفرعون بعينَيْه يرى النور يمسح ظُلْمَتَه ، ويكشف مِلَّته ، ويزعزع من أركانه ، ويهدُّ من سلطانه .

وإذن فلابد أن يَرفعَ السَّوْط ، ويستلَّ السيف ، ويشق بطن الأرض ، ليُخْفِيَ فيها موسى ودينَه ، تأميناً لكبريائه ، وضماناً لمُلْكِه .

* * *

ودارت المعركة من جديد ، بين مُعَسْكر فرعون وأجنادِه ، وبين موسى ودِينه ، فعاد فرعون من جديد ، يصُبُّ العذاب على بنى إسرائيل ، ويُذيقهم النَّكال ، ويُضَيِّق عليهم الخناق ، ويُدَبِّر ويفكِّر هو وأعوانُه ، ليقتل أبناءهم ، ويَسْتَحْيي نساءَهم .

ويرُوحُ بنو إسرائيل إلى موسى ، يفزَعون إليه ، ويُلْقُون المسئولية عليه . ويقولون : ياموسى : قد أُوذِينَا من قبلِ أن تأتينَا ، ومِنْ بَعْدِ ماجِئتَنا ، فأين ماوعدتَنا من حِمَايتنا ، وكفِّ الأذى عنا ؟

لقد كاد يُهْلِكُنا ، ويقطعُ دابِرَنا .

* * *

وموسى بين شِقِّ الرَّحَى ، بين فرعون وعِنَادِه ، وبين أهله الذين ضَجُّوا من أجنادِهِ ، فلا يملك موسى إلا أن يُصَبِّرَهم ويُواسِيَهم ، ويدعوهم

إلى التجلُّد ، ثم يتجه إلى الله ، فيسأله العونَ على فرعون ، ويسأله النجاةَ لبنى إسرائيل .

* * *

وفرعون سادِرٌ فى غَيِّه ، راكبٌ رأسَه ، زاحِفٌ وراءَ شيطانه ، جامِحٌ به غرورُه ، مغترٌّ بجاهِه ، يقول لِمَنْ حوله : ياقوم . أليس لى مُلْكُ مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبِين . فلولا أُلْقِىَ عليه أَسْوِرَةٌ من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنين ؟

ياقوم ، ما أَطْوَلَ ما صبَرنا على عدوِّنا ؟ أفلا نُرِيحُ أنفسَنا من هذا الذى تطاول علينا ؟ وسوف لا يكُفُّ حتى يُغَيِّر دينَنا ، ويُسَفِّه أحلامنا .

فلما جاءهم الحقُّ من عندنا ، قالوا اقتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه ، واسْتَحْيُوا نساءَهم . وقال فرعون : ذَرُونِى أقتلْ موسى ، ولْيَدْعُ ربَّه ، إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكُم ، أو أنْ يُظْهِرَ فى الأرض الفساد .

* * *

وللحَقِّ أَشِعَّة ، تنفُذُ إلى القلوب السليمة ، والعقول الحكيمة ، فتضيئُها وتُفْعِمُها بالنور ، وكذلك تسرَّب نورُ الإيمان إلى بعضٍ من قوم فرعون . فآمنوا ، ولكنهم لخوفهم من سيف الظلم المُسْلط على رقابهم ، أَخْفَوْا إيمانَهم وكَتَمُوه ، وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً ، لأنه قال : ربِّىَ الله ، وجاء بالدليل الواضح ، والبيِّنة الساطعة ؟ جاءكم بمُعجزات تُعجز البشر . ولا تكون إلا عن قدرة فوق طاقة العالمين ؟

وإنْ يكُنْ كاذباً ، فعليه كذبُه ، وإنْ يكنْ صادقاً ، يعود عليكم بعض الخير من دعوته ، وإن كان مسرفاً فى قوله ، فإن الله لا يهديه ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار .

وقال هذا المؤمن ، الذى يكتم إيمانه لفرعون ومَلَئِه : ياقوم ماذا تخافون ؟ فهذا مُلكٌ واسعٌ عريض ، وهذه عظمتكم ظاهرة فى بقاع الأرض ، فلئن ضَمِنْتم هذه الدنيا ، أفتضمنون هذا كله فى الآخرة ؟ أو ينفعنا كل هذا ، أو يدفع عنا عذاب الله إن حلَّ بنا ؟

ولكن فرعون ، صمَّ أُذنيه ، وأغمض عن الحق عينيه ، وقال : لا رَأْىَ إلا ما رأيتُ ، وإن هذا ، لَهُوَ الرأىُ الرشيد الحكيم .

ما أُرِيكُمْ إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

وعاد المؤمن الذى يستر إيمانه ، يُنذرهم ويُحَذِّرهم ، ويقول لهم : ياقوم . إنى أخاف عليكم يوم التَّنادِى ، يوم الآخرة ، يوم تُوَلُّون مُدْبِرين ، ما لكم من الله عاصم . وياقوم . مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله ، وأُشرِكَ به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ؟

لا جَرَمَ أن ما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، وأن مردَّنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وفرعون ، هو فرعون ، لا ينسى عناده ، ولا يتنازل عن كبريائه ، يقول ويقول ، ويهدِّد ويتوعَّد ، ويُمْعِن فى إيذاء بنى إسرائيل ، حتى نَفِدَ صبرهم وجَأَرُوا بالدعاء إلى ربهم ، واستغاثوا بموسى نبيهم ، من سخط فرعون النازل بهم .

فاستجاب الله دعاء موسى ودعاءهم ، وأخذ فرعون وقومَه ببعض ذنوبهم ، فنزع البركة من مالهم ، وسلَّط الأمراض عليهم ، فنقص عددُهم ، وبَخِلَ النيل عليهم ، فانحسر ماؤه عنهم ، وأجْدَبَتْ أرضهم ، ونَشِف زرعهم ، وعَطِبَتْ ثمارهم ، وزحف الجراد عليهم ، وتقَذَّرت أجسامهم وثيابهم ، وتواجد القُمَّل فيهم ، ، وبان عليهم ، وملأ عليهم فراشهم ، فأقلق مضاجعهم ، وطنَّ نقيق الضفادع فأصمَّ أذانهم ، وعكَّر أمزجتهم ، وانبثَّتْ الضفادع فى دورهم ومساكنهم وسال دم الرُّعاف من أنوفهم ، وانحلَّتْ حَيَوِيَّتُهم .

ولما وقع عليهم الرجز ، تخاذلوا تخاذُلَ اللئام ، الذين يخافون ولا يستحون وذلُّوا ذُلَّ العبيد ، الذين لا يستقيم حالهم ، ولا يُرجى خيرُهم ، إلا حين يُسَامُون سُوءَ العذاب .

وقالوا : ياموسى . ادعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندك ، لئن كشفتَ عنّاَ الرجز ، لنؤمِننَّ لك ، ولنُرسلنَّ معك بنى إسرائيل .

فلما كشفنا عنهم العذاب ، إذا هم يَنْكُثُون ، وينقُضون العهد ، وينسَوْن التذلل ، وعادوا فى غَيِّهم وطغيانهم يَعْمَهُون ، وفى الكيد لموسى يَفْتَنُّون ، وفى إرهاق بنى إسرائيل يتبارَوْن ويتسابقون .

يا هامان ، ابن لى صَرْحاً ، لعلى أَطلِعُ إلى إله موسى ، وإنى لأَظنُّه من الكاذبين .

* * *

وأوحينا إلى موسى ، أن أَسْرِ بعبادى ، إنكم مُتَّبَعُون ، وأَنْ هاجِرْ بهم يا موسى ليلا ، فإن القومَ يُتابعونكم ، ويُبَيِّتُون النيَّة على قتلكم وإبادتكم .

* * *

وجمع موسى أهله ، والمؤمنين بدينه ، وخرج بهم إلى الشرق .

وللشرق حنين ، وفيه الأرض المقدسة ، والبقعة المباركة . وفيه جبل الطور ، وفيه تَلَقَّى موسى الوَحْىَ بدينه ، فإلى هناك .

ولكنَّ أسْلَمَ طريق ، هو أقصر طريق ، وأقصر طريق إلى البحر ، فإلى البحر .

والبحر الأحمر عريض ، وغَوْرُه بعيد ، فوقفوا على شاطئه حائرين ، لا يدرون ماذا يفعلون . والتفتوا وراءهم ، فإذا فرعون والكفار مُحْتشدون ، وفى آثارهم يَجِدُّون .

وليس من مَلجإٍ إلا إليك يا ألله ، فقد انزعج بنو إسرائيل من هوْل المأزِق وتشبَّثوا بموسى ، يسألونه مَخْرجاً وخلاصاً من هذه الحبْسة بين البحر وفرعون .

ولجأ موسى إلى ربه يسأله ، فأوحى إليه : أن اضْرِبْ بعصاك البحر ، فضرب ، فانفلق ، إلى ممرات كأنها شوارع ذاتُ جُدران وحوائط ، فكان كل فِرْقٍ كالجبل العظيم . إلى اثنى عشر ممراً ، ونزل كل فريق فى طريق ، فكانوا اثنتى عشرة أسباطاً أمماً .

وساروا مسرعين يعبرُون البحر ، حتى إذا وصلوا إلى نصف الطريق ، كان فرعون وجنوده قد وصلوا إلى الشاطىء ، فنزلوا وراءهم ، ليلحقوا بهم ، حتى إذا وصل فرعون إلى نصف الطريق ، كان موسى وقومه قد وصلوا إلى الشاطىء الآخر ، فأوحى الله إلى موسى ، أن اضربْ بعصاك البحر ، فضرب ، فانطبق الماء عليهم وأغرقهم .

وجاوزْنا ببنى إسرائيل البحر ، فأَتْبَعَهُمْ فرعونُ وجنوده بَغْياً وعَدْواً ، حتى إذا أدركه الغرَق ، قال آمنْتُ أنه لا إله إلا الذى آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

فقال له موسى : إخْسَأْ يا فرعون . آلْآن ؟ أفِى هذا الوقت ؟ أفى الغرَق ؟ وانقطاع الأمل ، وإزهاق الروح ، وذهاب قُوّتك ، وساعة تأكد لديك أن قوة الله أغْلَبُ من قُوتك وأن سلطان الله يَمْحَقُ سلطانك ؟ آلْآن يا فرعون ، تؤمن بربك ، وتنطق بالشهادة ، وتدّعى الإسلام ؟

يا فرعون . لا عاصم اليوم من أمر الله ، وسيجعلك عِبْرةً ومَوْعظة للطغاة الظالمين ، يا فرعون سيُنَجِّى اللهُ بدَنَك ، بعد أن يُهلِك رُوحَك . وسيُبْقِى هذا الجسد طويلا ، جسد العملاق الباغى ، لتكون لِمنْ خَلْفَك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون !

* * *

نجا قومٌ ، وهلك قوم ، نجا المؤمنون ، وهَلَك الكافرون ، نجا موسى وبنو إسرائيل المستَضعَفون ، وهلك فرعون وأجناده وأعوانه الطاغون ، وكان

البحر حدًّا فاصلاً بين الحق والضلال . وكانت سَكْتَةٌ من سَكَتَاتِ الزمن ، صَمَتَ فيها على أثر تلك الحوادث الجسام .

وسكن الرَّوْع ، واطمأنت النفوس ، وصدق وعد الله ، وأقام موسى وبنو إسرائيل . فى بَرَاحٍ من الأرض ، وسَعَةٍ من الرزق .

فلما كشفْنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالِغُوه ، إذا هُم ينكُثُون .

وأداروا وجههم إلى موسى ، يسألونه ، أن يجعل لهم إلٰهاً يعبدونه ، كما لهؤلاء القوم الذين من حولنا إله .

وجاوزْنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ، قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قومٌ تجهلون ، إن هؤلاء ، متبَّرٌ ما هم فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون ، قال : أغيرَ الله أَبْغِيكُمْ إلٰهاً ، وهو فضَّلكم على العالمين ؟ وإذْ أنجيناكم من آل فرعون ، يَسُومُونكم سُوءَ العَذاب ، ويقتِّلون أبناءكم ، ، ويسْتَحْيُون نساءكم ، وفى ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم .

وعادوا يسألون موسى : يا موسى ؟ ألِهذا الدِّين الذى تدعونا إليه دُسْتُور ؟ أَلَهُ كتاب ؟ وما كُنْهُ هذا الدِّين ؟ وما حدوده التى نعيش فى نطاقها ؟ توضِّح لنا الطريق ، وترسُم لنا المعالم ، وتُجنِّبُنا الخطيئة ، وتقينا الزلل .

يا موسى لقد رأينا بأعيننا مصارع القوم الذين ضلُّوا ، والذين لمْ يفتِّحوا أعينهم على نور الهداية الربانية ، أفترضى لنا نحن قومك ، أن نسير على غير هدى ؟ فنضلَّ كما ضلُّوا ؟

يا موسى اسأل ربك ، يُبَيِّنْ لنا حدود هذا الدِّين فى كتاب نقرؤه ونتبعه .

* * *

وسأل موسى ربه ، أن يمنح قومه كتاباً ، فيه دِين .

فوعده ربه ، أن سيؤتيه الكتاب ، بعد أن يُعِدَّ نفسه لتَلَقِّى هذه الأمانة ، وأن يصوم ويتطهَّر ثلاثين يوماً ، فى شهر ذى القعدة ، فصام وتطهَّر ، حتى حان الميعاد والميقات ، اختار من قومه سبعين رجلا ، ليرافقوه فى هذا الميعاد ، وفى تلَقِّى هذا الوحى ، ولكن موسى لم ينتظرْ إخوانه ، حتى يخرجوا معه إلى جبل الطور ، فى البُقْعة المباركة ، وتعجَّل فسبقهم يلقَى ربه قبلهم ، فسأله ربه : وما أَعْجَلَكَ عن قومك ياموسى ؟ قال : هم أولاء على أَثَرِى ، وعَجِلْتُ إليك رَبِّ ، لترضى .

فأُمِرَ بالانتظار والتريث عشرة أيام أُخرى ، حتى يأتى السبعون المختارون ، وليشاركوه فى تحمُّل أعباء رسالته .

وواعدْنا موسى ، ثلاثين ليلة ، وأَتممْناها بعشر ، فَتَمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلُفْنى فى قومى وأَصْلِحْ ، ولا تتَّبِعْ سبيلَ المفسدين .

ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلَّمه ربه ، كلاماً سمعه من كل جهة ، بجسمه وروحه ، وعقله وحواسِّه ، فهو اتصالٌ كُلِّى ، ثم تجسَّم فى نَفْس النَّبى ، فنطق به إملاءً من هذا الاتصال ، وكلَّم الله موسى تكليما مباشراً ، من غير وساطة جبريل ، بريدِ الله إلى الأنبياء .

وليس عجيباً أن يسأل موسى ربَّه ، أن يَظْهَرَ له فيراه ، فإبراهيم من قبلُ ، سأل ربه : ربى : أرنى كيف تُحْيِي الموتى ؟ وموسى نفسُه ، سأله قومه : أرِنَا الله جهرةً .

* * *

تلك طبيعة الإنسان ، حتى فى نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، طبيعةُ حُبِّ الاستطلاع ، واللَّهفة على المجهول ، والحَيْرَةِ فيما هو مخبوء وراء حُجُب الغيب ، « لا تحركْ به لسانك لتعجل به » .

* * *

وقال الله لموسى ، لن ترانى ، فإنك لم تَقْوَ بَعْدُ ، ولم تتهيأْ لرؤيتى ، وطاقتُك محدودة ، وسأُريك يا موسى بعضَ آثار قدرتى ، ولعلك تُطيق .

انظرْ إلى الجبل ، فإن استقرَّ مكانَه ، فسوف ترانى . فلما تجلَّى ربُّه للجبل ، بجلاله وكماله ، ورَهَبُوتِه وجَبَرُوتِه ، اندكَّ الجبل ، وغاص فى الأرض ، فغُشِيَ على موسى ، من هوْل ما رأى . وأخذتْه رهْبـةُ الموقف ، وغاب فى ملـكوت الله ، وخَرَّ على وجهه ساجدا لله ، مُقِرًّا مُذْعِناً لرَحَمُوتِ الله ، حتى إذا أفاق ، قال : سبحانك يا ربى تُبْتُ إليك من قَلَـقِي وحَيْرَتى ، وأنا أول المؤمنين .

وقال الله يا موسى : إنى اصطفيتك على الناس ، برسالاتى و بكلامى ، فخذْ ما آتيتُك ، وكنْ من الشاكرين . وكتبْنا له فى الألواح من كل شيء مَوْعظةً وتفاصيلَ الأحكام ، وتعاليمَ الدِّين ، وكانت هى التوراة ، الـكتاب

السماوىّ ، الذى أنزله الله على موسى ، وكان هو العهد القديم ، فى دِين النصارى ، ولقد آتينا موسى الكتاب والفُرْقان لعلكم تهتدون .

إنا أنزلْنا التوراة فيها ، هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيُّون والأحْبار ، بما استُحْفِظُوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شُهَداء .

وقال موسى لأخيه هارون اخْلُفْنِي فى قومى واصلحْ .

وكان لا بد لموسى ، يومَ خرجَ مع السبعين المختارين من قومه إلى جانب الطُّور الأيمن ، أن يُوَصِّى أخاه هارون بقومه ، يقوم مقامَه فيهم ، يوفِّق بينهم ، ويهدى ضالهم ، ويُصلح ما فسد من أمورهم ، وكان الموعد الذى حدَّده لغيبته عنهم ، ثلاثين يوما ، فلما أمره الله أن يُتِمَّهَا أربعين ليلة ، بقى فى الجبال ، وتأخر عن قومه ، وأخلف موعده ، قَلِقَ بنو إسرائيل ، وفى طَبْعِهم القلق ، وزاغَتْ نفوسهم ، وتزعزع بموسى إيمانهم ، وشاع فيهم الشائعات ، أن موسى ، أخلَفَ الوعد ، وطاب له العيش بالشام ، وأنه سوف لا يعود إليهم .

وظهر السامرى ، ذلك الرجل المثَّال ، صانع التماثيل ، فأذْكى فيهم رُوح القَلَق ، وعاد بهم سيرتَهم الأولى ، إلى عِبادة التماثيل والأصنام ، وجَمَع منهم ذهبَهم ، وصَهَرَه وصبَّه تمثالا ، على هيئة عجلٍ من بقر ، وركَّب فيه بحيلته ، وخفة يده ، وبما أطْلَقَه من بُخُور وحِيَل ، فجعله يُصوِّتُ كصوت العجول ، فأغراهم منظرُه ، واستلب عقولَهم خوارُه ،

فاتخذوه إلهاً ، وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى .

وقال لهم هارون : يا قوم . إنما فُتِنْتُم به ، وإن ربَّكم الرحمنُ ، فاتبعونى ، وأطيعوا أمرى ، قالوا : لن نَبرَحَ عليه عاكفين ، حتى يرجعَ إلينا موسى .

* * *

وعاد موسى إليهم ، ففزع لنَكْسَتِهم فى دينهم ، وارتدادِهم فى الكفر على أعقابهم ، والتفت إلى هارون ، وألقى الألواح ، وأخذ برأسِ أخيه ، يجرُّه إليه ، ويقول : يا هارون ، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألاَّ تتَّبعنى ؟ أفعصَيْت أمرى ؟

وقال هارون لموسى : يا أخى ، ويا ابنَ أمى وأبى ! بالله عليك أن تهْدأ ، ولا تؤذينى . ولا تأخذْ بلِحْيتى ، ولا برأسى ، إنى خَشِيتُ أن تقول فرَّقْتَ بين بنى إسرائيل ، ولم ترقبْ قولى . إذا أنا قاوَمْتُهم بالقوة ، وحَمَلْتُهم على الدِّين بالإكراه .

قال : فإنا قد فتَنَّا قومَك من بعدك ، وأضلَّهم السَّامِرِىّ ، فأخرج لهم عجلاً جسدا ، له خُوَار .

فرجع موسى إلى قومه غضبانَ أَسِفاً ، قال يا قوم : بِئْسَ ما خَلَفْتُمونى من بعدى ، أَفَطَال عليكم العهد ، أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ من ربكم ، فأخلفتُمْ موْعدى .

ياقوم . لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، واكسِروا شوكتها وحدَّتها ، وقوِّموا اعوجاجها .

قالوا : يا موسى . ما أخلفنا مَوْعِدَك بمَلْكِنا ، ولكنا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم ، فقذفناها ، وكذلك ألْقى السَّامرى .

* * *

والتفت موسى إلى السامِرِيّ ، يسأله : ما خَبَرُك يا هذا ؟ فكان صريحاً جريئاً متبجِّحاً حين قال : بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به ، وتعلَّمتُ مالم يتعلموه

ولقد عرفت المكان الذى نزل عليك الوحى فيه ، وعرفت أنه مبارك وأن ترابه يشتمل على قوة كامنة فيه ، فقبَضْتُ حِفْنَةً من هذا التراب ، وألقيتُها على الذهب المصهور ، وصَبَبْتُ منه تمثالا لعجلٍ من ذهب برَّاقٍ وهَّاج ، ونفخْتُ فيه ، فإذا هو عجلٌ له خُوار .

وما دفعنى إليها دافع ، إلا نفسى التى حسَّنتْ لى هذه الفكرة ، فنفذْتُها ، وعرضتُها على القوم ، فوقعوا فى شَرَكِها ، وفسقوا عن دينك ، وعبدوا العجل .

فدعا عليه موسى ، أن يعيش بقية عمره ، بغيضا مكروها من الناس ، لا يقربونه ولا يكلمونه ، وأوْعده يوم القيامة ، يحاسبُه ربه ، ويعاقبه ، جزاء ما أغْوَى الناس ، وضلَّلهم عن دينهم ، وسيحمِّله الله أَوْزاراً قدر أوزارهم جميعا .

قال موسى للسامرى : فاذهبْ ، فإن لك فى الحياة ، أن تقول لا مِسَاسَ وإنَّ لك مَوْعِداً لن تُخْلَفه ، وانظره إلى إلٰهك الذى ظَلْتَ عليه عاكفا ، لنُحرقنَّه ، ثم لنَنْسِفنَّه فى اليَمِّ نسفاً .

يا قوم: إنما إلهكم الله، الذى لا إله إلا هو، وسع كل شىء علما.

* * *

وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما، وقطعناهم فى الأرض أمما، منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك. وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وهم الأسباط، يقومون فيهم على هدايتهم، وإصلاح حالهم.

وشاءت إرادة الله أن يتم نعمته عليهم، ويبسط الأرض الفسيحة، وأوحى الله إلى موسى، أن اضرب بعصاك الحجر، أى حجر، تنفجر منه عيون الماء، ليرتوى قومك العطاش فى هذه الصحراء الجدباء.

فانبجست منه، اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين.

وأغدق الله عليهم نعمه وفضله، فساق إليهم الغمام، يظللهم، ويقيهم، وهج الشمس، ولفح القيظ، وأنزل عليهم فاكهة الترنجين، وساق إليهم مع الرياح طيور السمانى، طعام من الفاكهة ومن الطير، خير طعام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وبعث عليهم عمودا من نور يضىء لهم ظلام الليل، ولعله كان نهراً من أنهار المجرة، ومجموعة من مجموعات الكواكب، التى تظهر فى السماء. وأكرمهم، فكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى.

ولكنهم بطروا بهذه النعم، وزهدوا فى هذا النعيم، وسئموا الإعزاز

بعد الذلة ، فإنهم ما تعوّدوا التكريم ولا التعزيز ، وإنما عاشوا تحت الضغط ، ورُبُّوا فى الهَوان .

وقالوا يا موسى : إنا لن نصبر على طعامٍ واحدٍ ، فادْعُ لنا ربَّك يُخْرِجْ لنا مما تنبت الأرض من بَقْلِها وِقثَّائِها وفُومِها وعَدَسِها وبصلها .

وعجب موسى من ذَوْقِ هؤلاء الناس ، وانحراف مِزاجهم وتَدَنِّيهم حتى فى الطعام ، وقال : أتستبدلون الذى هو أدنى وأدنأ ، بالذى هو خيرٌ وأطعم اهبطوا إلى مصر ، وأىُّ بلدٍ زراعيةٍ مصرُ ، فأفلحوا الأرض ، وازرعوها واستنبتوها ، وكلوا منها : بَقْلًا وقِثَّاءً وفولًا وعدسا وبصلا ، وأَشْبِعُوا أَجسامكم ، واملئوا بطونكم ، واجترُّوا كما تجترُّ بهائمكم ، وستُغطِّى أبخرة هذه الأطعمة الغليظة على أفهامكم ، وستَفْتُر هِمَمُكم ، وتنحطُّ مَعْنَوِيَّتُكُمْ ، وسيَخْمُلُ ذِكْرُكم ، وتعودون إلى الذلة والهوان ، وستعيشون مساكين ، فى غضب الله ، الذى منحكم السُّمُوَّ والرفعة ، فلا تسمون ولا ترتفعون .

وضُرِبَتْ عليهم الذلَّة والمسكنة ، وباءوا بغضبٍ من الله .

* * *

ولم يَرْضَ موسى أن يترك فرصة ، يدلهم فيها على الخير ، والتسامى فى الحياة . إلا عرضها عليهم ، ولكنهم عبيدٌ أَذلَّة ، يَدَعون الفُرَصَ تُفْلِت من بين أيديهم وهم لا يشعرون .

عرض عليهم ، أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وقال لهم : تعالَوْا إلى بيت المقدس مدينة الأنبياء والمرسلين ، ومنبع الرسالات ، وهى الأرض الطيبة

المباركة . وفيها الأمن والدَّعة والسلام والاستقرار ، وكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوها شاكرين نعمة ربكم ، حامدين ساجدين ، وحُطُّوا فيها رحالكم ، واهْدَأوا بعد حياة الارتحال والتنقل فى الفيافى والقفار ، وانصرفوا إلى العبادة والتطهر من أرجاس الحياة القلقة التى لا نظام فيها ولا قانون يربطها وعيشوا عيشة التمدن والتحضّر ، نغفرْ لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين .

ولكن النفوس الواطية الضعيفة المنحلة ، التى اندمغت بدامغ العبودية ، واندبغت جلودها بدابغ الاستعباد والاستذلال ، لا تتسامى ولا تنهض ، ولا تتذوّق الإعزاز ، ولا تستطعم الإسعاد ، وتتشبث دائماً بالحمأ والطين وتستمرئ التدنِّى فى الحياة ، كذيل الكلب ، تراه دائماً ملويا فإذا ربطته على عصا ليستقيم ، استقام ما دام مشدوداً مضغوطاً ، فإذا حللناه ، عاد ملويا على عادته وخِلقته .

وكذلك بنو إسرائيل ، يعرض عليهم موسى ، الذى أعتق رقابهم من فرعون ، ووهب لهم حياة الكرامة بعد أن قتلت نفوسهم ، وانحلت هممهم ، وأقام معهم زماناً فى الصحراء ، ليعوِّدهم حياة الخشونة والنخوة ، ويعودهم على حياة الفروسية والهمَّة ، وليبدلهم بالذل عزا ، وبالفقر غنى ، وبالشقاوة راحة ، ثم يدعوهم إلى حياة الحضارة وتكوين الدولة ، والانخراط فى سلك الإنسانية الرفيعة ، إذا هم يتخاذلون ويتقاعسون ، أمام رجلين اثنين ، مهما كانا قويين .

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ، التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين .

قالوا يا موسى : إن فى بيت المقدس ، قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها ، حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون الله ، ومن خاف الله واتقاه ، خافه الناس ، لاعتماده على الله ، واعتصامه بقوة الله ، وقد أنعم الله عليهما بقوة التديُّن ، ادْخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنـكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

وهل ينفع الطَّرْق فى حديد بارد ؟ وهل تعود الحياة إلى قلب ميت ؟ وهل يتحول خَبَث الحديد ، فيصير ذهبا ؟ ومن كان فى جميزة أصله ، لا ينبت التفاح فى فرعه . وأين الأدب فى الحديث إذا حدثتَ سافلا ، وأين عرفان الجميل إذا ذكرت جاحداً ناكرا ؟ .

فى لحة وبجَاحة ، يردون على موسى يقولون : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهبْ أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون .

وماذا يصنع موسى فى هؤلاء ، إلا أن يدعهم ويدعو عليهم ، ويتجه إلى ربه ضارعاً مستنجدا : ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين . وقال الله مستجيباً دعوة موسى : إنها مُحرَّمةٌ عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الـكافرين .

* * *

وفى القرآن الـكريم ، كثير من الآيات ، تذكِّر بنى إسرائيل بنعم الله .
يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتىَ التى أنعمتُ عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين ،

يا بنى إسرائيل اذكروا ، واذكروا ، ولـكن !

لقد أسمعتَ إذْ ناديتَ حيًّا ولـكنْ لا حيـاة لمن تنادى

فكثرت مساويهم ومخازيهم ، حتى فى أتفه الأمور ، وأهونها على أنفسهم ، فلقد كانوا ، أيام أنْ كان فيهم بقيَّة من إيمان ، يُخصِّصون يوم الجمعة لعبادة الله ، يتفرغون فيه من العمل ، ويخلصون من مشاغل الدنيا للعبادة ، وأقرّهم موسى عليه ، ثم نكصوا عن يوم الجمعة ، واختاروا يوم السبت ، يسبتون فيه ويتنسكون . وأقرهم موسى عليه ، فكانوا لا يعملون فيه ، ولا يمدون أيديهم إلى شىء ، حتى لو برز لهم السمك من الماء ، وأطل عليهم بأعناقه ، ولعب تحت أيديهم وأرجلهم .

فكانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، وكذلك الحمام فى الحرم المدنى ، يحط بين الناس ، وهو آمن مطمئن ، فهو قد رُبِّى على ألا يمسه أحد بسوء .

وبنو إسرائيل ، هم كما عهدناهم ، دينهم ليس عزيزاً عليهم ، لا يَزَعُ نفوسهم ، ولا يكبح جماحهم ، ولا يحول بينهم وبين أطماعهم ، وليس غريباً على اليهودى ، أن يحنث فى يمينه ، وأن يخلف فى وعده ، وأن يفرِّط فى شرفه ، إذا برق فى عينه بريق المال ، وزهت فى عينه المادة .

وتلك رذيلة ورثوها عن آبائهم ، أصحاب يوم السبت ، الذين خالفوا فيه الدين وتصيَّدوا السمك ، وأحلُّوا ما حرّم الله .

وليس صيد السمك ، جريمة نكراء ، تُغضب السماء ، ولكنها تكشف عن رجرجتهم فى دينهم ، وتخلخل عقيدتهم .

فقال الله لهم : كونوا قردة خاسئين ، قردة وأشباه قردة ، وبعض

بنى الإنسان ، تتغير نفسه ، فتتغير سحنته وخلقته ، ويَشْرُسُ طبعه ، ويَسْوَدُّ قلبه ، ويأكل الغِلُّ صدره ، فيبدو أشبه بصورة القردة ، وفى حدائق الحيوان نرى وجوه بعض القردة ، طِبْقَ صور بعض الناس .

فجعلناها نكالا لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظةً للمتقين .

***

وفى القرآن الكريم آيات ، تقص علينا جهلهم وجحودهم ، وتنطعهم ، نطاعةً تُخْنِقُ وتغيظ من يسمع أخبارهم .

فقد تنطَّعوا فى الأسئلة ، وأطالوا حبل المناقشة والمجادلة ، وضيَّقوا على أنفسهم حبل المشنقة ، حتى ضُرِب بهم المثل فى كل تعنُّتٍ وتزمُّت ونطاعة ، فيقال : لا تكنْ مثل بنى إسرائيل إذْ ضيَّقوا على أنفسهم يوم البقرة .

فلقد كان فيهم شيخ غنى ، وله ولد وحيد ، ورث كل ثروة أبيه ، فغار منه أبناء عمه ، فقتلوه ، وطرحوا جثته على باب المدينة ، ثم دخلوا على الناس صارخين باكين ، يطالبون بدمه ، ويدَّعون أنهم مصابون فيه ، ليكونوا أصحاب دمِه وثروته ، وبحثوا عن القاتل ، فلم يجدوه ، وراحوا إلى موسى يستفْتونه فيما يصنعون .

وإذْ قتلتم نفساً ، فادَّارأْتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون .

فأمرهم موسى : أن يذبحوا بقرة ، وأن يأخذوا لسانها ، ويضربوا القتيل به . فيحيا ، ويخبر عن قاتليه .

وقالوا : يا موسى أتتخذنا هزؤاً ؟ قال : أعوذ بالله ، أن أكون من الجاهلين !

قالوا : ادع لنا ربك ، يبين لنا ما هى ؟ وأى البقر نذبح ؟ فالبقر كثير .

قال موسى : سألت ربى . فقال : اذبحوا بقرة وسَطاً فى عمرها ، لا هى عجوز عجفاء ، ولا هى صغيرة خضراء ، فافعلوا ما تؤمرون .

قالوا : ادع لنا ربك ، يبينْ لنا ما لونها ؟

قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء ، فاقعٌ لونُها ، تسر الناظرين .

قالوا : ادع لنا ربك ، يبينْ لنا ما هى ؟ وما أوصافها ، وما اسم صاحبها إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون .

قال : إنه يقول : إنها بقرة ، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، إنها بقرة مرتاحة ، لم ينهكها العمل ، ولم يُنحلها التعب ، ولا أذلَّها الشقاء ، ولا أضناها النصب ، فى حرث الأرض ، وإدارة الساقية ، وهى بقرة مسلَّمة من العيوب ، فلا أذنها مقطوعة ، ولا ذيلها مبتور ، ولا جلدها مسلَّخ ، ولا عيب فيها .

وأنَّى لنا هذه البقرة ؟ لقد ضيَّقنا على أنفسنا وشدَّدنا ، فضيق الله وشدد علينا . وليس إلا بقرة اليتيم ، وما يقبل أوصياؤه أن يبيعوها ، وإنْ هم قبلوا فما يجزيهم إلا مِلْء جلدها ذهباً .

وحكمة الله ، أن يسلط عليهم أنفسهم ، حتى يكون ذلك فى مصلحة اليتيم وليخلق من الشر خيراً ، ومن التعسير تيسيراً . ومصائب قوم ، عند قوم فوائد .

فذبحوها ، وما كادوا يفعلون ، وما لبثوا أن ضربوا القتيل بلسانها ، حتى دبت فيه الروح ، وانبعثت فيه الحياة ، ونطق بأسماء قاتليه ، وهم أبناء عمه .

* * *

يا ويحكم يا بنى إسرائيل ، هل رأيتم بأعينكم قدرة الله ، التى أحيت الموتى ، وهل اقتنعتم بأن مَنْ ضَيّق ، ضُيِّق عليه ، ومن شدَّد ، شُدِّد عليه ؟ وهل لانت قلوبكم ، وصفت نفوسكم ، ومِلْتم إلى الرجعة إلى الله ؟

كذلك يُحيِي اللهُ الموتى ، يوم البعث ، ويريكم آياته ، لعلكم تعقلون .

* * *

يا ويلكم يا بنى إسرائيل ، قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة ، لما يتفجَّر منه الأنهار ، وإنّ منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء ، وإنَّ منها لما يهبِط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون .

قارون

وهذا قارون ، واحدٌ من أقارب موسى ، أغناه الله ، فأطغاه الغنى وأرْداه وبَغَى ، وإنَّ الإنسان ليطغى ، أنْ رآه استغنى ، وآتاه الله مالا كثيراً ، فكنزه فى الخزائن ، وكثرت لديه الخزائن ، حتى إن مفاتيحها كثرت كثرة أعجزت الأقوياء الأشداء عن حملها ، والاحتفاظ بها .

وآتيناه من الكنوز ، ما إنّ مفاتحه لتَنُوء بالعُصْبَةِ أُولِى القوّة .

* * *

وفرح قارون بغناه فرحاً شديدا ، فطغى وبغى . وتعالى على الناس ، وأهدر كرامتهم ، وسخَّر الفقراء وسَخِرَ منهم ، وحملهم على منافقته .

ولقد كان قارون إقطاعيًّا ، ضرب المثل الشنيع للإقطاع والإقطاعيين ، اغتنى من عرق الكادحين ، وسَمِن جسمه من دماء الفلاحين ، واكتظت خزائنه من هزال المساكين ، وعاش هو على فَنَاء الآخرين .

فأذلهم بفقرهم ، واستعبدهم بضعفهم ، وتكبر عليهم ، وتجبَّر فيهم ، وظنَّ أنه سيخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولًا .

* * *

وافترى فى غناه ، حتى لم يكتفِ بالقصر الواحد ، فبنى القصور ، ولم يكتف بالقصر المحدود الغرف ، فبنى قصر لابيرانت فى الفيوم ، بثلاثة آلاف حجرة ، عدا الأبهاء والشرفات ، والأفنية والأحواش ، والحدائق والبساتين ،

والأسوار والأنهار ، وما تزال إلى يومنا آثار قصره فى إقليم الفيوم ، تعثر بها معاول الحفارين ، من طلاب الآثار .

وها هى ذى بركة قارون ، ما تزال شاهدة على غناه ، مخلدة ذكراه .

* * *

فأين الناس من غناك ياقارون ، لقد ألّبت الناس عليك ، وألهبت أحشاءهم بكراهيتك ، وزوّغت أبصارهم ببريق ذهبك ، وحلّبْت لعابهم بما زخرت به موائدك .

ألا تراعى الله يا قارون فيهم ؟ ألا تجعل لهؤلاء الضعفاء المحرومين نصيبا من نعيمك ؟ ألا تحاسب نفسك على ضريبة غناك قبل أن يحاسبك مولاك ؟ ألا تدّخر شيئاً لأخراك مما أنت ممتّع به فى دنياك ؟

ألا تعرف ياقارون أن الإحسان إلى الفقراء ، إحسانٌ إلى الله ، لأنهم عيال الله ؟

ألا تجعل شكر نعمة الله عليك ، أن تخرج الزكاة ، وهى فرض عليك .

* * *

ويل لك يا قارون ، فقد قابلت فضل الله عليك ، بكفرانه وجحوده . وفجرت فى الناس ، وحرمت الجائع ، وأعريت الكاسى ، واستعبدت الأحرار وعِثت فى الأرض فساداً !

أما كان يكفيك ، أن تتمتع فى الدنيا ، بمطعم فاخر حلال ، وأن تلبس اللباس الفاخر الزاهى الحلال ، وأن تسكن المسكن العظيم الذى لا يُشعر البائسين بأنهم فى الأرض وأنت فى السماء ؟

إذ قال له قومه ، المخلصون له ، المحبُّون لمصلحته ، الخائفون على نعمته أن تزول بهذا التباهى ، والإغاظة للمحرومين ، قالوا له : لا تفرحْ يا قارون ، إن الله لا يحب الفَرِحين ، الذين استخفهم الفرح ، فطيَّر صوابهم ، وغيَّر نفوسهم ، وحجَّر عواطفهم ، فأرْداهم فى الهاوية .

وابتغِ فيما آتاكَ الله الدارَ الآخرة ، ولا تنْسَ نصيبَك من الدنيا ، وأحسِنْ ؛ كما أحسن الله إليك ، ولا تبْغِ الفسادَ فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين .

* * *

يا وِقايَةَ الله من الغرور ! إذا ملأَ الإنسان ، فنَسِى نفسه ، وحمَّلها فوق قدرها وطاقتها !

يا دَهَاكَ الله يا قارون ، حين تدَّعى أنك أعلم الناس أجمعين ، وأن غناك هذا كان لك من علمك .

وماذا كان مقدار علمك ، حتى خصَّك الله بكل هـذا الغنى من دون الناس أجمعين ؟ وحتى تقول : إنما أوتِيتُه على علمٍ عندى !

* * *

وحتى لو صحَّ ما ادَّعيتَ ، أَنك عَلِمْتَ التوراة ، وحذقْت تهاويل علوم الـكيمياء ، وفقِهْت أصول قوانين التجارة ، وتبحرَّت فى أقانيم الدهقنة ، وتعمقت فى دقائق العلم بكنوز يوسف ، حتى لو صحَّ كل هـذا ، فإن العلم الصحيح يا قارون ، يوسع العقل وينميه ، ويرقق القلب ويزكيه ، ويلطف

العاطفة ، ويهذب النفس الجامحة ، ويخضض شوكة الكبر ، ويمزق حجب الغرور ، ويقى صاحبه مصارع الحمقى المغرورين .

* * *

ولو كنت تعلم يا قارون ، أن العلم من العقل والفكر ، وأن الفلاسفة والعلماء أوسع الناس عقلا وأرجحهم فكرا ، وأن عقلك الناصح كان يحتم عليك أن تشترى الناس من حولك بمالك ، وأن تأسرهم بإحسانك ، والإنسان عبد الإحسان ؛ لو كنت تعلم ، لعملت بما علمت !

* * *

ذلك هو العقل يا قارون ، الذى ينتج العلم ، فأين أنت من العلم ! حين تدعى أنك إنما أُوتيتَ الغنى لأنك عالم !

* * *

الحق ، أن هذا الادعاء ، كان مظهرا من مظاهر طغيان الغنى . وأن الله قد أهلك من قبلك من الأمم ، مَن هم أشدُّ منك بطشا ، وأكثر جمعا ، فما أغنى عنهم مالهم ، ولا حماهم بطشهم وقوتهم .

* * *

وذنوبك هذه يا قارون ، كلها محسوبة عليك ، تسبقك إلى الله بين يديك ، وهى مُثبتةٌ فى سجلِّك ، شاهدة على إجرامك ، وستؤخَذ بها أخذَ عزيزٍ مقتدر . يقول ربنا القادر ، ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون .

* * *

وغريزة العناد ، وليدة ضيق الفكر ، وتصلُّبِ العقل ، ودليل على أن

المعاند ، فقد موهبة التفاهم والاقتناع ، وأنه انحط إلى مرتبة الحيوان الجامح الحرون ، الذى يهيج فى راعيه ، لا يبالى : هل آذاه ، أم آذى نفسه !

أو هو كالوَعْل ، تَيْس الجبل ، يظل ينطح الصخرة ، حتى يُوهِىَ قرنه ويدغدغه ، وتبقى الصخرة على حالها لم يَضِرْها شىء .

* * *

وقديما ركب العناد قابيل بن آدم ، فأهلكه ، وملأ ابن نوح فأغرقه . وطمس العناد على قلب فرعون فأرْداه وأهله أجمعين .

وكذلك قارون ، حين سمع النصيحة ، فازداد عُتوّا وغرورا ، وافتتانا بغناه ، وأصم أذنيه ، وركب رأسه ، ولبس أبهى حُللِه ، وأزْهى حُليّه ، بالذهب ، وبأغلى من الذهب ، وركب أمهر الركائب ، واستصحب أعوانه الشداد ، أربعة آلاف غنى أو يزيدون ، وخرجوا فى موكب حاشد ، ليغيظ التاعسين البائسين .

فخرج على قومه فى زينته ، وفى صَلَفه وكبريائه ، وصعَّر خده للناس ، ومشى فيهم مِشية المرح والخيلاء ، حتى فتن الناس ، وختَلهم عن إيمانهم ، وعلَّقهم بمفاتن دنياهم ، وأنساهم ربهم ، وشغلهم عن آخرتهم .

قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثلَ ما أُوتِىَ قارون ، إنه لذو حَظٍّ عظيم .

* * *

وجنى على نفسه بعناده ، وجنى على الناس ، بأنْ شغل بالهم ، وبلبل أفكارهم ، وأسال لعابهم ، وحرّقهم بنار التشوق والتلهُّف على مثل غناه ،

وملأهم بالحسرة والأسى على ما هم فيه من فقر وحرمان ! وبثَّ فيهم روح التمرد على ما قسمه الله له ولهم من غنى وفقر .

نحن قسمنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سُخْرِيًّا ، ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون .

* * *

وقال الذين أوتوا العلم ، واليقين ، ومُنِحُوا الرضى والتسليم ، ورُزقوا القناعة ، وحماهم الله شر الطمع والجشع ؛ قالوا للذين زاغت أبصارهم ، وتعلقوا بخيط الأمانى ، وَيْلَكُم ، ثوابُ الله خيرٌ لِمَنْ آمن ، وعمِل صالحا ، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون .

* * *

وإنَّ الله ليُمْلِي للظالم ، ويمدّ له حبال عِصيانه ، ويُكْثر عليه من مباهج حياته ، ويغْريه بحُلو آمانيه وآماله ، حتى إذا أخذه لم يُفلِته .

وقد أخذ الله قارون بالخسْف ، فاندكَّ قصره وقصوره ، وغاصتْ فى الأرض خزائنه ، وتبخَّرتْ كبخار الماء أمواله ، وراح سلطانه كما يروح الليل ، وارتجفت القلوب من هول ما وقع عليه ، وتقلَّصتْ وَجَنَات الناس فزعاً ورعبا ، اعتبارا بما حلَّ به .

* * *

فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له مِن فِئَةٍ ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنَّوْا مكانَه بالأمس ، يقولون :

وَىْ ! كأنَّ اللهَ يبسُط الرزق لمن يشاء ، ويَقْدِر ، لولا أن منَّ اللهُ علينا ، لَخَسَفَ بنا . وَىْ ! كأنه لا يُفْلِحُ الـكافرون .

* * *

قال ربُّنا ، ذو البطش الشديد :

تلك الدارُ الآخِرة ، نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبةُ للمتقين .

مَن جاء بالحسنة ، فله خيرٌ منها ، وهم مِن فزع يَوْمَئذٍ آمنون .

ومَن جاء بالسيئة ، فـكُبَّتْ وجوهُهُم فى النار ، هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون ؟ .

الخضر

وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قليلاً

لك اللهُ يا موسى ، حين تفْنِي جُهودَك ، فلا تدرى أتوجهها إلى فرعون ؟ أم توجهها إلى قومك بنى إسرائيل ، أم توجهها إلى قارون وأمثاله من هؤلاء المفترين ؟ أم تجمع نفسك ، لتتجه إلى ربك ، تستعينه وتستهديه في تأدية رسالتك ونشر دينك ؟ أم تتجه إلى ربك تحمده على أن أكرمك ، حين نصرك على عدوك !

* * *

ولكن ! أَتُرى يا موسى أَخَذَتْك نَشْوَةُ الانتصار ، وشعشعك إكرام الله ، يوم وقفت تخطب وتعِظُ ، وتبين للناس معالم الدين ، وتفسر التوراة !

ويوم أن غمرت السامعين برَوْعة علمك ، وفصاحة بيانك ، حتى سألوك :

هل فى الناس يا موسى من هو أعلم منك ؟ وسرى فى نفسك ما يسرى فى طبيعة البشر ، وحسبت أنك شيخ الأنبياء ، وكليمُ الله ، وأنك صِهر شعيب ، وأنك ربيب القصور ، وأنك مُغْرِقُ فرعون ، وأنك غالب السَّحرة ، وأنك مُفَجِّر الماء من الصخرة ، وأنك فالق البحر ، وأنك صاحب التوراة ، وأنك تغْترف من بحر علم الله !

* * *

ولكن الله سبحانه ، أوحى إليك ، أن بحر علمك يا موسى ، قطْرةٌ من بحر علم المقرَّبين وأن من عبادى ، عبداً صالحاً تلقاه ، عند مجمع بحر الروم وبحر فارس ، فيما يلى الشرق ، وقد آتيناه من لدُنَّا علما !

وموسى ، الذى يرى أنه المحظِىُّ عند ربه ، الأثير لديه دون أنبيائه ، لابد أن يلقى هذا العبد الصالح ، ويرحل فى طلبه ، ويسعى لصحبته ، ويلتمس من علمه ، حتى لو أمضى حِقْبةً أو حِقَباً من الزمان .

* * *

وإذ قال موسى لفتاه ، لا أبْرَحُ حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمْضِىَ حُقُبا .
وأوصى الفتى ، أن يأخذ غداءهما ، حوتا من حيتان البحر ، فى مِقْطف أو مِكْتل .
وسارا إلى الشرق ، ودائما يرحلُ إلى الشرق ، ويقتبس النور من الشرق ، فالشرق منزل الوحى ومنبع الأديان ، ومسقط الرسالات ، وحقل الروحانيات .

وسارا حتى كدَّهما السير ، وأضناهما الارتحال ، فناما على صخرة ، فى ظل شجرة ، على شاطىء البحر ، ونزل المطر ، فبلل الحوت ، فصحا وقفز إلى البحر ، وهما لا يشعران .

فلما بلغا مجمع بينهما ، نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سَرَبا .

وتابعا السير ، حتى وقفا على البحرين ، وماذا هناك ؟ إلا أن يرى قدرة ربنا سبحانه ، ويسرح فى تأملاته ، ويسبح فى صلواته ، ويتيه فى ملكوت رب العالمين .

وهو الذى مَرَج البحرين ، هذا عذبٌ فُراتُ سائغ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ومِنْ كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حِلْيةً تلبسونها ، وترى الفُلْكَ مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

نفسه من تمجيد الله فى جلاله ، وحتى يغسل ما علق فى نفسه من زهوٍ فى نسماته وحتى يعود إلى العبد الصالح وقد خلص من كل مظاهر الحياة ، إلا من الماء ، وهو أصل الحياة .

وجعلنا من الماء كل شىء حى

* * *

فلما جاوزا ، قال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً .

قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا .

* * *

وأنصت موسى إلى نفسه ، وعجب من أمر الفتى والحوت ، وكيف يحيا الحوت وهو فى المكتل ! ثم يقفز إلى البحر ؟ فيعود إلى الماء ، وكيف ينسى الفتى هذا الحوت الكبير . ولا يحس بالمكتل ، وهو يحس ثقله وفيه حوت ، وخفة وزنه حين خلا من الحوت ؟

ويا ترى ! أيكون الشيطان إبليس فى أثرى ، حتى وأنا فى هذه الرحلة ! لعل سرا من أسرار الله ، فى ذلك المكان ، الذى نمنا فيه ، على صخرة ، تحت الشجرة ، ولعل موعدنا مع العبد الصالح هناك ولا ندرى !

عُدْ بنا يا فتى إلى حيث كنا ، وإياك أن نتيه فى عودتنا ، فها هى ذى آثار أقدامنا ، فلنقصصها ، حتى تهدينا إلى الصخرة المباركة .

* * *

فوجدا عبدا من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلَّمناه من لَدُنَّا علما .

وما كان العبد الصالح ، إلا شيخا نحيلا ، طوى جسمه الناحل فى ردائه ،

فجعل بعضه تحت رأسه ، وغطى جسمه ببعضه ، فى هذا العراء الذى لا نهاية له ، وفى هذه النَّوْمة الهادئة ، على شاطىء ماء لا حدَّ له ، وفى هذه الوحدة الموحشة ، التى لا مؤنس فيها ، إلا الإغراق فى بحر علم الله .

ومال عليه موسى ، فصحا الشيخ من هدْأته ، وسلَّم موسى فسلَّم ، وقدَّم نفسه إليه فعرف ، وعرض عليه أن يتتلمذ عليه ، فتأبَّى عليه ، واستوسع علمَه على موسى ، وبيَّن له أن بحر علم الظاهر ، لا يساوى قطرةً من بحر علم الباطن .

وشرح له أن علمك ياموسى ، الذى زَهَتْ به نفسُك ، تبتدىء به عند مرحلةٍ أعلى من إحاطتك ، وطاقةٍ أقوى من طاقتك ، وصبر أصبر مما تحسه فى نفسك .

قال له موسى : هل أَتَّبِعُك ، على أنْ تعلمنى مما عُلِّمتَ رُشْدا ؟

قال : إنك لن تستطيع مَعِىَ صبرا ، وكيف تصبِر على مالم تُحِطْ به خُبرا ؟

* * *

وموسى فى سبيل الله ، والوصول إلى الله ، لا يغضب من الشيخ ، ولا ينفر من تَهْوِينه ، ولا ييأس من تصْعِيبه ، ويُبْدى استعداده وتلهُّفه على علم جديد ، فوق ما كان يظن أنه قد عَلِم ، وأَتَمَّ العِلم .

ويقول : ستجدنى إن شاء الله صابرا ، ولا أعصِى لك أمرا .

ولأمرٍ ما يا تُرى ، اشترط العبدُ الصالح على موسى ، أن يصبر ، وألا يتعجل ؟ أكان ذلك ، لما فى طبيعة الإنسان من اللهفة على استيضاح المُبْهم ،

وتفسير المستغلِق ، وحَذَرِ النفس ؛ وقلقِها مما تكنُّه أستار الغيب تدفعها إلى ذلك غريزة حب الاستطلاع ؟

* * *

فقد يرى الإنسان ظاهرةً من ظواهر الكون ، فلا يفهم ، فيسارع إلى السؤال والاستفسار ، فإن لم يجد من يسبقه بالتوضيح ، وضَّح لنفسه ، ثم يحكم بما يحكم ، وهو لا يدرى ، إن كان على هدًى ، أو كان فى ضلال مبين .

* * *

قال العبد الصالح : فإن اتَّبعتَنى ، فلا تسألنِى عن شىء ، حتى أُحْدِثَ لك منه ذِكْراً .

فانطلقا ، حتى إذا ركبا فى السفينة ، خرقها العبدُ الصالح .

فتلفَّت موسى إلى أصحاب السفينة ، وإلى أستاذه الشيخ ، وعجب من فعله ، وركاب البحر يخافون الغَرَق ، ويرُمُّون كل خرقٍ فى سفينتهم ، فما بال هذا الشيخ يعكس الآية ، ويخرق السفينة ؟

لا بد أنه يود أن يُغرق أهلها ، ويغرقنا معهم ، وهذه الحياة ، لا يغامِرُ بها إنسان ، فماذا بعد أن يُغرقنا هذا الشيخ الذى عاهدنى على ألا أتعجَّل ، وألا أسأل ؟

* * *

فقال موسى يهمس فى أذن أستاذه ، وقد تخطَّى حدود المعاهدة التى عقداها عند الصخرة ، وقال له : أخرقتَها لتُغْرِق أهلها ؟ لقد جئْتَ شيئاً إمْرا .

فاستدار الشيخ إليه ، فى هدْأة العالِم ، يحْنُو على تلميذه ، يذكِّره بمعاهدته ،

ويزجره على نقض عهده ، وقال له : ألم أقلْ : إنك لن تستطيع معى صبراً ؟

وخجِل موسى ، واعتذر من فعله ، واعتَلَّ بنسيانه ، واستغفر من ذنبه ، وتوقَّع أن يَحِيقَ به شرٌّ من مخالفة هذا الشيخ الخطير . وقال : لا تؤاخذْنى بما نسيت ولا تُرْهِقْنى من أمرى عسراً !

* * *

فانطلقا ، حتى إذا لَقِيَا غلاماً ، فقتله العبدُ الصالح .

فانزعج موسى لهـذه الجناية ، جناية قتل غلام جميل ناضِرٍ برىء ، لم يُجْرِمْ ولم يُسِئْ إلى أحد ، وماذا يكون جزاؤُنا من أهله إنْ أدركونا ؟

وأين هذه الجناية من دين موسى ، الذى يُحرّمها ، ويتوعد القاتلين بالقتل وبغضب الله ؟

ولم يستطعْ موسى صبراً على أستاذه ، مهما كان يُجِلُّه ويجامله ، واستفهم استفهاماً إنكارياً : أقتلتَ نفساً زكيّةً بغير نفس ؟ لقد جئتَ شيئاً نُكْراً !

فاستدار الشيخ إليه ، فى هدْأةِ الحلماء الحكماء ، حين لا يَضيقون بتلاميذ متسرِّعين ، ولا بمُريدين حَمْقى ، وذكَّره بمعاهدته ، وقال :

ألم أقلْ لك : إنك لن تستطيع مَعِىَ صبراً ؟

وثاب موسى إلى رُشده ، وارتد إلى عهده ، وحاسب نفسه ، وتذكَّر أن هذه هى الثانية . وأن الأولى لك ، والثانية محسوبةٌ عليك .

وما هذا بالمنهج المُرْضِى ، ولا الأسلوب المقبول ، أن تُنْقَض العهود ، وأن تُنْسى المواثيق ، وما هذا بأدب التَّلَقِّى ، ولا هو بسلوك المريدين !

فلم يرض عن نفسه ، وتضاءل بين يدى أستاذه ، وطيب خاطره ، وفرض فرضاً جديداً ، وبنْداً شديداً فى بُنود معاهدته ، وقال : إنْ سألتُك عن شيء بعدها ، فلا تصاحبْنى ، قد بَلَغْتَ من لَدُنِّى عُذراً !

* * *

فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ ، استطعما أهلها ، فأبوا أن يُضَيِّفُوهُما .

فاشمأزَّتْ نفسُ موسى من هذا الشُّحِّ البادى على أهلها ، وهمَّ أن يُنَدِّد بهم . ويتَنَقَّصهم ، ويخدِش كرامتهم .

ولكنه لمَّ نفسه ، وكمَّ فمه ، وكظم غيظه ، فهو منذ قريب ، قد أحْرج نفسه ، فضاقت دائرة الاعتذار عليه .

ثم سارا ، فوجدا فى هذه القرية جداراً مائلا ، يريد أن ينقضَّ ، فيقع متهدما . فأخذ العبد الصالح يُقيمه ، ويدعِّمه ويسنِّده ، وقضى فى ذلك وقتا ، وبذل جهداً ، واستحق على ذلك شكراً وأجراً ، ولم يتقدم أحد بأجر ولا بشكر .

ويمضى الشيخ مطمئن النفس ، مرتاح الضمير ويعجب موسى ، وينفد صبْرُه ، ولم تبق فيه طاقة . أن يسكت على ما يرى من أمر الشيخ ، وفعله المعروف فى قريةٍ كزَّة ، لا يستحق أهلها سلاما ولا كلاما ولا اهتماما :

وقال فى أدب وتواضع ، ليس فيه عتاب ولا ملام : لو شِئْتَ ، لاتخذت عليه أجراً . ولطالبتَ هؤلاء الناس بجزاء ما أسلفت من معروف :

فاستدار إليه الشيخ ، فى حزم وعزم ، كمن يأخذ المخالف بمخالفته ، والمعاهد

بمعاهدته ، والفاعل باعترافه ، وقال : هذا فِراقُ بَيني و بينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

* * *

اسمعْ ياموسى . أما السفينة ، فكانت لمساكين ، يعملون فى البحر ، فأردتُ أن أَعِيبَها ، وكان وراءهم ملك ، يأخذ كل سفينةٍ غَصْبا .

وأما الغلام ، فكان أبواه مؤمنيْن ، فخشِينا أن يُرْهقهما طُغياناً وكُفرا ، فأردنا ، أن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه ، زكاةً ، وأقربَ رُحْما .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنزٌ لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمةً من ربك ، وما فعلْتُه عن أمرى ، ذلك تأويلُ ما لم تسْطِعْ عليه صبراً .

فأين علمُك الظاهرُ يا موسى ، من علم أستاذك الباطن ؟

خذ من الخضر ، وابدأْ من جديد ، تتعلمْ من المهد إلى اللحد .

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

طالوت

ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، حَذَرَ الموت ، فقال لهم الله : موتوا ، ثم أحياهم ، إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

* * *

كثيرٌ وكثيرٌ من الناس ، رُكِّبَ فى طبيعتهم ، أن يتعلقوا بالدنيا ، ويتكالبوا عليها ، وتمتد بهم الآمال ، وتتشعَّب عليهم الأهداف ، فيتشبَّثوا بالحياة ، ويحذرون الموت ، ويخافون ويهْلَعُون ، وتنخلع قلوبهم من خشيته ، قبل أن يُحققوا ما علَّقوا على الحياة من آمال .

* * *

فمن المرض يحذَرون ، ومن الزَّحمة ، ومن العدْوى ، ومن ركوب البحر ، ومن الطيران ، ومن الحروب ، ومن الزلازل ، بل ومن وسوسة الشيطان ، ومن كل أولئك يحذَرون الموت .

وكما يقال : الناس من خوف الفقر فى الفقر ، ومن خوف الذل فى الذل ، كذلك يعيش بعض الناس من خوف الموت فى الموت .

* * *

والموت أقسى الدّواهى ، وهو إنهاء الحياة ، وهو فناء ، وما بعد الفناء فى علم الله ، ولكل حيٍّ عذرٌ فى أن يرْهبَه ويخشاه .

ولكن أين الاستسلام والتسليم لقضاء الله ؟ وهو سرٌّ احتفظ به الله ، وهو محجوبٌ فى أستار الغيب ، وليس ينفع حذرٌ من قَدَر ، وإذنْ فلا داعى للهلع ، ولا للتَّوَقِّى ، فليس ذلك بمطوِّل فى عمر ، ولا بمؤخر لأجل .

إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

* * *

فلا الحرب تقرِّب منه ، ولا التقاعُس ، أو الاعتصام فى بُرْج يُباعد عنه .

قلْ لو كنتم فى بيوتكم ، لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم .

أينما تكونوا يُدْرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة .

فإذا كان هذا كذلك ، فلِمَ خرج هؤلاء الناس ، ألوفا مؤلفة ، هاربين من بيوتهم ، تاركين وطنهم ، خائفين حذِرين من الموت أن يُدركهم ، وهم يظنون أنهم ناجون ؟ ويخيّل إليهم أنهم تركوه وراءهم ، وأنه سوف لا يدركهم ، ولكن قضاء الله أدركهم ، فقال لهم الله : موتوا .

إنما أمره إذا أراد شيئاً ، أن يقول له : كن ، فيكون ، فماتوا مِيتَةَ رجلٍ واحد ، فترةً من الزمان ، طال عمرها أم قصر ، ورآهم الناس أنهم ماتوا ، ولا أمل فى رجعتهم ، وقطعوا الرجاء فى حياتهم .

ثم أحياهم الله من جديد ، أعاد إليهم أرواحهم ، كما يستيقظون من نومهم .

وليس هذا بعزيز على قدرة الله . الله الذى يتوفَّى الأنفس ، حين موتها ، والتى لم تَمُتْ فى منامِها ، فيُمْسك التى قضى عليها الموت ، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسَمًّى .

* * *

وعيسى ، أخرج الموتى بإذن الله ، وفى مستشفى الولادة فى بولاق ، عادت الحياة ، إلى زوجة البواب ، بعد أن ماتت ساعات ، وهمُّوا بدفنها ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولـكن أكثر الناس لا يشكرون .

* * *

هذه واحدة ، ألَّا نَحْذَرَ الموت ، ولا نخشاه ، فهو فى غيب الله ، ولا ندرى متى يلقانا ، أو نلقاه .

وأخرى ، ألا نبخل على الله ، وأن نُقْرض الله ، فنقدِّم ما يرضاه ، قرضاً حسناً خالصاً لوجهه ، وفى سبيله ، لا نرجو به عِوَضا ، ولا نعلِّق عليه ثمنا ، كأننا نشترى به علو المنزلة ، أو سعة الرزق ، أو صكاً ندخل به الجنة .

* * *

وشتان ما بين قرضٍ حسن ، وقرضٍ بالربا والفـائدة ، من توقُّع نماء فى مال ، أو حُسْن سيرة ، أو زَهْوٍ ورياء .

وفضل هذا على ذاك ، أن الله وعد بمضاعفة الثواب ، أَضعافاً مضاعفة وهو القادر على أن يقبض يده ، ويمنع فضـله عن المرابين ، ويعم خيره على المحسنين .

إنْ تُقْرِضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعفْه لـكم ، ويغفر لـكم .

من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حَسَناً ، فيُضاعِفَه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبِض ويَبْسُط ، وإليه تُرجعون .

* * *

بهذه الأولى : ألا نحذَر الموت ، وبهذه الأخرى : ألا نبخل ، وأن نضحى فى سبيل الله ، قدَّم الله لقصَّة جماعة من بنى إسرائيل ، جُبناء أَشحَّاء .

ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل ، من بعد موسى ، إذ قالوا : لنبيٍّ لهم ، ابعثْ لنا مَلِكاً ، نُقاتلْ فى سبيل الله .

قال : هل عَسَيتُم إنْ كُتِب عليكم القتالُ ألا تُقاتلوا ؟

قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ؟ وقد أُخْرِجْنا من ديارِنا وأبنائِنا ؟

فلما كُتِب عليهم القتالُ ، تولَّوْا ، إلا قليلا منهم ، والله عليمٌ بالظالمين .

* * *

يا لَهُم ! ويا وَيْلَهُمْ ! بنو إسرائيل ، لا يُحسُّون بغضب الله ، إلا بعد أن يقعوا فِعْلًا فى غضب الله ! ولا يُدركون فضل الله ، إلا حين يُسْلَبُون فضلَ الله !

والله يوصى عباده ، أن يحفظوا عليهم نِعَمَه بطاعته وشكره ، ليزيدهم . ويحذِّرُهم كُفرانه وجحوده ، والتردِّى فى المعاصى ، حتى لا يسْلُبَهم .

لَئِنْ شكرتم ، لأَزيدنَّكم ، ولئن كفرتم ، إنَّ عذابى لشديد .

* * *

بنو إسرائيل ، كانوا قد حَبَاهم الله ، بركةً وقوة ، وعزْما شديداً ، وبأساً على أعدائهم ، ونصراً مؤَزَّراً فى حروبهم ، حين كانوا يُقدِّمون التابوت فى مقدمة جيوشهم .

ذلك التابوت ، صندوق فيه التَّوْراة ، كتاب الله الذى أنزله على موسى . وكانوا يقدسونه ، ويؤمنون به ، ويلتزمون شريعته ، ويتقون الله فى حدوده .

ومن يتَّق الله يجعلْ له مخرجا ، ومن يتَّق الله يجعلْ له من أمره يسراً .

فكانوا بالتابوت يسعدون ، وينتصرون ، ويغلبون ، ويرهبهم أعداؤهم ويفرون .

ولكنهم فسقوا وفسدوا ، وأغضبوا الله ، ونسوه فنسيهم ، وحملوا التابوت والتوراة ، وياليتهم ما حملوها ، كما نحمل المصاحف ولا نعمل بها ، ونتسمى بأسماء المسلمين على غير مسمًّى .

مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسْفاراً ، بئس مثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

* * *

وكان أن غلبهم عدوُّهم ، وقهرهم ، وسُلِبَ التابوت منهم ، ونُكِسُوا على رءوسهم ، فأصبحوا مغلوبين متفرقين . ، وطُرِدُوا من أوطانهم ، وسُلبتْ أموالهم وأبناؤهم .

وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟

* * *

فلما رأوا ما صار إليه أمرهم ، من تمزيق وحدتهم ، وتشتيت شملهم ، ونفيهم عن ديارهم ، عزَّ على العقلاء منهم . أن يصير هذا حالهم ومآلهم ، فذهبوا إلى نبيٍّ لهم ، ورجل صالحٍ حكيم فيهم ، وهو يُوشَعُ أو صمويل ، ولعلَّ صمويل كلمةٌ عِبرية تعريبها إسماعيل ويكون هذا من سُلالة سيدنا إسماعيل . وقالوا له : يا نبى الله جئناك لتختار لنا مَلِكاً ، يجمع كلمتنا ، ويوحِّد فُرقتنا

ويبعث العزم فينا ، ويقودنا لنسترد أوطاننا ، ونحرر أولادنا ، ونتخلص من مُحتلينا ، ونقاتل فى سبيل الله عدوّنا جالوت العملاق ، الذى طغى علينا ، وشردنا .

* * *

وقال لهم نبيُّهم : إنَّ الله قد بعث لكم طَالُوتَ مَلِكا .

قالوا : أنى يكون له الملكُ علينا ، ونحن أحقُّ بالمُلْك منه ، ولم يُؤْتَ سعةً من المال . قال : إنَّ الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم .

والله يُؤْتى مُلكه من يشاء ، والله واسع عليم .

هؤلاء القوم ، لا عهدَ لهم ، ولا وفاءَ فيهم ، ولا رضاءَ بمشورة ، ولا خضوعَ لحق . فقد استشاروا نبيهم فى أن يختار لهم مَلِكا ، فما بالهم يرفضون هذا الاختيار ؟ ومالهم يستكثرون أنْ يكون طالوت ، لأنهم أحقُّ منه ، ولأنه فقير ؟

وسواء أكان طالوت فقيرا ، أو سقَّاء ، أو راعىَ حمير ، أوْ لَيْسَ من سُلالات الملوك كما يدّعون ، فإن الله قد اصطفاه ، واختاره ملكا عليكم ، والله أعلم بالصالح منكم ، وقد علَّمه ربه ، ووسَّع فِكرَه ، وأنضج رأيه ، وزاده حُسْن بَصَرٍ بسياسة الدولة ، وعزما فى الدفاع عنها ، وبَسَطَ له فى بدنه ليكون أمْلأَ للعين ، وأرهب للقلوب ، وأوْقع فى النفوس ، وأقوى على الأعداء ، وأجْلَد على مكابدة الحروب .

وإن الله واسع الفضل ، يغنى الفقير ، ويُمَلِّكُ راعىَ الحمير ، ولو لم يكن دَمُه أزرق ، منحدرا من سلالات الملوك .

ذلك فضل الله ، والله يؤتى مُلكه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

وعادوا يسألون النبي صمويل ، وما آيةُ أنَّ الله اختاره واصطفاه ؟ فقال لهم نبيُّهم : إنَّ آية ملكه ، أن يأتيَكم التَّابوتُ فيه سَكِينةٌ من ربكم ، وبقيَّةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هٰرون ، تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآيةً لكم ، إنْ كنتم مؤمنين .

* * *

سَكِينَةٌ من ربكم ، فيه دِينٌ تسكنون إليه ، فتصلح أموركم به ، وتتجدَّد عزائمكم ، وتعود إليكم نَخْوتكم ، فتقوَوْن على عدوكم ، وتستردُّون بلادكم .

وبَقيَّةٌ مما ترك آل موسى وآل هرون ، هذه البقية من الدِّين ، قَدْرٌ ضئيل ، على قدر ما تُطيقون أن تتمسّكوا به ، فقد ضاقتْ صدوركم ، وصدِئَتْ نفوسكم ، فأصبحتم لا تقوَوْن على التمسّك بدقائق تعاليمه ، وكافَّة حدوده .

وفى التابوت عصا موسى ، وهى رَمزٌ للقوة والسَّطوة ، وثيابُه وهى رمزٌ لذكراه وعِمَامَتُهُ ، وهى رمزٌ لتاج دِينه .

وتحْمِله الملائكة إليكم ، لتحملوه فى صدوركم ، وتردُّه عليكم من جالوت الجبَّار ، الذى غلبكم عليه ، وخلَّفكم ضُعفاءَ أذِلاَّءَ من بعده .

* * *

ورَضَخُوا آخر الأمر ، لِمُلْك طالوت ، وانْضَووْا تحت رايته ، وملَّكوه

زمامهم وسلموا له فى أن يَختار جيشَه منهم ، وكان طالوتُ لا يختار إلا الشبان الأعْزَابَ الشِّداد ، ذَوِى الأخْلاق الطيبة ، والنَّزْعة الحارَّة ، والغَيْرَة والنخوة والفدائيين المغَاوِير ، واجتمع له من هؤلاء جُندٌ كثير ، آلاف وألوف .

* * *

فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنود ، وخرجوا إلى مفازات الصحراء ، عطشوا ، فسألوه الماء ، فسأل الله ، فقال الله يا طالوت ، قلْ لهم : إنى مُبْتَلِيكُمْ بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومَنْ لم يَطْعَمْه ، فإنه منى ، الا مَنِ اغْترف غُرْفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم .

* * *

وماذا يكون ، إذا شرب الجنود العِطاش ، من نهر وجدوه فى طريقهم ؟

وماذا يَبْغِى طالوت من تحريم ماء النهر على مُرِيدِيه المخلصين له ؟

إنَّ طالوت أحبَّ أن يلتمس فيهم الطاعة العمياء ، وهى أولى ضمانات النصر .

وأحبَّ أن يرى فيهم روح الصبر على المكاره ، وهذه عدة المحارب .

وأحب أن يتبين له الفدائى المخلص ، من الرخو المزعزع العقيدة .

وأحب أن يجعلهم يجابهون الشدائد ، تدريباً لهم على مجابهة العدو .

فمن صبر على الشدة ، وتقوَّى على النفس ، قوِىَ على الحرب ، وكُفِىَ عار التخاذل والتقهقر .

* * *

ورأى طالوت ألا يقسو ويعنُف عليهم فى التكليف ، وأن يكلهم إلى

أنفسهم ، ليعلم مقدار ما أُوتوا من ثقة فى النفس ، وعزةٍ فى الأخذ ، وعفةٍ فى التناول ، وزهادة فى الدنيا إذا أقبلت .

ولعله أراد لهم ألا يغرقوا فى الارتواء بعد لفْحة الحر ، وحُرقة الشمس ، وحَمْوة الجسم ، فتنطفىء النار فى أحشائهم ، فتنفصِم عُرَى أجسامهم ، وينِزّ عرقُهم ، وتبرُد حماستهم ، إلاَّ مَنِ اغترف غُرْفةً بيده ، فهذا القدر مسموح به لا يُؤاخَذُ عليه .

* * *

فشربوا منه ، إلا قليلا منهم .

هـذه القِلة المؤمنة المباركة ، ثلاثمائة ، وثلاثة عشر رجلا ، من هذه الآلاف المؤلفة ، قِلةٌ قليلة ، قنعت بحفْنةٍ من الماء ، فأرْواها الله ، وأبرد عطشهم وطَّب أرواحهم ، وكثرةٌ كثيرة ، فجَعَها الطمع ، فألْهب الله أمعاءهم ، وحرّق صدورهم ، وأقلق نفوسهم ، فما يرتوُون ، ولا يشبعون ، حتى لو شربوا النهر كله ، والشّبع شبع النفس ، واطمئنان القلب .

* * *

فلما جاوز النهر ، هو والذين آمنوا معه ، لم يصارح المضعضعين فى إيمانهم ، ولم يعلن غضبه عليهم ، ولـكنه سيَّرهم معه حَوَاشِىَ لجيشه ، وجموعا هشة ، يُرْهب بكثرتها أعداءه ، والـكثرة ترهب الشجاعة .

* * *

فلما رأى هؤلاء الجبناء ، جيوش جالوت المجيَّشة ، كشفوا عن أنفسهم ، وأعلنوا عن جبنهم وخَوَرهم ، وقالوا : لا طاقة لنـا اليومَ بِجَالُوت وجنـوده .

وتقاعسوا وتخاذلوا ، وكاد الرعب يقتلهم ، والخوف من الموت يميتهم : وهموا بالتراجع والانسحاب ، وتلك أخطر الخطر على المحاربين .

والجيش كالبنيان ، إذا انهار منه جانب ، تصدع كله ، وتهدد بالدكدكة والخراب.

* * *

وتبدّى المؤمنون المخلصون ، لهؤلاء الكثيرين المائعين ، يشجعونهم ، ويقوّون روحهم ، ويبثّون الحماسة فيهم ، ويقولون لهم : لا تخافوا ولا تتخاذلوا ، فنحن سنغلبهم بإيماننا بحقنا ، ودفاعنا عن أوطاننا ، واعتمادنا على ربنا .

قال الذين يظنون أنهم مُلاقو الله ، كم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وسألوا ربهم ، أن يهب لهم الصبر على المجالدة ، وتثبيت الأقدام فى المقاتلة ، وأن يهيء لهم أسباب النصر بمدد ومعونة من عنده .

ولما برزوا لجالُوت وجنوده ، قالوا ربنَّا أفرغ علينا صبرا ، وثبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

* * *

ودارت رحى الحرب ، على الطريقة البُدائية ، فتقدَّم جالوت ، معتمدا على قوته ، وطلب المنازلة والمبارزة ، وكلما خرج إليه فارس ، جَنْدَله ، وأرداه قتيلا . أو أرجعه جريحا .

وبنو إسرائيل ، مرعوبون واجمون من جالوت ، فإما أن ينازلوه ، وهم يضِنُّون بأرواحهم ، وإما أن يفروا من وجهه هاربين .

وجالوت يُطيح بسيفه الرؤوس ، ويذبّح كما تُذبح الأغنام ، ويُسيل الدماء ، وبنو إسرائيل ، قد ساخت نفوسهم ، وانخلعت قلوبهم من هول جالوت .

* * *

وفى مثل هذه الأوقات العصيبة ، التى ينشر اليأس فيها خيامه ، يبعث الله الفرج واليُسر ، فتنفرج الصفوف عن شابٍ جرىء ، فِدائىٍ ، يقذف بنفسه ، ليُبارز جالوت .

وطبيعةُ الجبناء الحَذَر ، فيخافون على هذا الشاب ، أن يقتله جالوت ، فيحجزونه حَذَرًا عليه ، وضنًّا به أن يروح ضحية هذا العملاق ، ويقدمونه لطالوت ، لعله يُهَدِّئ ثورته ، ويُبرد حماسته .

ولكنَّ طالوت ، انشرح له ، ودعا له ، وبارك عليه ، ونفخ فيه من روحه ، وزوَّده بسلاح وتوَّجه بخوذة الحرب ، وبِمنْطَقةِ الفرسان شدَّها على خصره ، وبالسيف البتّار ، سلَّمه إليه بيده ، ووعده : إنْ هو قتل هذا المارد ، أن يزوِّجه ابنته ، ويجعله ولىَّ عهده فى مملكته .

* * *

ولكن هذا الشاب ، يعتقد أن كل هذا ليس عدَّةَ الحرب ، وإنما عُدّته العزيمة والهمة ، والحرارة فى الدم والإقدام والجرأة على العدو ، والفِدائية العارمة ، وسواء لدى الفارس ، أبالسيف قطع ، أم بالرمح ضرب ، أم بالحجر قذف ، أم بالعصا لوَّح .

* * *

وكذلك كان هذا الفارس ، فقد طرح عن نفسه الخوذة والمنطقة والسيف والدِّرع ، ورجع إلى قوْســه وسهمه ، ومِقْلاعه وحَجَرِه ، فنفض كنانته ، وركَّب حجرا مَسْنوناً فى مِقْلاعه ، وصوَّب وسدَّد ، ورمى ، فأصاب المقتل من عدوه العملاق جالوت . فخر صريعا كما يخر جَمَل ، أو ينهار جانبٌ من جَبَل .

وقتل داودُ جالوت .

داود

وذهب الرّوع عن القوم ، وزال كابوس العِملاق ، وانتصر هؤلاء ، وانكسر هؤلاء ، وأَقبل طالوتُ على داود ، يضمه إليه ، ويبارك عليه ، ويُتوِّجه بتاج النصر ، ويزوِّجه بنته ، ويجعله خليفةً على الملك من بعده .

ولمع اسم داود . وسطع نجمه ، وتعلق الشعب به ، والتفُّوا حوله ، وتنادَوْا بزعامته ، وأصبح مِلْءَ أسماع الناس وأبصارهم ، وهم عن طالوت منصرفون .

* * *

وعَمِلَتْ نظرية تنازع البقاء عَمَلَها ، وغريزةُ الغيرةِ ، تُطفِىءُ أضواءَ الحب وعينُ الحسد ، ترمى بالشرر كلَّ ذى نعمة .

كان ذلك بين الملك طالوت ، وبين داود زوج ابنته ، وولى عهده ، وقاتل عدوه ، ومُنقذ شعبه !

والملكُ بأبَّهته وصَوْلته ، يخشى داود أن يخلعه من عرشه ، وأن يُوارِيه ، ويُرْخِى الأستار عليه .

فسوَّلت لطالوتَ نفسُه ، أن يقذف بداود ، فى ميدان حربٍ جديد ، لعل حظه يخونه ، فلا يعود ؛ فبعثه إلى قبائل كنعان ، الغلاظ الشداد .

وذهب إليهم داود ، وبدأهم بالحرب ، وأعْمل فيهم السيف والضرب ، وردَّهم على أعقابهم ، وأمَّن الدولة من أخطارهم ، وعاد إلى طالوت ، يحمل أعلام النصر .

وما كان يَوَدُّ طالوت ، أن يعود داود ، وقد أعاد مجداً إلى مجد ، فعظم في أعين القوم ، وأسَرَ قلوبهم ، واستحوذ على مشاعرهم ، ورشَّحوه للمُلك عليهم .

* * *

ويزداد داود تمكيناً وتعزيزاً ، ويزيده الله عِلماً ونوراً ، وحكمةً وتدبيراً ، وهيبةً وجلالا ، حتى تأجَّجت نارُ الغيرة فى صدر حَمِيه طالوت ، فلا وُدَّ ولا محبَّة ولا صداقةَ ولا صبرَ على البقاء معه ، فأيُّهما لا بد أن يختفِي .

وما تَهُونُ على طالوت نفسه أن تختفى ، وأن يترك مُلكه لشابٍّ مهما كان زوجاً لابنته ، ومهما كان زعيماً فى أمته ، فنفسُه ومُلكه قبلَ الزعامةِ والمصاهرة ، ومِنْ بعدِه الطوفان .

ولم يبق إلا الغَدْرُ والخيانة ، ووسوسةُ إبليس ، تخيِّم على قلب الرجل الصالح طالوت ، فأْتمَر بداود ، وأرْهف سيفَه ، وخرج فى جماعةٍ من الحمْقَى حوله ، إلى الخلاء يفكرون ويُدبِّرون .

* * *

وعينُ العناية الإلٰهية ، لا تأخُذها سِنَةٌ ولا نوم ، ونفْسُ داود صافيةٌ طاهرة ، تُحِسُّ وتعلم ، ويُلْهمها الله فتُلْهَم ، ويدرك أن القلوب تصدَّعتْ ، وأن حبالَ الوُد تقطعتْ ، وأن ثعابين الغَيْرة شالَتْ رأسَها وفَحتْ ، وأن القوم فى طلَبِه يفكرون ويدبِّرون .

* * *

فاتجه إلى الله يستعينه ، ويسأله الرعاية ، وأن يعينه على الغادرين ، فألقى الله عليهم النوم ، فراحوا وهم فى مجلسهم فى سُباتٍ عميق .

ومرَّ بهم داود ، فاستلَّ منهم سيوفهم وحرابهم ، وتولى عنهم ، وما ردَّه عن قتلهم إلا إيمانه وخوفهُ من الله .

* * *

وأرسل إليهم سيوفهم ، وأوْضح فضلَه وعفوَه عنهم ، وأنه وَهَبَ لهم حياتهم . فاعترفوا بذنبهم ، واستغفروا ربَّهم ، وتخلَّوْا له عن مُلْكِهم ، وارتضوه ملكاً عليهم .

وآتاه الله المُلك والحكمة ، وعلَّمه مما يشاء .

ولقد آتينا داود منَّا فضلاً ، يا جبال أوِّبِي معه ، والطيرَ ، وألَنَّا له الحديد ، أنْ اعمَلْ سابِغَاتٍ ، وقدِّرْ فى السَّرْدِ ، واعْمَلوا صالحاً ، إنِّى بما تعملون عليم . وسخَّرنا الجبالَ معه يُسَبِّحْن والطيرَ ، وعلَّمْناه صنعة لَبُوسٍ لكم ، لتُحْصِنَكُم من بَأْسِكُم . وآتينا داود زَبُوراً . ووهبنا لداود سليمان ، نِعْم العبدُ إنَّه أوَّاب .

* * *

نِعَمٌ كثيرة ، فالجبال تُؤَوِّبُ معه ، وتردِّدُ تسبيحه لله ، كلما رأى قدرة الله فيها ، وكلما اقشعرَّ بدنُه من جَبَرُوتِ الله ، وأغْرقَ فى تأمُّلاته ، وسَبَحَ فى رَهَبُوتِ ربِّ العالمين . وكلما سَرَحَ بفكره ، كيف نصَبَ الله هذه الجبالَ وأرساها ، وجعلها أوتاداً فى الأرض ، وأسْكن فيها العقْبان والصقور والنسور

وهيأها مكامِنَ للوحوش ، ومغاوِر للعُبَّاد ، ومحاريب للزهاد . ومن ورائها تبرز الشمس ، ومن بين يديها يزهو القمر ، وعلى قممها تَتَسمَّر النجوم فى صفحة السماء ، والجبالُ تردُّ صدى صوته كلما جأر بذكر الله ، فهى تؤوِّب معه ، وتُسْمِعُه نفسَه ، فهى تصلِّى معه ، وتشاركه فى تسبيحه .

* * *

والطيرُ تحاكى صوته ، وتُنْشِد ترانيمه ، وتُلحِّن مزاميره ، وتؤنسه فى محرابه وتحط على بابه ، كأنها من حُجَّابه ، نَشْوَانَةٌ فى صحبته ، أليفةٌ فى وُدِّه ومحبته .

والجبال تبوح لداود بسرِّ كنوزها ، وتبذل له من معادنها ، والطير تأتيه بأحْطابها ، فيوقد النار ، ويَصْهَر المعدن ، ويصنع الدروع ، وألبِسة الحرب .

صنعةٌ علَّمه اللهُ إياها ، وأغناه منها ، وفضَّله بها ، وجعلها حصْناً للناس ، من بَأس الناس ، وياليتهم يشكرون !

وعلَّمناه صنعة لَبُوسٍ لكم لتُحصِنكم من بَأْسِكم ، فهل أنتم شاكرون ؟

* * *

وأنزل عليه ترانيم ، يُلحِّنها بمزماره ، فتُطْرِبُ القوم ، وتُلِين ما جَمَدَ من قلوبهم ، وتُسيل ما جفَّ من عواطفهم ، وترقِّق ما غلُظ من طباعهم ، فَيَسْتَمِيلهم إلى دينه .

وكانت مزامير داود ، أقْبَاساً من نور ، وألْحاناً من هِداية ، وأشعَّةً من معرفة ، وكانت كتابَ الله إليه ، ونعمتَه عليه ، ومنهجَه فى هداية قومه .

* * *

ووهب الله لداود أولاداً ، وكانوا كثيرين ، وجمَّع الله كل ما يُوحى

منهم من خير ، فى ولده سليمان ، فكان نبياً ورسولا ، ومَلِكاً كريماً ..
نِعْم العبد من عباد الله الصالحين .

نِعَمُ الإله على العباد كثيرة وأجلّهنّ نجَابَةُ الأولاد

ووهب الله لداود القوة القوية التى صرع بها جالوت ، وحلَّ بها أعزَّ منزلة فى قلب حَمِيه طالوت ، ووهب له العِصْمة فحفظته أن يَزِلَّ أو يثور على مَن ائتمروا به ، بقيادة طالوت . ووهب له السَّماحة ، وحب السَّلام ، والعفو الأبيض ، فأعاد إليهم السلاح الذى أعدُّوه لقتله .

* * *

أَوَكُلُّ هذا يا داود ، وتميلُ نفسُك ، وتمتدُّ عينُك ، إلى فتاةٍ فاتنةٍ ، مخطوبة لشابٍ مجاهد محارب ، غائبٍ فى الميدان ، فتخطُبُها إلى أهلها ، فيتورَّطون معَك ، ويزوِّجونها منك ، وتسعد بها ، ويشقَى خطيبُها ويُهلِك نفسه ، ويكظم غيظه ، ويسأل الله فيك ، ويستعْدِيه عليك .

ويبعث الله اثنين من ملائكته ، فى صورة أخوينْ مختصِمين ، ويتسوَّران عليك مِحْرابَك يختَصِمَان إليك ، ويَعْرِضان قضيتَّهما عليك ، فتستَبْشِع التَّعدِّى ، وتحكم على المعتدى ، وتهُمُّ بالقصاصِ منه ، فيرُدُّ عليك القضية ، ويُجَسِّم لك الخطيئة ، ثم تلتفت فلا تراهما ، فيرجُفُ فؤادك ويهتزُّ بالقُشَعْرِيرَةِ جسْمُك ، وتؤوبُ إلى ربك ، وتستغفر من ذنبك وتتوب ، فيتوب الله عليك !

واذكرْ عبدَنا داود ، ذَا الأَيْدِ والقوّة ، إنه أوَّاب ، إنا سخَّرنا

الجبالَ معه يسبِّحْن بالعَشيِّ والإشْراق ، والطيرَ محشورةً ، كلٌّ له أوَّاب ، وشدَدْنا مُلْكَه ، وآتيْناه الحِكمةَ وَفَصْلَ الخِطَاب .

وهل أَتَاكَ نبأُ الخصْمِ ، إذْ تَسَوَّرُوا المحراب ، إذْ دخلوا على داود ، ففَزِعَ منهم ، قالوا : لا تخف ، خَصْمَانِ ، بَغَى بعضُنَا على بعضٍ ، فاحْكُمْ بيننا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ ، واهْدِنا سَواءَ الصِّراطِ ، إنَّ هذا أخِي ، له تِسْعٌ وتسعون نعجةً ، وَلِيَ نعْجةٌ واحدة ، فقال : أَكْفِلْنِيهَا ، وعزَّنِي في الخطاب !

قال داود : لقد ظَلَمَكَ ، بسؤال نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِه ، وإنَّ كثيراً من الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بعضُهم على بعض .

* * *

يا لُطْفَ الله ، تُؤَدِّبُ الأنبياء ، وتُرَبِّي الأوْلياء ، وتأخُذُ الأقوياء ، وتَنْتَصِفُ منهم للضعفاء !

حتى أنتَ يا نبيَّ الله داود ، يا مَنْ مَكَّن الله لك في الأَرض والسماء ، ورفعك منزلةً علياء ، حتى أنتَ لا تنجو من القضاء ، ولا تَمْرُق بهَفْوَةٍ إلاَّ بعتابٍ وجَزَاء ؟ !

* * *

وأيْن نحنُ مِنْ هؤلاء الأنبياء ؟ لنا هَفْوَةٌ وهَفَوَات ، وخَطَايَا وسَيِّئات ، وجُحُودٌ وكُفْران ، وفُسُوقٌ وعِصْيان ، وتُحْصِي علينا ملائكةُ الدَّيَّان ، ونحن في جُرأةٍ جريئةٍ نقول يا رحيمُ يا رحمٰن .

* * *

ويقول ربنا سبحانه : فغفرنا له ذلك ، وإنَّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب . ولكنْ بعد أن استغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب .

* * *

وحكومةٌ أُخْرى يا داود تُعْرَضُ عليك ، تلك القضيةُ التى عُرِضَت عليك وعلى ولدِك سليمان ، وكنتما قاضيَيْن مجتمعين . وقضَيْتُما بحكمَيْن مختلفين ، فأىٌّ منكما أخطأ ، وأىٌّ أصاب ؟ أم كنتما على حقٍّ وهدى فيما تحكمان ، وإنما لكلٍّ منكما نظرٌ وشان .

* * *

وداود وسليمان ، إذْ يحكمان فى الحرث ، إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ففهَّمناها سليمان ، وكلاًّ آتينا حُكماً وعِلْماً .

* * *

المدَّعِى بالحق فى القضية ، جماعةٌ لهم حدائقُ من أعناب .

والمدعَى عليهم بالخسارة والتعويض ، ناسٌ لهم أغنام ، تركوها من غير حُرَّاس ولا رِعَاء ، فنزلَتْ فى الحدائق ، فأكلتْ منها ، وأتْلفتْ ثمرَها .

واحتكم المدَّعون ، والمدَّعى عليهم ، إلى محكمةِ داود وسليمان .

فقضى داود ، بتسليم الأغنام لصاحب الحديقة ، تعويضاً للتلف ، قضاء بشريعة يعقوب أبى يوسف المُتْلِفُ يُؤخَذ بما أَتلف : جزاؤه : مَنْ وُجِدَ فى رَحْلِه ، فهُو جزَاؤه .

وقضى سليمان ، بأن تُسلَّمَ الأغنام إلى أصحاب الحديقة ، ينتفِعُون

بألبانِها وأولادِهَا وأشعارها ، وأن تُسلم الحديقة إلى أصحاب الغنم ، يَرُمُّونَها ، ويتعهَّدونها حتى تعود إلى ما كانتْ ، ثم يترادَّانِ ، فيتسلَّمُ كلٌّ صاحبِ حاجةٍ حاجتَه .

على مبدأ : من أتلف شيئاً فعليه إصلاحه .

فأيكُّما كان أعْدل ؟ وأيكما كان أرْحم ؟

ففهّمناها سليمان ، وكلاًّ آتينا حُكماً وعِلْما .

سليمان

وَوَرِثَ سليمان داود . وَرِثَ مُلْكَ أبيه ، ومقامه فى النبوة ، وقضاءه فى الناس ، وعلّمه الله لغة الطير ، والنمل ، وسخر له الريح تجرى بأمره ، وتنقله بكرسيه فى لمحة ، غُدُوُّها شهر ، وَرَوَاحُها شهر ، واستعبد الله له الجنَّ تخدمه ، والشياطين تغُوص له البحار ، وتستخرج له نفائسها ، وتبنى له القصور ، وتخترع له الصنائع الحربية ، وفجَّر الله له بركاناً ، يسيل منه النحاس المصهور ، فتبنى له الجن قصوراً ، وتصُبُّ له تماثيل للأسود والصقور والنسور ، تزيِّن بها عرشه ، وقوائم كرسيه . وتصنع له صِحَافا كبيرة ، وأطباقاً صغيرة كأطباقنا وقواربنا ، وجِفَاناً كبيرة متسعة كالأحواض ، وقُدُوراً واسعة ، لا يمكن إنزالها عن كوانينها وأثافِيّها .

واتسع عليه مُلكه ، وتوفرت لديه مظاهر أبهته ، حتى الخيل الصافنات الجياد ، كانت تعرض عليه ، ليُمتِّع نفسه باستعراضها ، ويُشبع هُوايته بالمسْح عليها ، والإعجاب بالأصائل المُعْرِقة منها ، حتى ألْهاه تكاثُرها ، وزَهَتْه زينتها ، فقضى اليوم كله فى الاحتفال بها ومرور موكبها بين يديه حتى غابت الشمس ، ولم يُقِمْ الصلاة ، ولم يفرغْ لذكر الله ، وشغلتْه غزارة الخير ، واجْتِرارُ النعيم ، ولذة الاقتناء ، عن ذكر ربه ، حتى انقضى النهار ، ودخل الليل .

فلما أفاق ، ندم ، وخشى غضب الله ، وتوقَّع ما يكون من غضب الله ، فثار على الخيل التى ألْهته ، وهمَّ أن يضرب أعناقها .

ولكن ما ذنبُ الخيل والذنب ذنبه ؟ وما جريرتُها ، وهى من عَطاء ربِّه ؟ فتاب وأناب ، وقال : رُدُّوها علىَّ ، وطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوق والأعناق .

وفى المسْح عليها ، استِرْواحٌ للنفس ، واستشْعارٌ بالعطاء .

ومَثَلُ المسْحِ عليها بيد الحنان والرضا ، بعد أن كان سيضرب أعناقها وهو غاضب عليها ، كَمثَلِ المسْحِ على رأسِ اليتيم ، استجْلاباً لرِضا الله .

* * *

كل هذا المُلْك ، وهبه الله لسليمان ، فما كان يشغله عن ذكر الله ، ولئن شغله ، فلقد كان أسرع إلى الأوْبة والتوبة إلى ربه ، يسأله الصفح والغفران .

سليمان ، نعم العبد ، إنه أوَّاب .

وكان أبوه النبى داود عليه السلام ، قد بدأ يبنى ، مدينة أورشليم ، فى الموضع الذى ضرب فيه موسى خيامه ، يوم حطَّ فى الأرض المباركة ، ولكن المنية أعجلتْ داود . فما أتم ، فليُتِمَّ سليمان ما بدأ أبوه .

فسخَّر الإنس والجن والطير ، وكلَّ ما يملِك من عَتَادٍ ، حتى النحاس المصهور ، والشياطين ، كلَّ بنَّاء وغوَّاص ، ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعمَلون عملاً دون ذلك .

* * *

ومن الشياطين فريقُ المرَدَة ، ميَّالون للشر ، نزاعون للضُرِّ ، فإنْ انطلقوا ، عاثُوا فى الأرض ، وأفسدوا المعاش ، وهتكوا الأستار ، ونغَّصُوا على الناس ، بطَلَاسِمِهم وسحْرِهم ، فبلبلوا خواطر خلق الله ، حتى كاد يصدِّق كثيرٌ ، أن لهم أمراً من دون الله .

واتَّبعوا ما تَتْلُو الشياطينُ على مُلْكِ سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكنَّ الشياطين كفروا ، يُعلِّمون الناسَ السِّحرَ ، وما أُنزل على الملَكَيْن ببابل ، هَاروتَ ومَارُوتَ ، وما يُعلِّمان مِنْ أَحَدٍ ، حتى يقولا : إنما نحن فتنةٌ ، فلا تكفُرْ .

فيتعلمون منهما ما يفرِّقون به بين المرء وزَوْجِه ، وما هم بِضارِّين به مِنْ أَحَدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم .

* * *

عصر سليمان كلُّه خوارق ، وأحداث ، ومُعجزات ، وعجائب .

جنٌّ تخدم ، ورياحٌ تسرى ، وطيرٌ تتكلم ، ونملٌ تعترض ، وسِحْرٌ وسَحَرة ، وجنٌّ مَرَدةٌ كَفَرة ، ونحاسٌ ذائب ، واطِّلاعٌ على أخبار الغائب ، ونبىٌّ مَلِكٌ على بِساطِ الريح ، وطيرٌ تَفْرِدُ أجنحتَها عليه .

فى هذه الهيئة ، وهذه القوى المُسخَّرة المُسيَّرة ، عاش سليمان .

* * *

وحُشِرَ لسليمان جنودُه من الجنِّ والإِنْسِ والطيرِ ، فهم يُوزَعُونَ ، وبأَمْره يَأْتَمِرون ، وفى حَشْدِه يسيرون .

حتى إذا أتَوْا على وادى النَّمل ، ووادِيهم بالشام ، تـكثر فيه النِّمال ، وكما للنَّحل يَعْسُوب ، فللنَّمل يَعْسُوب ، مَلِـكَةٌ عليه ، تدبر أمره ، وتدفع الخطر عنه ، وتبصِّره وتحذِّره .

ورأتْ مَلِـكَةُ النمل ، جيوش سليمان ، قادمة ، فخافتْ أن تدوس الجيوشُ رعاياها من النمل ، وهم لا يشعرون .

فصاحتْ فيهم : يأيُّها النمل : ادخلوا مساكنكم وجُحوركم حتى لا يُحَطِّمَكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون .

وسليمان يفهم لغة كل حَيّ ، فسمعها ، وسرَّه أن يعرف لغتها ، وحِرصَها على رعيَّتِها وحَسِبَ ذلك تعليما له فى الحِرْص على رعيّته ، وطلب من الله أن يُوفقه إلى شكر نعمته ، التى أنعمها عليه وعلى والديه ، وأن يعمل الصالحات التى ترضيه ، وأن يدخله الجنة برحمته مع عباده الصالحين .

* * *

وتَفَقَّدَ الطير ، فقال : مالِىَ لا أرى الهُدهد ؟ أمْ كان من الغائبين ؟

لأعذِّبنَّه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنَّه ، أو ليأْتِيَنِّى بسلطانٍ مبين .

ولم يَطُلْ غياب الهدهد ، حتى جاء يحمل خبراً ، أىَّ خبر ، متحدِّياً سليمان فى مُلْكه وقوّته ، وسطوته على الجن والإنس والطير .

ويقرِّر الهدهد : أنَّ الله سبحانه ، يَهَب عِلمه لمَنْ يشاء ، وقد يتخَطَّى به الأنبياء ، ويَمُنّ به على الطيور الخرساء .

فقال : أحَطتُ بما لم تُحِطْ به ، وجِئْتُك من سبإٍ بنبإٍ يقين .

* * *

سبأ فى اليمن ، ونحن يا هدهد فى الشام ، فكيف وصلت ؟ وكيف عُدْت ؟ وأىّ ريحٍ حملتكْ ؟ .

إنها قدرةُ الله يا سليمان ، ولقد وجدْتُ القوم هناك ، تمْلِكهم امرأة ، بِلْقيسُ مَلِكَةُ سبأ .

ويا سليمان . لقد رأيتُ عجباً ، رأيت القوم يعبدون الشمس ، ويسجدون لها من دون الله ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون .

يا ليت هؤلاء القوم يتدبَّرون ويتفكرون فى خلق الله ، الذى يُخرج الخبْءَ فى السموات والأرض ، ويعلم ما يُخْفُون وما يُعْلنون ، اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ الكريم .

يا ليتهم يا سليمان ، يجدون هادِياً يهديهم ، ويزكِّيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة ! .

يا ليتك يا سليمان ، تدعوهم إلى الله ، وتُنْقِذهم من حَمْأةِ الشِّرك والضلال ! يا ليتك ! .

وعجب سليمان للهدهد ، يغيب ويغْدو إلى اليمن ، ويرى الناس ، ويتفهم أحوالهم ، ويعلم دينهم ، ويُدرك ضلالتهم ، ثم يعود فيشرح ما يرى ، ويتمنى على نبى الله ، أن يَنْشَطَ ويهدى خلقَ الله !

ويستكثر سليمان على الهدهد ، أن يدرس حال أهل سبأ فى لمحةٍ من زمن ، ويستبعد أن يكون ذلك من طير ، ومن هدهد ، كان منذ لحظةٍ يتوعَّده

بالعذاب ، ورأى فى هذا ، قدرةَ الله ، وأنها فوقَ كل قدرة ، وأنَّ فضلَ الله ليس مقصوراً على الأنبياء .

وخشع ، وخرَّ ساجداً ، وقال للهدهد : سننظر : أصدقتَ ، أم كنت من الكاذبين .

اذهبْ بكتابى هذا فألْقِهِ إليهم ، ثم تولَّ عنهم ، وتَوَارَ ، بحيث تراهم ، ولا يرونَك ، فانظرْ ماذا يَرجعون ، وبأىٍّ صورةٍ سيردُّون .

وطار الهدهد بكتاب سليمان ، وألقى الخطاب فى حجر الملكة ، فلما قرأته ، جمَعَتْ القوم ، وعرضتْه عليهم ، وقالتْ : إنى أُلْقِيَ إلىَّ كتابٌ كريم ، إنَّه من سليمان النبى المَلِك ، وإنه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعْلُوا علىَّ ، وأْتُونى مسلمين .

يا قومى ، ماذا ترون فى هذا الإنذار ، وبماذا تشيرون علىَّ أنْ أعمل ؟ فإن الرأىَ شورَى ، وهذه مسألةٌ خطيرة تمسُّ ديننا وحريتنا ، واستقلال وطننا .

وألْمَعَتْ بلقيس وهى تعرض خطاب سليمان ، إلى ما فيه من تهديد ووعيد .

ولَمَّحتْ إلى ما يدَّخره الوطن فى رجاله وشبابه لدفْع خطر الغزْو ، وشبَحِ الاستعباد .

ولوَّحتْ بما يُثير حماستهم ونخْوتهم وغيْرتهم على بلادهم .

قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأْسٍ شديد ، ونحن على أُهْبة الاستعداد والتعْبئة والأمرُ إليك ، فانظرى وقدِّرى ، ونحن طَوْعُ أمرك ، ورَهْنُ إشارتك .

والنساء ، أفتكُ أسلحتهن الدَّهاء . فقالتْ . مهلا يا قوم ، فالرأى عندى أن نستخدم الحيلة ، حتى نكشف سرَّه ، ونَسْبُر غَوْرَه ، ونقدِّر مَدَى تحمّسِه لرأيه ، وتمسُّكِه بتهديده ، فإن الملوك يا قوم ، إذا دخلوا قريةً أفسدوها ، واستباحوها ، وكسروا شوْكتها ، وجعلوا أعزةَ أهلِها أذلَّة .

وهم لا بدَّ فاعلون ، وما غُزِىَ قومٌ فى عُقْرِ دارهم إلَّا ذلُّوا .

والرأىُ أن نُرسل إليهم بهدية ، لنرى ماذا سيردُّون علينا .

* * *

وماذا تكون الهدية ؟ لمثل هذا النبي الملك ؟ الذى يبعث تهديدَه فى مِنقار هدهد ؟ لا بدَّ أن تكون أغلى ما فى خزائن الدولة ، من نفائس وجواهر ولآلئ ، ولا بدَّ أن تكون سيوفاً يمانية ، وحِراباً سبائية ، على خيلٍ مطهمة ، يقودها فرسان وغلمان !

والهدهد يتسمَّع ويترقَّب ، حتى إذا تحرك مَوكِبِ الهدية ، انفلت وطار ، وسبق الريحَ إلى سليمان .

وانقضتْ فترةٌ من زمان ، حتى وصل الركب على باب سليمان ، فلما دخل عليه ، وألْقى بالهدايا بين يديه ، نظر إليها سليمان نظر العفيف الذى أغناه ربه أغنى نفسه بالتعلق بالله ، وأغنى خزائنه بوافر المال . واستهان بتفكير القوم ، واستبشع دهاء هذه الملكة ، فهى تود أن تشترى ذمته ، وتستلين عزمته ، وتشبع عاطفة الاستحواذ فيه .

فتأبى عليها ، وازدرى مالها ، وأنها مهما أغدقت عليه ، فإن ذلك لا يصرفه عن تشبثه بإسلامها ، وإسلام قومها ، فهذه مهمته ، وذلك واجبه .

وقال : أتمِدُّوننى بمال ؟ فما أتانى الله خيرٌ مما أتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . فرح الصبيان باللعب والهدايا .

خذ يا رسولها ، خيلك وجواهرك ومالك ، وارجعْ إلى مملكتك ودولتك ، وأنذرهم أننا فهمنا حيلتهم ومكرهم ، وأنهم مصرُّون على دينهم ، وأنهم بالهدايا ، يحسَبون أننا نسكت عنهم .

فلنأْتِينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها ، ولنُخرجنَّهم منها أذِلَّة وهم صاغرون .

وعاد رسولها إليها ، والهدهد فى جو السماء يطير من فوق رأسه ، وسمع الملكة ، وسمع ما قررتْ العزم عليه ، وقدَّروا أنهم لا يقوَوْن على سليمان ، وأن أقرب طريق إلى الأمن والسلامة ، الطاعة والتسليم .

* * *

وعاد الهدهد إلى سليمان ، فأخبر : إنهم فى طريقهم إليك .

* * *

وسأل سليمان الجن : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن ، أنا آتيك به قبل أن تقوم واقفاً من مجلسك ، فقد منحنى ربى من القوة ، أن آتيك به ، وإنى عليه لقوىٌّ أمين .

وتصدّى له أخٌ عفريت ، أقدر منه ، فقد استمد قدرته من الله ، ومن سرّ كتابَ الله ، ومِنْ دعائه ربه باسمه الأعظم ، فهو مَدَدٌ ، يهون بجانبه كل مدد ..

ومن أجل هذا ، أشاع الله اسمه الأعظم بين سائر أسمائه التسعة والتسعين . حتى ندعوه بأسمائه كلها ، لا ندرى أيها الأعظم ، كليلة القدر مشاعٌ بين ليالى الزمان .

وقال العفريت يا سليمان ، أنا أستطيع أن آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها .

قال الذى عنده علمٌ من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

فلما آنس منه هذه المقدرة ، ورآه مستقِراً عند كلامه ، يقول ويفعل وينفذ ، قال سليمان : هذا من فضل ربى ، ليختبرنى ويبلوَنى ، أأشكر ، أم أكفر ؟

ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر ، فإن ربى غنى كريم .

* * *

وقال سليمان للجن : نكِّروا لها عرشها ، وغيِّروا فى معالمه تغييراً خفيفاً ، وموِّهُوا فى ألوانه تمويها لطيفا ، لننظر تدبيرها ، ونختبر ذكاءها ، ونحكم على تصرفاتها إن كانت ستهتدى وتعرفه ، أم تكون من الذين لا يهتدون .

* * *

ولماذا فكَّر سليمان فى امتحانها ؟ هل سمع كلاماً عنها ؟ أم افترى بعض الجن عليها ؟ فقبَّحوها ، ونسبوا إليها ما هى بريئة منه ؟

* * *

لقد أبلغه بعض المفترين من الجن أنها مريضة بداء العناد والكِبْر ، وأنها تُصِرُّ على رأيها وتكابر فيه . ومن أجل هذا ، جعل كتابه إليها

يحمل فى طياته التهديد والإنذار . وادَّعَوْا عليها ، أنها ليست امرأة ، ففى ساقيها شعر ، كشعر الرجال . فأحب أن يكشف سرها .

وجاءوه بعرشها ، ونكَّروه ، ووضعوه فى مدخل المكان ، وفى صدره جلس سليمان على عرشه .

فلما جاءت ، سلّمت ، وهمّت أن تجلس ، قيل لها : أهكذا عرشك ؟ فتأملته وتبينته ، وفى هدوء قالت : كأنه عرشى ، وفى نفسها عجبٌ عجيب ، أىّ قوة أتت بعرشى من سبأ إلى هنا ؟ وإن هذا لا يكون إلا بمعجزة ، والمعجزات لا تظهر إلا على يد نبى .

وإن سليمان بهذا لا بد أن يكون نبياً ، فوق أنه مَلِكٌ قوى . فقال سليمان متحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل أن نعلم هذا ، وكنا مسلمين مؤمنين بما علمنا من قدرة الله .

* * *

وأحب سليمان أن يختبر عنادها وكبرياءها ، وأن يكشف سر ما أشاعوه فى تنكرها ، وما قبَّحوها من عيوب فى خِلْقتها ، وشعرٍ فى جثتها .

فأمر الجن فحفروا نهراً أمام عرشه ، وأجرَوا فيه الماء ، وأطلقوا فيه السمك ، مختلف الأحجام والألوان ، وغطَّوْا هذا النهر بزجاج ، يشف عما تحته .

ثم أدخلوها على سليمان ، فرأت النهر بينها وبينه ، فحسبتْه لُجَّة ، وماء عميقا ، وهى لا بد داخلة عليه ، حتى لو عبرت وخاضت البحر إليه ، حتى تنفى عن نفسها تهمة الإصرار والاستكبار .

وهى لابد تخوض الماء ، ولابد ترفع ثوبها قليلا قليلا ، فكشفتْ عن ساقها .

وكثيرٌ على مَلِكةٍ أَبيَّةٍ ، أجبرتْها القوة ، وأرغمتها أن تكشف ساقيْها ، فى حفل عظيم لحفل سليمان ، وحسِبتْ ذلك امتهاناً وهوانا ، واحتسبَتْ هوانَها فدْيةً لوطنها ، وبَانَ جمالُ ساقها ، وأناقة قَدَمِها ، وتجلَّتْ قدرة الله وجلاله فى سِحْر جمالها ، وبدتْ هيبتها وعظمتها فى خضوعها وتواضعها ، وكذبتْ الشائعات فيها ، واستولتْ على قلب سليمان ببهائها ، فتسرب إلى قلبه حبُّها . فأسرع إليها ، وقال لها :

أسْدِلى يا بلقيسُ ثيابكِ ، يا ملكةَ سبأ ، فهذا زجاجٌ شفيفٌ ، يشف عما تحته ، إنَّه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ، تستطيعين أن تعْبُرى عليه ، ولا تخافى أن تقعِى فيه .

* * *

وبهرها هولُ الموقف ، وراعها تهويلُ الجن ، وكيف يَخْدَعُ الفكرُ البصر ، وخرَّتْ ساجدةً لله ، ثم رفعتْ رأسها وهى راكعة ، تسأل الله الغفران .

رب ، إنى ظلمت نفسى ، فيما كنت أعتنق من دين قومى .

رب : إنى أسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين .

* * *

وما كان يصدُّها عن الإسلام ، إلا أنها عاشتْ فى بيئةٍ كافرة . ولم تبلُغْهم الدعوة ، ولم يَدْعُهم رسول .

فكانتْ من أهل الفترة ، وأهل الفترة ناجون . حتى نبعث رسولا .

وآمنتْ بسليمان عن عقيدةٍ ويقين ، لا عَنْ رهبةٍ وخوف ، وتزوَّجها سليمان ، فكانتْ أكرم نسائه عليه .

أيوب

تمثال الصبر ، وقوة الجلد ، وتحمّل الوطأة ، وطأة الابتلاء .

بل تمثال للعقيدة الراسخة ، والفكرة التى تستبد بصاحبها ، فلا يتحول عنها ، ولا يتحلل منها . مهما تنكَّر له وجه الزمان ، وتآزرت عليه الحدثان ، فهو هو ، لا يستطيع فِكاكا من دِين اعتنقه ، ولا يأْساً من ربٍّ وعده ، والله لا يُخلف الميعاد .

* * *

يضرب الناس المثل بصبر أيوب ، وما أحقهم أن يضربوا المثل بثباته على مبدئه ، وصلابته فى رأيه ، وصموده على عقيدته ، أمام الحادثات .

* * *

وإذا قويت الروح ، ونضج الرأى ، وثبت المبدأ ، وكبرت النفس ، تضاءلت سطوة الجسد ، وتطامن الجسم ، وراحت بهيميته ، وزكا القلب ، وشف الفؤاد ، واتصل حبله بحبال نور الله ، فأصبح لا يرى إلا الله . ولا يحس إلا روح الله .

ويتخلَّف الجسد وراء الروح ، فتتحكم فيه ، فتحرقه بنار الصوم عن حطام الدنيا ، فيخف ويضمر ، وتجرجره ، فيقوم الليل ، ويوالى الصلاة ، حتى تهد قوته ، وتكبح الميل فيه ، فلا يضل ولا يتيه إلا فى ساحات رضوان الله .

وتترطب الروح بالرضا ، ويكتوى الجسم بالكبت والحرمان .

* * *

ولأمر ما ، أمر الله سبحانه ، نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يقيم الليل إلا قليلا ، نصفه ، أو ينقص منه قليلا ، أو يزيد عليه ، وما يتبقى من الليل ، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

إن ذلك كان لتتربى نفسه ، وتنمو روحه ، وتسمو على جسده ، فتثبت عقيدته ، وتتعلم على هذه الطريقة أمته .

* * *

وبمثل هذا ، ربّى الله الأنبياء من قبله ، وربّى أيوب الصابر ، الثابت العقيدة ، المتين المبدأ ، الصامد فى البلوى ، الراضى بالقدر ، الشاكر لله .

يا ليتنا نأخذ أبناءنا بهذا الأسلوب فى التربية ، أسلوب التسامى ، فتقوى فيهم الروح ، وتتحرر العقول من أغلال الجسد ، وتنفك عنهم أغلال الشيطان .

* * *

ويدّعى الغربيون من علماء التربية أنهم أول مَن وصلوا إلى نظرية التسامى فى التربية ، وما يدرون أن الله سبحانه رسم للبشر هذه النظرية فى كتبه السماوية .

* * *

وعندهم وسيلة التسامى ، استهلاك ما زاد من حيوية الجسم فى الألعاب والهوايات بالنهار . والنهار جُعل للمعاش لا للألعاب ، والليل سَكَنٌ للنفس بالعبادة ، وسكن للجسم بالراحة . وسكون النفس بالعبادة ، لا يكون إلا بإقامة الصلاة بالليل ، فى صبر وتجلّد .

* * *

وها نحن أولاء ، لم نأخذ بنظرية التسامى ، لا بما رسم الشرع ، ولا بما رسم الغربيون المربون ، فلا بالصلاة أقمنا الليل ، ولا بالألعاب قومنا الأجسام ! .

* * *

ونعود إليك يا أيوب ، فنراك شاكراً ذاكراً ، إذا أعطى الله أو سلب .

* * *

أَحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يُفْتنون ؟ .

ولقد فتن الله إبليس ، فما قَوِىَ على الابتلاء والاختبار ، وانكشف وَهَنه وخَوَرُه ، وتوارى فى كبريائه وعناده ، فهلك .

وفتن الأنبياء ، فصبروا ، واعتصموا ، وركنوا إلى شاطىء طاعة الله .

* * *

وفتنك يا أيوب ، فى رزقك الرغيد ، ونِعَمِك الوريفة ، وفى أولادك ، وفى زوجتك ، وفى جسدك .

ابتلاك ، فخلعك من نعيم الرزق ، فرضيت وما تغيرت .

وأمات أولادك ، فتجلدت ، وما كفرت ، وامتحنك بالأمراض والأوجاع ، حتى نفر منك الأهل والأحباب ، فما جزعت ، ولا يئست ، ولا فارت نفسك !

وأقلق زوجتك ، وأضجرها من طول ما شقيت تحتك ، حتى سئمتْ وزهقتْ ، وقلبت لك الكف ، وأدارتْ الظهر ، وأسبلتْ الجفن ، وتأوهتْ

من خدمتك ، وتمنت خلاصاً من حملك ، فحلَفْتَ يا أيوب ، لئن شفاك ربك ، ورد إليك عافيتك لتضربنَّها مئة سَوْط .

وطالت عليك مدة الابتلاء ، ولم يبق إلا الصبر والجلد ، وحسنُ الظن بالله . والتعلق بأهداب رحمة الله ، والاعتقاد فى لطف الله .

* * *

يا رحمةَ الله ! كل هذا وأنت صابر يا أيوب !

وأنت مطمئن شاكر ، على نعمٍ باقية ، لا تزال تغمرك ، نعمة حياةٍ أبقاها الله وكان سهلا أن تموت ، ونعمة كشف بصرك عن خداع المخادعين من الأهل والأصدقاء فى وقت محنتك ، وما كانت تنكشف لولا هذه المحنة ، ونعمة بها عرفت أنك ما تزال فى محبة الله ، والحبيب يمتحن الحبيب ، ونعمة أنك مرقت من الفتنة والافتتان بما كان من أهل وصحة وولد .

ونعمة فوزك برضاك وطيب نفسك فى البلوى ، تسبح بكل هذه النعم فى بحار طاعة الله .

* * *

يا ليتنا يا أيوب ، على شيء من صبرك ، وريح من جلدك ، ومسٍّ من التجائك إلى الله ، ونفحٍ مما تشم من نسائم فضل الله .

* * *

أى أدب أدبك يا أيوب ، يوم بلغ الصبر بك مُنتهاه ، والتحمل والتجلد مداه ، ويوم فزعت تضرع إلى الله ، فنسبْتَ هذه البلوى إلى الشيطان ، وما نسبتها إلى الله .

وأيوبَ إذْ نادى ربه : أنى مسَّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب .

ما أصابك من حسنةٍ فمن الله ، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك .

بشراك يا أيوب ؛ فرحمة الله وسعت كل شيء ، ورحمة الله قريبٌ من المحسنين .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمْ ، فالمخاوف كلهن أمان

وإذا أَذِنَ الله بالشفاء ، كان كل شيء دواء ، وكان كل ماء بلسما وشفاء .

وكانت الرحمة طبيباً يوم لا تجد طبيباً ، ويعود كل نافرٍ جافٍ حبيباً ، ولم يكن بالأمس حبيباً .

* * *

يا أيوب ، اضرب الأرض برجلك ، يتفجر الماء من تحتك ، فاشرب وارو ظمأك واغسل جسدك ، وامسح مرضك ، والبَس ثوب عافيتك ، وتحلَّ بحلى شبابك ، واستعدْ نضارتك وقوتك ؛ واخرج على قومك سليما معافى زينة للناظرين .

* * *

ويا أيوب ، هذا رزقك ونعيمك . وهؤلاء أهلك ، وقد أصلحنا لك زوجك ، ووهبنا لك أولاداً عوضا من أولادك ، ومِثلَهُم معهم ، لتقر عينك ويرتاح فؤادك ، وتطيب نفسك .

فرحمتنا تشملك ، وكل ذى عقلٍ يتذكر ، ويعتبر بك .

وهذه الزوجة ، التى صابرتك ، وآستك وواستك ، وأفرغت جهدها فى تطبيبك ، واستهلكت طاقتها فى تمريضك ، لم تشكُ ولم تتبرَّم ، إلا بعد أن نفد صبرها ووهن عزمها وليس عزمها مثل عزمك ، ولا صبرها كصبرك .

وهى قدمت لك الكثير ، وتخاذلت فى القليل ، خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم .

وقد تبنا عليها يا أيوب ، أفلا تتوب عليها أنت ؟ وتغفر لها ؟

وفداء ليمينك يوم حلفت عليها ، أن تضربها مئة سَوْطٍ ، إنْ شفيناك وعافيناك ، وتحللا من قسمك ، قد هوَّنَّا عليك ، أن تأخذ حزمةً من أعشاب رطيبة ، فيها مئة عود ، وتضربها بها ضربة واحدة ، لينة هيِّنة ، فترطب حقدك ، وتصلح زوجك ، وتدفىء حبك ، وتقر عينك .

وخذْ بيدك ضِغثاً ، فاضربْ به ، ولا تحنث .

إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب .

يونس

فى ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، جأر يونس رافعا صوته ، بالدعاء : لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين .

* * *

دعوة المكروب ، من دعا بها الله ، فى إخلاص ، فك كُربته .

* * *

دعا يونس ربه ، حين وقع فى هذه الظلمات ، جزاء وعقوبة وتأديباً ، وترويضاً لنفسه ، وتطهيراً لها من نزوة شيطانية سبقت إلى نفسه ، ولظن سرى فى وهمه ، أنه آمِنٌ من حساب الله ، يوم تعجَّل على قومه ، وشدَّ عليهم فى دعوته ، مبالغة منه فى الحرص على إيمانهم وطاعتهم ، ولأنه غضب عليهم ، وغاضبهم ، ولأنه بادر بهجرهم ، والمهاجرة من بينهم ، من قبل أن يأذن الله له بالمهاجرة ، وخُلِقَ الإنسان عجولا .

* * *

وأى استعجال وإعنات ، وأى إثارة واستفزاز ، أكثر مما فعل يونس بقومه ؟ يوم دعاهم إلى عبادة الله ، والتخلى عن عبادة الأصنام ، ويوم هددهم بالخراب والدمار وسوء العذاب ، إن لم يخلعوا دين الوثنية ، ويلبسوا فى التَّوِّ والساعة ثياب دينه .

* * *

وما هكذا تكون الدعوات ، ولا بهذا العنف تُساس الناس ، ولا بهذه السرعة السريعة ، يتخلى الإنسان عن دينه ومبدئه .

والدعوة الراسخة تقوم بالتربية والترويض والإقناع ، وببسط جناح اللين والرحمة .

* * *

وما هكذا أخذ نوح قومه ، فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمنوا ولا اهتدوا ، بل لم يؤمن ولده بدين أبيه .

* * *

شرط الدعوة ، وواجب الداعى ، أن يتسع صدره للمعارضة ، وألا يغضب إذا نفر منه القوم ومن دينه الجديد ، وإذا حنُّوا إلى ما سرى فى دمائهم ، مما ورثوه عن الأجداد .

ثم تأليف النفوس ، وتسرب الدعوة إلى القلوب ، واستمالة العواطف .

لقد فاتك كل هذا ، يأيها النبى يونس .

* * *

فقلت ، وأنذرت ، وهددت ، وتعجلت ، فنفضت يدك ، وسحبت نفسك وتخليت عن متابعة رسالتك ، وهجرت القوم ، وتركتهم حائرين .

* * *

لا يجتمع نجاح فى دعوة ، وفظاظة وغلظة ، ولا تتأتى استمالة قلوب لدين إذا كانت سياط العذاب ، مسلطة فوق الرءوس .

بل إن العُنْجُهِيَّة فى الدعوة ، سبب الانفضاض عنها ، والنفرة منها ،

ومقاومتها ، ولو كنت فظاً غليظ القلب ، لا نفضوا من حولك .

* * *

ترك يونس قومه حيارى ، وركب البحر ليذهب إلى بعيد ، غاضبا منهم ، فهبت عليه الريح ، وعنفت العاصفة ، ومالت السفينة ، وأوشك الغَرق ، وتخفف أهلها ، فرموا متاعهم فى البحر ، ثم ضربوا السهام واقترعوا ، فمن أصابته القرعة ، رمى نفسه فى البحر ليخف عن إخوانه ، وأصابته القرعة مرة ، ومرة ، ومرة .

وكان لابد أن يلقى نفسه فى البحر ، فى الخضم الهائج المائج .

وكأنه كان على ميعاد مع الحوت ، فالتقمه وابتلعه ، وضغطه بين فكيه ، وقذفه فى جوفه .

فاجتمعت عليه الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

فأى ضيق ، وأى كربة ، من هاتيك الظلمات الثلاث ؟

* * *

وعليك يا يونس أن تجأر بالدعاء ، وأن تفزع بالضراعة ، وأن تحسَّ خطر الهلاك ، وأن تخاف بعد أمن ، وتفيق بعد غفوة ، وأن تدرك مدى الاستخفاف بأمر القوم .

* * *

ادع ربك يا يونس والإنسان لا يعرف ربه ، إلا فى وقت الغَرَق .

وذا النون — والنون الحوت الكبير — إذ ذهب مُغاضِباً ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات ، أنْ لا إله إلا أنت ، سبحانك فى مَلَكوتك وجَبَروتك ورَهَبوتك ، إنى كُنت من الظالمين .

ظلمت نفسى ، وظلمت قومى ، وظلمت رسالتى .

فمن ظلمى لثلاث ، أوقعنى ربى فى ظلمات ثلاث .

فيارب أدركنى بثلاث : التوبة ، والمغفرة ، والنجاة .

* * *

وكانت رحمة الله ، فاستجاب دعاءه ، ونجاه ، فأهاج بطن الحوت ، ومَغَصَ أمعاءه ، وضيّق أحشاءه ، فتلوّى وتقبّض ، وقذفه من جوفه ، بعيداً على الشاطىء ، فى العراء ، وهو سقيم .

وشملته العناية الربانية ، فأنبت الله بجواره شجرة من يقطين ؛ وسواء أكان اليقطين شجر القرع أم الموز ، فإنها شجرة غطته بأوراقها ، وأظلته بأغصانها ، وغذّته بثمارها .

فوقته وحفظته من ثلاث :

من الطير والذباب حتى لا تنهشه وهو طريح لا حراك به .

ومن الشمس حتى لا تأخذه ضربتها .

ومن الجوع حتى لا يهلك فيموت .

* * *

قم يا يونس ، فارجع إلى قومك ، إلى هؤلاء الناس ، الذين أرسل عليهم الغمام فأظلم ديارهم ، فأسرعوا إلى الله ، خائفين وجلين ، تائبين مؤمنين .

ويا يونس ، لو رأيتهم ، وقد خرجوا إلى الخلاء ، بأنفسهم وأهليهم وماشيتهم ، وقد فصلوا الرجال عن الزوجات ، والأطفال عن الأمهات ، وصغار

الحيوان عن المرضعات ، وقد ارتفعت أصوات الناس بالدعاء ، وأصوات الحيوانات البكاء .

ويا ليتك يا يونس رأيتهم ، وهم جميعاً يعلنون التوبة والاستسلام ، وقد آمنوا بربهم ، فعفا الله عنهم ، وكشف العذاب الأليم . ومتَّعهم إلى نهاية أعمارهم .

فلولا كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس ، لما آمنوا ، كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين .

* * *

قم يا يونس ، فعُدْ إلى قومك ، مئة ألف أو يزيدون .

عُدْ إليهم ، فقد تابوا وآمنوا .

فكشف الله عنهم الغُمَّة ، كما كشف عنك غَمَّ الظلمات .

مريم . زكريا . يحيى

في سورة آل عمران الرهيبة :

إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين .

إذ قالت امرأة عمران : ربِّ إني نذرت لك ما في بطني مُحَرَّرا .

نذرتْ ما في بطنها ، إن كان ولدا ذكرا ، أن تهبه لبيت المقدس ، يخدم فيه ، وكان ذلك ، أكرم قربان يتقرب به العباد إلى الله .

وكان دعاؤها رجاءً وأملا في الله ، أن يرزقها ولدا ، فما كان يوهب لخدمة المسجد إلا الغلمان .

وما كان لها ولد ، وحرمان الولد ، يُعطِّش العاطفة ، ويؤجِّج الشوق إليه ، ويثير اللهفة عليه ، والرغبة في الخلف بأى ثمن ، حتى لو وهبته للحرب أو للمسجد .

وتلك أماني المحروم وآماله ، إذا أزعجه شبح اليأس ، وقرّحتْ جفونه أطياف القنوط .

ربِّ . إني نذرت لك ما في بطني محررا ، أحرره لك يا ربي من كل مشاغل الدنيا . فتقبلْ دعائي ، إنك تسمعني ، وتعلم همس خاطري ، ومناجاة آمال نفسي !

* * *

فلما وضعتها ، قالت : ربِّ ، إنى وضعتها أنثى .

وكان فى حديثها إلى الله ، لغة التحسُّر ، وريح الفجْعة فى ولادة البنت . والناس من قديم لا يبشون فى وجه البنات .

وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون .

والبنت من يوم أن تخرج من ظلام بطن أمها ، تلقاها الوجوه عابسة ، والابتسامة فاترة ، والحرارة هادئة ، والقلوب كسيرة .

* * *

وأليس الله يعلم ، يا امرأة عمران ، أنها أنثى ؟ وأنْ ليس الذكر كالأنثى ؟ ويعلم أن القلوب معلقة بحبال الآمال فى ولد ، يكون السند ، ويشد العضد ، ويقوى الجلد ؟

ويعلم أن البنت عبء ومسئولية ، فى ولادتها ، وتربيتها ، ورعايتها ، وحياطتها ، والتحرى فى اختيار زوجها ، وتجهيزها ، وزفافها ، وتأمين راحتها .

ويعلم ، ونعوذ بالله ، أنها إنْ ساء حظها ، فزلّتْ قدمها ، وانكشف سترها وفاحت رائحتها ، وانصرف الأزواج عنها ، كانت سُبَّةً وعارا على أهلها والله أعلم بما وضعت .

يا امرأة عمران ، لا تحزنى ، فقد قبلنا نذرك ، وتقبلنا بنتك ، وأضفينا على وجهها جمالا ، فادفعيها إلى بيت المقدس ، وفاء بنذرك .

فلفتها فى ثياب ، ودفعتها ، إلى سَدَنة البيت ، حُرّاسه المنقطعين لخدمته ورعايته ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، بنت إمامكم عمران .

وتنافس السدنة فيها ، أيهم يكفل الطفلة النذيرة مريم ابنة عمران . واختصموا فى المنافسة ، واقترعوا عليها ، فألقوا أقلامهم فى البحر ، فمن طفا قلمه على الماء فاز بها .

وفاز بالقرعة عليها ، النبى زكريا ، زوج خالتها ، فتولاها وكفلها ، وبنى لها غرفة مشرفة فى المحراب ، والمحراب مكان الإمام فى المصلى ، وهو أقدس مكان فيه ، فإنه أرهب مكان يحارب فيه الشيطان .

* * *

وما كان يدخل عليها المحراب ، غير زكريا ، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا فاكهة الصيف يجدها عندها فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء يجدها عندها فى الصيف .

فأخذه العجب ، من أمر هذه الفتاة ، وسألها : أنَّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله .

فإن كنت تظن أنك ترزقنى بما تأتينى من طعام وشراب ، فإن ما عند الله خير مما عندك . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

سبحانك ربى ، قدرتُك حيَّرت العقول ، هذه بُنية حبيسة ، لا حول

لها ولا طول ولا زائر ولا عابر ، فإذا بين يديها رزقٌ خير رزق ، وجودٌ من عدم ، وأملٌ من يأس ، وهِبَةٌ وما قدمتُ إليك من قربان !

أفلا يُطمعنى ، ما أرى ، أن أضرع إليك ، وأسألك أن تهب لى ذُرية طيبه ؟ إنك سميع الدعاء .

يا ربى : إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربى شقيا . وإنى خِفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربى رضيا .

ربى . لاتذرنى فردًا ، وأنت خير الوارثين .

تلك صلاة ، والصلاة دعاء ، وصلاةٌ بعد سَبْحةٍ طويلة ، فى تأملات وتسبيحات ، فتجلى نور الله ، فاستجاب دعاه ، ونادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقاً بكلمةٍ من الله ، وسيدا ، وحصورا ، ونبيًّا من الصالحين .

* * *

ولدٌ يا زكريا ، ولا كالأولاد ، مؤمن ، يصدق بالله ، وكلماته ، وآياته البينات على جليل حكمته ، وبديع قدرته .

ولدٌ يسود قومه ، ويعصم من الذنوب نفسه ، ونبىٌ تشرفه رسالته ، وصالحٌ مصلح فى مجتمعه ، وهديةٌ الله إليك يا زكريا ، والحبيب يُهدى إلى الحبيب .

* * *

ويخر زكريا ساجدا شاكرا ، غارقا فى بحار فضل الله ، متعجباً مما قضى

الله ، فهو قد شاخ وقارب المئة ، وقد انحنى ظهره ، وجف عوده ، وشاخت زوجته ، وضمُرت وعقِمتْ ، ويَبِسَتْ عظامها ، فمن أين يأتينا الولد يا ربي ؟!

* * *

لا تعجبْ يا زكريا ، ففضل الله واسع ، ورحمته تجبر المكسور ، وتحيي الأمل ، وأمره نافذ يفعل ما يشاء ، إذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن فيكون .

ويشتد به العجب ، وتبلبله الحيرة ، ويكاد لا يصدق ، فيحبُّ أن يستوثق ، وأن يشد يديه على تلك الأُمنيَّة ، فيسأل ربه : يا ربي . اجعلْ لي آية ، تطمئن بها نفسي ، ويسكن قلبي ، ويدفأ بالفرحة جسمي ، ويجري دمي ، وأشعُرُ بحياتي وحيويتي !

* * *

قال : آيتك ، أن يصمت لسانك ، ويسكت بيانك ، وتعيا عن الكلام ثلاثة أيام ، لا تستطيع أن تتفاهم مع الناس ، إلا بالإشارة والرموز .

* * *

فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم ، وأشار عليهم ، أن سبحوا بكرة وعشيا . يا زكريا : إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعلْ له من قبلُ سَمِيًّا ، فاذكرْ ربك كثيرا ، وسبحْ بالعشِيِّ والإبكار .

* * *

وصدق الله العظيم ، فكَبِرَ يحيى ، وقرَّتْ به عين زكريا ، واكتمل عقله في صباه ، واصطفاه الله نبيا في شبابه ، وفهم التوراة ، وأحكم فهمها ، وولاه الله أمر الدين ، والقيام على هداية الناس وهو فتى ، وأفعم الله صدره بالحنان ،

فكان رءوفا رحيما ، رقيق العاطفة ، لطيف الإحساس ، وزكتْ نفسه ، وتطهرت روحه من درن الأرجاس . وراض نفسه على تقوى الله ، فما جرؤ على معصية ، ولا أعان عاصياً ، ولا جامل فاسقاً .

وأنعم الله عليه بالبر بوالديه يطيع ويحنو ، ويُفرح ويُسعد ، ويشرح الفؤاد ، ويجدد الأمل ، ويحمل عبئاً كان يشغل بال أبيه ، وإنى خفت الموالى من ورائى . وخشيت ألا ينهضوا بعبئى ويتموا رسالتى ، فهب لى من لدنك وليا .

ونزع الله من طبيعته غريزة الطغيان والجبروت ، وأغمض عينيه عن العناد والعصيان . وسلَّم عليه الله ، وسلّمه من كل رذيلة ، وزيَّنه وحلاّه بكل فضيلة ، وحفظه من مس الشيطان يوم ولد ، وبارك عليه طول عمره وسلمه من الفزع والانزعاج وسوء الخاتمة يوم مات . ويُسلِّم عليه يوم البعث ، ويُسلمه من رجفة الحشر ، وهول الموقف ، ومن الخزى الذى تضيق به صدور المجرمين ، يوم يُعرضون على رب العالمين .

يا يحيى . خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا ، وحناناً من لدُنّا ، وزكاة ، وكان تقيا ، وبرًّا بوالديه ، ولم يكن جبارا شقيا ، والسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيًّا .

* * *

وقاتلكم الله يا بنى إسرائيل .

أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ! استكبرتم ؟

ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون !

قتلتم يحيي ، وخَرَزْتم عنقه ، يوم صاح فيكم صيحة الحق ، ورفع صوته مستنكراً أن يتزوج الرجل بنت أخيه ، مهما كانت مليحة ، ومهما كان موفور الغنى ، ويوم فَرَضَت عليه هذه المليحة الجميلة ، أن يكون مهرها رأس يحيي ، الذى عارض زواجها من عمها ، وكشف خطيئتهما ، وفضح سرهما .

فجزّ الطاغية العاتى رأس يحيي .

ورماه تحت قدميها . مهراً لها !

قاتلكم الله ! !

البعث

وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى المسيح ابنُ الله ، ذلك قولُهم بأفواههم ، يُضاهئون قولَ الذين كفروا من قبلُ ، قاتلهم الله .

* * *

أوْ كالذى مرَّ على قرية ، وهى خاويةٌ على عروشها ، قال : أنَّى يُحيِى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مئةَ عام ، ثم بعثه ، قال : كم لبثتَ ؟ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم . قال : بل لبثتَ مئةَ عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتسنَّهْ ، وانظرْ إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُهَا ، ثم نكسوها لحما ؟ فلما تبين له ، قال : أعلَمُ أن الله على كل شىء قدير .

* * *

جاءت الأديان كلها تؤيد عقيدة البعث ، وأن هنالك حياةً أخرى بعد الموت . وتخلَّف عن هذه العقيدة آراء كثيرة ، فبعضٌ يُنْكِرُها ويستبعدها . وبعضٌ يصدِّق ، ولكنه متحيِّر فى كيف يكون البعث من القبور ؟

وناس يقولون : إن حياتنا هذه من فِعْل الطبيعة ، وما حياتُنا إلا مِنْ أرحامٍ تدفع ، وأرض تبلع ، ولا شىءَ بعد ذلك .

وناس اختلفوا فى البعث ، فقال أهل السنَّة : نُحشرُ بأجسادنا وأرواحنا . وتصدَّى علماء الطبيعة لهؤلاء الناس ، وقالوا : إن المادة لا تفنى ،

ولا تنقص ولا تزيد . وأن أجسام الأجيال ، تتداخل فى تركيب أجسام الأجيال .

فكيف تعذَّبُ الذرة من جسم العاصى ، إذا مات ، وتداخلت فى جسم المؤمن الصالح ؟

وناسٌ قالوا إن البعث بالأرواح ، فهى تنعمُ وتشقى ، والجسد وعاء دنيوى دانى .

وضراع بين الآراء فى الجنة والنار ، وهل هما موجودتان الآن ؟
أم سيخلقهما الله يوم القيامة ؟

جنة عرضها السموات والأرض . جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

وإذا كانتا موجودتين الآن ، فهل نحن فى حياتنا هذه نسعد ونشقى فى جنة ونار ؟ وكثير . وكثير .

كل هذا ، مبعثه عقيدة البعث بعد الموت ، والنشور من القبور .

وهذه العقيدة ، نؤمن بها ، ونُرسِّخها فى قلوبنا ، سماعاً من الأديان .

فهى غيب ، والغيب لله .

وهذه العقيدة ، حيَّرت سيدنا إبراهيم ، خليل الله ، إذ قال :

ربِّ ، أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى !

وهذه العقيدة ، حيَّرت صاحِبَنا هذا ، الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها ؟

وسواء أكان هو عُزَيْرٌ ، الذى قالت عنه اليهود : إنه ابن الله .

أم كان الخضر صاحب موسى عليه السلام ، أم كان نبيا ، أم ملكا ، هذا ، أو ذاك ، فهو بلا شك إنسان من الناس ، مرَّ على بيت المقدس ، بعد أن خربَّها بختنصَّر .

فأزعجه منظر الخراب والتدمير ، وحزَّ فى نفسه ، أن يأتى الخراب فى لحظات ، على ما يبذله الناس فى التعمير ، مئات السنين .

وعملت فى رأسه نظرية تداعى المعانى ، وتزاحمت الخواطر والأطياف ، وجرَّتْ فكرةٌ فكرة وهذه استتبعت أفكاراً وأفكاراً ، حتى وصل فى تفكيره إلى الخلائق من إنس ومن جان . فى أيام آدم ، ومن بعده نوح ، وإبرهيم ويعقوب ، وداود وسليمان ؛ وفى الأجيال والأجيال مدى عمر الزمان ؛ وإلى أين يذهبون ! وكيف يبعثون ويحشرون !

وما الموقف العظيم الذى يضم هؤلاء وهؤلاء ؟

ثم التفت إلى نفسه ؛ وسألها : أليست هذه الظاهرة ؛ حلقة من سلسلة الحياة ؟

والرجل وحده ، واقف يشرف على هذا الخراب فى القرية ، ويكدُّ ذهنه فى التفكير ، وفى التقدير ، أيؤول العالم كله فى آخر الشوط إلى مثل ما أرى ؟

وتطاول خياله ، أن يتصور قدرة الله التى تحيط بهذا العالم الخراب يوم القيامة .

فأرهقه التفكير ؛ فنزل عن حماره ، يمسح عرقه ، و يستروح فى ظل جدار فأخذته سِنَةٌ من النوْم فنام ، وأماته الله ، فنام مئة عام !

و بعد مئة عام ، بعثه الله ، وأيقظه فصحا ، وتلفت ، فوجد طعامه وشرابه لم يتغيَّر ، ونظر فى جسمه فوجده سليما معافى لم يمسسه سوء .

فناداه مَلَكٌ من ملائكة الله : كم لبثتَ فى نومك هذا !

ففتح عينيه ، وتذكر أنه كان يناجى نفسه على أطلال هذه القرية فى ضحوه النهار ، وهو الآن فى وقت الأصيل، فقال لبثت يوماً ، أو بعض يوم .

قال له الملك : لا يا هذا ، بل لبثت مئة عام .

فأخذه العجب من كلام الملك ، وكاد يعلن أن هذا قول يحتاج إلى دليل و برهان . فعاجله الملك ، وأمره أن ينظر ثلاث نظرات :

أولاها أن تنظر فى طعامك وشرابك ، فإنه لم يتغير ، والتحفظ عليه بقدرة الله . والثانية أن تنظر إلى حمارك ، كيف مات ، وَبَلِيَ لحمه ، وتفكك عظمه .

وأننا سنجعلك آية ناطقة على قدرتنا ، وليعلم الناس حين يعرفون خبرك أننا قادرون على بعثهم كما بعثناك .

والثالثة : أن تنظر إلى هذه العظام ، كيف نُنْشِزُها ، وننشرُها ، ونعيد تركيبها .

وكيف نكسوها لحما ، فعاد الحمار كأول مابدا ، فركبه صاحبه ، ودخل المدينة ، ودخل بيته ، فوجد ذريته وأحفاده شيوخاً وهو على حاله لم تتقدم به سنُّه .

فأنكروه ، وعجبوا أن يعود أبوهم على حاله يوم غاب ، لم يتغيَّر شكله ، ولم يتقوس ظهره ، وقد حسبوه مات منذ غاب ، ونسيه الناس ، وفات مئة عام على انقطاعه . فكيف به يعود ؟ إن هذا لشيء عجيب .

وسألوه ، وسألوه ، فحدثهم حديثاً عمره مئة عام .

وأسمعهم التوراة ، وما كان يحفظها غيره .

ودلَّهم على أسرار بنيه و بنيهم ، ومعالم في دارهم ، ما يكشف سرَّها غيره .

فآمنوا ببعثه ، وآمنوا بأن الله قادر على أن يبعث الموتى .

فلما تبين له ، قال : اعلمى يا نفسى ، فأنا أعلم أن الله على كل شيء قدير .

ومن أجل هذا ، حدثت رجَّةٌ في الناس ، وهزَّةٌ في عقائدهم ، وأخذتهم رجْفَةٌ من قدرة الله .

و بنو إسرائيل ، قوم متطرِّفون .

فإن آمنوا أغرقوا في الإيمان . وإنْ كفروا ، فجروا ، وطَغوْا وفسقوا وأَسَفُّوا في العصيان .

* * *

وتلك هي الطبائع الرجراجة ، كالعجينة تشكِّلها ظروفها ، فمرة فارس ، ومرة حصان وهم كذلك ، وحين هالهم بعث صاحبهم عزير بعد أن أماته الله مئة عام ، قالوا : لابد أن يكون مكرماً عند الله ، بل لابد أن يكون ابنَ الله .

وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله :

سبحانه : الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد .

محاورة

تحاور أخوان : كافر ومؤمن ، منكر للبعث ، ومعتقد فى البعث .

والكافر أطغاه غناه ، والمؤمن قانع بما قسم الله .

واضرب لهم مثلا ، رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين ، آتت أُكلها ، ولم تظلمْ منه شيئاً ، وفجَّرنا خِلالَهما نهرا ، وكان له ثمَر .

فقال الكافر لأخيه المؤمن : أنا أكثر منك مالًا ، وأعزُّ نفَرا .

واجتمع على هذا الكافر طغيانه ، واعتقاده أن غناه كان عن استحقاق وجدارة ، واعتقاده أن المحْظىَّ فى الدنيا محظِىٌّ فى الآخرة ، وأن نعيم الدنيا مخلَّدٌ مقيم لا يَبيد .

* * *

وأنه لا قيامة ولا بعث ولا ساعة ولا حشر ولا نشر ؛ وأنه حتى لو كان هناك بعثٌ وحياةٌ أخرى ، بعد الموت ، فإنه سيجد هناك نعيما خيرا من نعيم هذه الدنيا .

ودخل جنته ، وهو ظالمٌ لنفسه ، قال : ما أظن أن تَبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُدِدْتُ إلى ربى لأَجِدَنَّ خيراً منها مُنْقَلبا

* * *

كلامٌ فيه عُتوٌّ وصَلَف ، وغرور يُعمى البصيرة والبصر ، ويُغرى بالمغايظة ،

ويجرح إحساس المحروم ، ويتحدى حكمة الله الذى يقول : نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً ، ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون .

* * *

قال له أخوه المؤمن ، وهو يحاوره ، خائفاً عليه ، حَذِرًا على نعمته أن تزول بسبب كفره : يا أخى ، تذكرْ أن الله الذى وهب لك هذه الجنة ، وهذا الغنى ، وهذه العِزْوة من الأولاد ، هو الذى خلق أبانا آدم من تراب ، وهو الذى خلقك من نطفة قذرةٍ مَهِينَة ، وهو الذى صوّرك وأنشأك وسوّاك رجلًا غنياً وافر الثراء .

أفلا جعلتَ شكره إيماناً وتقوى وخوفاً من غضبه ؟ .

أفتجعلُ الكفر بدل الإيمان ، والتحدّى بدلًا من الحمد والشكران ؟ .

يا أخى : إن كنت تكفر بالله وتتحداه ، وتتحدى الفقراء من عباده ، أنا أُشهِدُك ، وأُشهد نفسى ، على أنه ليس لى ربٌّ سواه ، ولا شريك له ى ملكه ، ولا أحد يتحداه فيما قضاه .

يا أخى : هلّا حصَّنْتَ نعمتك بالإيمان ، وعوّذتها وحَمَيْتَها بذكر الله ؟ شكرتَ عليها بتسبيح الله ؟ واعترفْتَ بأن هذا كله ، مما تراه ، ليس لك به يدٌ ولا قوةٌ ، ولا حَوْل .

ولولا إذْ دخلتَ جنتك ، قلتَ ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ! .

يا أخى : اتق الله ، ولا تُعَيِّرنى بفقرى ، ولا تتحدانى بغناك .

إنْ ترنى أنا أقلَّ منك مالًا وولدا ، فعسى ربى أن يَتقبَّلَ منى إيمانى ، ورِضاىَ بما قَسَمَ لى ، وقناعتى ، وأن ينظر إلىَّ بعين رحمته ، فقد رُضْتُ نفسى على إذعانها لقضائه ، وعلى تحمُّلها لاستفزازك ، وصبرها على أذاك .

وأسألُ ربى ، أن يمنحنى رضاه ، ويدخلنى جنته ، وهى خيرٌ من جنتِك هذه التى تُباهينى بها .

* * *

ولعل ربنا ، ينظر إليك بعين غضبه ، فيجزيك بكفرك ، وينزل على جنتك هذه صَواعِقَ من السماء ، وسمومَ رياحها ، وهُوجَ عواصفِها وأعاصيرها ، فتطِيحُ بشجرها وثمرها ، وتكتسِحُها ، فتصبح قحْلاء جَرْداء ، كالحجر الأجرد الجلمود .

* * *

وليس بعزيز على الله المنتقم الجبار ، أن يجعل ماءها يَغُور فى جَوف الأرض تبتلعه فيغيض ، فلا تستطيع أن تطابه ، أو تحصل عليه .

* * *

ودعوةُ المظلوم ، ليس بينها وبين الله حجاب ، تطرقُ أبواب السماء ، فتفزع لها الملائكة ، فيجأرون بالدعاء معه ، فيستجيب الله ، وقد استجاب !

ونزلت النازلة ، وأحاط الغضب الإلهى بجنته وشجرها وعروشها وثمارها ومائها وعزِّها وخيرها ، فأصبحت خاوية خرابا يَبَابا .

ورأى الكافر جنته ، وما نزل بها ، فجُنَّ جنُونُه ، وطار صوابُه ،

وأصبح يقلّب كفيْه ندماً وفجيعة ، وحسرةً وأسفا ، وتوبةً تقُبَل أو لا تقُبل .

فما أشبهها بتوبة فرعون حين أدركه الغرق ، فقال له ربه رافضاً توبته : آلآن ! وقد عَصَيْت قبلُ ، وكنتَ من المفسدين ؟ .

* * *

ويقول الكافر ، يا ليتني لم أُشْرِكْ بربي أحدا ، ولم تكُنْ له فِئَةٌ ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا .

فأين غناه ، وجنّتُه ، وثمرُه ، وماؤه ، ونفرهُ ، وعُزوته ؟ .

بل أين كُفره ، وشِركهُ ، وإنكارُه البعث ، وتحدّيه ، وطُغيانه ؟ .

* * *

لقد ذهب عنه كل أولئك ، ولم يبقَ إلا وجهُ الله ، يلقاه ، فيأخذه بما جَنَاه .

* * *

هنالك الوَلَايةُ لله الحق ، هو خيرٌ ثواباً ، وخيرٌ عُقْبَى .

حرمان بحرمان

اللهم أعط مُنفقاً خلفاً ، وأعط مُمسكا تلفاً .

دعوةٌ استجابها الله ، فأصاب أهل مكة بالقحط ، فأجدبت السماء والأرض لمَّا كزَّ الأغنياء على الفقراء ، وحرموهم نصيبهم الذى فرضه الله بالزكاة .

ونزل القرآن : إنا بلَوْناهُمْ ، كما بلونا أصحاب الجنة . فَحَرَمْنَاهم حِرماناً بحرمان .

* * *

هذه الجنة ، كانت باليمن ، ضاحية من ضواحى صنعاء ، وكانت لرجل صالح كريم ، يجعل للفقراء نصيباً من جنته ، ويحدد نصيبهم بالثمار التى يُسقطها الهواء ، والتى يفوتها مِنجل الحصَّاد ، والتى تقع بعيداً عن البساط الذى يفرش تحت الشجر ليسقط عليه الثمر . إنما هو نصيب الفقراء ، يدعهم يلمُّونه ويأخذونه .

فكانت زكاة ، وكانت بركة ، والزكاة نماء وزيادة .

* * *

فلما مات ، ورثه أبناؤه فى تلك الجنة ، وكانوا أشحَّاء بخلاء .

فاستكثروا نصيب الفقراء ، وبخلوا عليهم به ، وتشاوروا فيما بينهم أن يجمعوا ثمارهم فى فجر النهار ، قبل أن يصحو الفقراء ، وقبل أن يقفوا لهم على باب الجنينة ، وقبل أن يتورطوا بين حرمانهم وبين إعطائهم ، كما كانوا يأخذون .

* * *

ولم يكن رأيهم بالإجماع ، فقد استحسنه ووافق عليه بعضهم ، وتوجَّس منه وخاف عاقبته أخوهم وحذرهم أن ينقضوا عهد أبيهم ، وأن يبطلوا سنة حسنة سنَّها لهم ، وأنذرهم غضب الله عليهم ، إن هم أغضبوه ، بحرمان الفقراء ، والفقراء عيال الله .

* * *

وبهذا الخلاف فى الرأى ، لم ينتهوا إلى إجماع ، ولم يُشفعوا مشيئتهم هذه بمشيئة الله ، ولم يقولوا إن شاء الله هذا وفَّقنا إليه ، ومكَّننا من تنفيذه .

إذ أقسموا : ليصرِمُنَّها ويجنون ثمارها مُصبحين ، ولا يستثنون .

وهل جزاء إحسانِ أبيهم إلا الإحسان ، وجزاء بخلهم وشحهم إلا الحرمان ؟

* * *

وناموا على نيَّتهم هذه ، ولكن عين الله لا تنام . فأرسل على الجنة غضبه ، وطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت الحديقة كالصَّريم ، كالحِمْل المصروم ، الذى تفككت حباله ، وهو على ظهر الجمل أصبحت مجْنِيَّة مجردة من ثمارها ، سوداء جرداء كالليل فى ظلمته ، وكالرمال المحرقة فى صحراء تكويها شمس حارقة .

* * *

فتنادَوْا مُصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إنْ كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، يكلم بعضهم بعضاً همساً خافتاً ، حتى لا يسمع المساكين . وقبل أنْ يَصْحُوَ الفقراء المحتاجون . أَلاَّ يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكين ، وهم يعتقدون أنهم على حَرْد الفقراء وَنكَدهم قادرون .

وما كان أشد انزعاجهم وفجيعتهم حين رأوْها . فقد اتهموا عقولهم بأنها تاهت وضلّت ، وأن أبصارهم عَمِيَتْ عن الطريق ، فقالوا : إنا لَضَالُّون .

ولما أفاقوا ، وعرفوا أنها هى حديقتهم ، وأن هذا هو طريقهم ، وأنها الحقيقة الفاجعة ، والضربة القاصمة ، وأن الحرمان لا يولِّد إلا الحرمان ، قالوا : بل نحن محرومون ، بل لقد كُتِبَ علينا ، أن نُجْزى بجزاء من جنس أعمالنا . إنما الأعمال بالنيات ، وقد نوينْا أن نحرم ، فأخذنا الله بنيتنا .

* * *

حينذاك خرّوا نادمين آسفين ، مسبِّحين معترفين أنهم كانوا ظالمين . ظلموا نفسهم ، وظلموا أباهم ، وظلموا الفقراء ، وظلموا هذه الجنة حين استنزلوا عليها ضب الله .

* * *

وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : سبحان ربِّنا ، إنا كنَّا المين ، كذلك العذاب ! وَلَعَذَابُ الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون .

الكهف

لقى النبى محمد عليه السلام مُقاومة وعنَتاً شديداً فى محاولته مع قومه قريش حتى يُسْلِمُوا . وكان من مقاومتهم له ، أنهم بعثوا إلى أحبار اليهود ، يسألونهم فى مسائل مُعضلة عويصة ، ليعرضوها على محمد ، فإن أجاب عنها ، آمنوا أنه نبى ، وإن عجز عنها ، كان مدَّعيا ، وكشفوه وهاجموه .

* * *

فقال لهم أحبار اليهود وعلماؤهم : اسألوه فى ثلاث .

اسألوه عن فتيةٍ ذهبوا فى الدهر الأول ، وما كان من أمرهم .

واسألوه عن رجلٍ طوّافٍ ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبأه ؟

واسألوه عن الروح ، وما هو ؟

* * *

وللكهف سورة فى القرآن ، فيها قصص كثيرة ، غير قصة أصحاب الكهف . ففيها قصة الأخَوَيْن المتحاوِرَيْن ، وفيها قصة الخضر صاحب موسى وقصة الطوّاف ، وقصة الروح . ولكن أصحاب الكهف ، غلب أمرهم على كل ما فى السورة .

* * *

وأَصحاب الـكهف ، جماعة ذوُو فـكرٍ ورأى ، وأصحاب عقيدة ، ولهم مبدأ ثبتوا عليه ، وضحَّوْا فى سبيله ، وهم دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وهم كانوا شبابا ، وعقولهم نقية نيِّرة ، ونفوسهم زكية طاهرة ، وفيهم إباء وَحَمِيَّة ، وقد نظروا فى قومهم ، فرأوْهم يعبدون الأصنام والحجارة ، وعزَّ عليهم أن يكونوا عبيداً لحجر ، خاشعين لصنم ، وأن يكونوا أسارى التقاليد ، وأن يساقوا إلى ذلك سَوْق العبيد ، بِسياطِ الملك .

* * *

وجمعتهم ندوة ، وما أخطر الندوات ، ففيها يتحرَّر الفـكر ، وتتبدَّد سحائب الجهالة ، وجرى حديث الشباب فى الندوة ، عن سُخْف العقول التى تذِل لحجر مَنْحوت ، أو تمثالٍ مصبوب . ونظروا فى أنفسهم ، وفى الملـكوت حولهم ، وفى مَنْ يا ترى خالقُ هذا الـكون ، وواهبُ هذه النعم ؟

ودرسوا ، حتى اهتدوْا إلى الله ، بالفطرة السليمة ، والعقول الحـكيمة .

فـكانوا أصحابَ فـكرٍ ورأى .

* * *

وكانوا في مدينة أفسوس ، فى إقليم طرسوس ، فى شبه جزيرة طور سينا ، تحت حكم الملك الطاغية ، دقيانوس .

وخشى هؤلاء الفتيان ، أن ينـكشف أمرهم ، ويطَّلع الملك والناس على خبرهم . فيعذبوهم ، أو يردوهم عن دينهم الذى اهتدوا إليه ، إلى ذلك الدين لذى اعتقدوا فساده و بطلانه .

وهم أصحاب عقيدة اعتنقوها ، وآمنوا بصحتها وسلامتها ، فاهتدوا إلى الله .

وهم أصحاب مبدأ ، لابد أن يثبتوا عليه ، وألاَّ ينكصوا عنه ، ولابد أن يضحوا فى سبيل هـذا المبدأ ، فقرروا فى ندوتهم هذه ، أن يفروا بدينهم إلى الله ، من وجه الغاشمين الـكافرين .

* * *

إذ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الـكهف ، فقالوا : ربَّنَا آتِنَا من لَدُنْك رحمة ، وهيِّئ لنا من أمرنا رشدا .

فضربنا على آذانهم ، وألقيْنا عليهم النوم ، فناموا فى الـكهف سنين عددا .

ثم بعثناهم ، ليـكون بعثهم من نومتهم الطويلة ، دليلاً جديداً على صحة عقيدة البعث .

والبعث بعد الموت ، كان ولا يزال مَحَكّ رسوخ الإيمان بالله ، ومثارَ الفتنة عند الملحدين ، ومزلقا يهوِى فيه مَن كان فى إيمانهم زَيْغ .

* * *

والناس لا يؤمنون إلا بالواقع المشاهد ، وكيف يسـوق الله إليهم يوم القيامة وقيام الساعة ، حتى يرَوْه بأعينهم ، ويشهدوا الصورة التى عليها يبعثون ؟

ويومُ القيامة فى غيب الله . لم يحن حينه ، ولم يأتِ أَوَانُه .

وكان لا بد لهم حتى يؤمنوا ، أن يُرِيَهم الله دليلاً محسوساً ، يشاهدونه ويحسونه . . .

فأمات الله ناساً منهم ، وطالت مَيْتتُهم سنين عددا ، ثم بعثهم .

والذى قَدَرَ على أن يبعث هؤلاء ، يقدر على أن يبعث الناس أجمعين .

* * *

وما الموت إلا شبيهُ النوم ، لا فرق بين الميت والنائم ، إلا نَفَسٌ يتردّد .

اللهُ يتوفّى الأنفس حين موتها والتى لم تَمُتْ فى منامها ، فيُمسك التى قضى عليها الموت ، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسَمًّى .

فمالكم تستعظمون فكرة البعث ، وتحْتارون وتشكُّون فى الحياة الأخرى ، بعد هذه الحياة ؟

* * *

هؤلاء الفتية ، ناموا نوماً عميقاً ، ثم بعثناهم لنعلم ونُرِى الناس المختلفين فى تقدير عمر هذا النوم . أيّهم أقرب إلى الصواب فى إحصاء هذه الفترة .

نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق ، إنهم فِتيةٌ آمنوا بربهم ، وزِدْناهم هدى .

وربطنا على قلوبهم ، وثبتناهم على عقيدتهم ، ورسَّخْنا إيمانهم .

* * *

والعاقل المفكر ، يُقلِّب الرأى ، ويمحِّص الفكرة ، حتى يخلص إلى عقيدة ، ومتى اعتقد ، تملكتْه عقيدتُه ، واستبدتْ به ، فلا يملك أن يتحرر من هذا الرأى ، الذى صنعه بتفكيره .

وهكذا كان أولئك الفتيان ، فقد اندفعوا تحت تأثير عقيدتهم ، وقاموا فى قومهم ، وأعلنوا دينهم ، وقالوا : ربُّنا ، ربُّ السموات والأرض ، لن ندعُوَ

من دونه إلهاً ، فإنْ دَعَوْنَا من دونه إلهاً ، فقد شططْنا وفسَقْنا ، وكنا قوماً ضالين .

وإنَّ قوْمَنَا هؤلاء ، قد اتخذوا من دون الله آلهة وأوْثانا وأصناماً يعبدونها ، فياليتكم يا قومنا ، تأتون على دينكم هذا بسلطان بَيِّن ، ودليلٍ مُقْنع .

وإلا فإنكم مُفْتَرون على الله ، ومَن أظلمُ مِمَّن افترى على الله كذبا .

* * *

وقال بعض الفتيان لبعض : إننا أيها الإخوان ، قد قررنا أن نعتزل هؤلاء المشركين ، وأن نتخلص من دينهم ، وصممنا على ألا نعبد إلا الله ، فهيا بنا نهاجرْ بديننا ، ونُؤْوى إلى الكهف ، نُودِعْه سِرَّنا ، ونقيم فيه ، ولعل الله ينشر علينا من رحمته ، ويهيئ لنا من أمرنا رشدا . ويرفق بنا فهو أرأف بالمؤمنين ، يهديهم الصراط المستقيم .

* * *

أليس من دلائل قدرة الله ، أن ينام هؤلاء الفتية ، فى فَجْوةٍ من الكهف ، تزورهم الشمس فى شروقها ، ثم تميل عنهم طول النهار ، فلا تزورهم إلا فى غروبها ؟

ذاك حنان الطبيعة ، تجعل الشمس تمدهم بأشعتها البنفسجية فى مشرقها ومغربها ، وتحجب عنهم أشعتها الحمراء المحرِّقة المؤرِّقة .

يا علماء الطبيعة ، يا مَنْ حللّتم الضوء ، وقرَّرتم أن أشعة الشمس ، حين الشروق وحين الغروب ، تتخذ طريقاً أطول فى وصولها إلى الأرض ، لشدة مَيْلها عليها ، فتكون أشعتها البنفسجية ، أوضح وأفعل فى الأجسام ؟

ويا علماء الطب ، يا مَنْ تعالجون المرضى بالأشعة البنفسجية ، أتروْن أن لها أثراً فى بقاء هذه الأجسـاد النائمة مئات السنين ، لا يدركها عفَنٌ ولا نَتَنٌ ولا بِلَى ؟

ويا علماء النفس والعقل الباطن ، ماذا ترَوْن فى نومتهم الصاحية ؟ فهذه نضارة الصَّحْوة بادية على وجوههم ، وقد تفتحت عيونهم ، وكلما تعبت جُنوبهم من طول الرقاد تقلبوا على جنوبهم ، فما تعليل هذه النَّومة الصاحية ؟

وتحسَبُهم أيقاظاً وهم رُقود ، ونقلّبهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال ، وكلبُهم باسطٌ ذراعيْه بالوَصِيد ، مُتمِعى بالباب ، لو اطَّلَعْتَ عليهم ، لوَلَّيْتَ منهم فِرَاراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْبا .

* * *

وبعثهم الله ، وسيبعث الخلق أجمعين يوم القيامة ، كما بعث هؤلاء بعد طول رقاد . والزمن جنس واحد ، طال أو قصر ، وما جاز فى مئات السنين ، يجوز فى ملايين السنين .

وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم : قال قائل منهم : كم لَبِثْتُمْ فى نَوْمتكم هذه ؟ قالوا : لَبِثْنَا يوماً أو بعضَ يوم . ثم قالوا حين اختلفوا فى تقدير الزمن : ربكم أعلمُ بما لَبِثْتُمْ .

وما لنا نُطيل البحْث والتحرِّى فى معرفة عمر الزمن ؟

أليس النوم قطعةً من أعمارنا ؟ وأليست الأعمار من تقدير الله وحده ؟

وما لنا نجهد أنفسنا فى تفتيق حُجُب الغيب ، فلْنَدَعْ الغيب لله .

ولنعشْ فى الواقع الحاضر الذى نحن فيه .

والواقع أننا فى حَيرة من أمرنا ، فهذه شعورنا المهدَّلة ، ولِحَانا الطويلة ، وأظافرنا كالحراب . ونَوْمتُنا المعمَّاة علينا فى فجوة الكهف .

ألا تشعرون بالجوع يُقوِّض ضلوعنا ، ويقرِّص بطوننا ؟

هيا ابعثوا أحدكم بوَرِقكم وفِضتكم . إلى المدينة ، فلْينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزقٍ منه ، ولْيتلطف .

والتلطف اصطناع اللطف والخفَّة ، وسُهولة المدخل والمخرج ، والتباعد عما يريب الناس ويثير شكوكهم فى مسلكه وطول لحيته ، وبروز أظافره ، وتخنخنه فى مشيته ، من طول رقاده ونومه ، ولا يُشعِرَنَّ بكم أحدا إنهم إنْ يظهروا عليكم ، ويعرفوا أمركم ، يرجموكم أو يُعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبدا .

* * *

ودخل رسولهم المدينة ، وعرض نقوده ، فأنكروها ، لقدم العهد بتاريخها ونقشها من عهد الملك دقيانوس ، وهو قد هلك منذ ثلاث مئة سنين ، وتسع سنوات .

فانكشف أمرهم ، وعرفوا سِرَّهم .

وتدارسوا تاريخ الفِتْية الذين فرّوا إلى الله بدينهم .

* * *

وتجلت حكمة الله فى العثور عليهم ، فقد وضح لهم وللناس من حولهم ،

أنَّ وعد الله حق ، فهو يكرم المؤمنين ، ويحميهم من الكافرين ، ومَن يهد الله فما له من مُضلٍّ .

وليعلم الكافرون المنكرون ، أن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأن الله يبعث مَن فى القبور ، وليعتقد الناس أن أصحاب الكهف دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

وهاج الناس وماجوا ، وراحوا إلى الكهف ، ليَروْا الفِتية المؤمنين ، وليعرفوا خبرهم ، وليتحدثوا إليهم .

ولكنهم دخلوا عليهم ، فوجدوهم قد بدءوا من جديد ، ينامون نومةً نائمةً أبديَّة .

فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ، ربُّهم أعلمُ بهمْ .

وقال ذوو الرأى فيهم لنَتخِذَنَّ عليهم مسجدا ، نصلى ونسجد فيه ، بقرب هؤلاء الفتيان الراقدين ، حتى نكون أقرب إلى الموعظة .

وحتى يتجدد لدينا ، حين كل صلاة ، دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وذهب الناس مذاهب فى عدد هؤلاء الفتيان .

فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة ، والكلب رابعهم . وقائلٍ : إنهم كانوا خمسة والكلب سادسهم .

وقائل : إنهم كانوا سبعة ، والكلب ثامنهم .

وما الحكمة فى أنهم عدَّدوهم فى كل مرة بالعدد الفردى ، فإذا أضيف

إليه الكلب كان عدداً زوجياً ؟ لعل ذلك يرمى إلى فكرة الازدواج ، واصطحاب الرفيق فى الطريق .

قل ربى أعلم بعدّتهم ، ما يعلمهم إلا قليل .

ولا تُمارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظاهرا ، ولا تجادلْ فى شأنهم إلا جدالا خفيفا .

وإياكَ يا محمد ، أن تتحدَّى بعلمك الذى علَّمناك مَنْ لم نَمُنَّ عليهم بمثل علمك .

ولا تسأل مَنْ حَوْلك فى شأن أصحاب الكهف ، لا سؤالَ المسترشد ، ولا سؤالَ المتَعَنِّت . فإن كنتَ مسترشدا ، فإن فيما علمناك الكفاية ، وإن كنتَ مُتعنتا متحدِّيا ، كان ذلك منك إعناتا للناس ، وتجهيلاً لهم ، وفيه تفضيحٌ للمسئول ، وتزييفٌ لما عنده وهذا مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق .

ولا تَسْتَفْتِ فيهمْ منهم أحداً .

ويا محمد ، إياكَ أن تَعِدَ بشىء فى غدٍ من قبل أن تقول — إنْ شاء الله ، فَلعلَّ احتجاب الوحى عنك ، حتى أخلف وَعْدَك ، يُعلِّمُك أن تذكر قدرة الله قبل قدرتك ووعدَه قبل وعدِك .

ولا تقولَنّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله ، واذكرْ ربك إذا نَسِيتَ ، وقلْ عسى أنْ يَهْدِينى ربى لأقربَ من هذا رَشَدا .

الرجل الطواف

ويسألونك فى الثانية يا محمد عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا .

اسكندر الأكبر المقْدُونى ، كانت له خصلتان من شعرٍ خشن ملتفّتان على جانبى جبهته ، وربما كان أغراه منظره ، فأُعجب بهما ، وبرَمَهُما حتى كانتا كحربتين فى جانبىْ رأسه ، وربما دهنهما بأدهنة كما يفعل بعض الناس فى شواربهم ، فيبرمونها ويفتلونها حتى يقف عليها الصقر .

فأصبحت الخصلتان كالقرنين . ومن أجل هـذا غلبت عليه التسمية فسُمِّى — ذا القرنين — .

* * *

وكان سؤال اليهود عنه ، عن الرجل الطواف . فيه تعْمية وإلغـاز ، ليختبروا محمداً فيما يخبر به فى هذه المسألة ، فجاء القرآن مُعْجِباً فى إخباره ، مبيناً أوضح علامة فيه ، تدل على قوة نفسه وجسمه ، وشجاعته وعزمه ، والشجاعة والإقدام أقوى أسلحة الحرب والغزو والطواف .

* * *

وهو رجل طيب صالح ، مكَّن الله له فى الأرض ، بالعقل الحكيم ، والصحة والقوة والغِنى والعدد الكبير ، والجيش الكثير ، والهيبة والرهبة ، فاجتمع له العلم والقوة وعُدة القتال .

* * *

وسار بجيوشه نحو الغرب ، حتى أطل على المحيط الأطلنطى ، وحتى لم يبق أمامه شبرٌ من الأرض لم يستولِ عليه .

وماذا بعد غزو الأرض ؟ أيغزو الماء ؟ وماذا بعد غزو الماء ؟

ثم أين نهاية العالم ؟ لقد رأى قرص الشمس العظيم ، يصفرُّ ويتضاءل ثم يهوى ويسقط غارقا فى الماء والطين .

وسرح اسكندر سرحةً فى خيال وتأمل :

أهذه الشمس المدفئة المحرقة ذات الضوء الوهَّاج ، تذوى فى عين ماء ؟

أهكذا تنطفىء شعلة الحياة ، فنقع فى قبورنا ، كما تقع هذه الكرة ، فى عين الماء الحامية ؟

أهكذا يكون مصيرى فى عظمتى وقوتى ، مثلما صارت هذه الشمس فى عظمتها وقوتها ؟

أهكذا يذوى العالم ويذبل ، ويدخل بكل مافيه فى جوف الفناء ، حتى لا يبقى إلا قدرة الله ووجه الله !

وأليس الله القادر على إخفاء الشمس فى غروبها ، وإحيائها وبعثها فى شروقها ؛ أليس قادراً على بعث الخلق ، وما مثل الخلق إلا كنملٍ يدب على برتقالة ، وما البرتقالة إلا كرة الأرض ، وما الأرض إلا جزء من مليون جزء من الشمس .

ألفُ دليلٍ ودليلٍ على صحة عقيدة البعث ، ولكنَّ الناس لا يعقلون .

* * *

والتفت ذو القرنين ، فوجد قوما همجا ، يعيشون بلا دين ولا خلق ، كما تعيش الوحوش هائمة على وجوهها ، فلما دعاهم إلى الله ، لم يستجيبوا ؛ فسلطه الله عليهم :

قلنا ياذا القرنين ، إمَّا أَنْ تعذب هؤلاء على كفرهم ، وإما أن تتخذ فيهم حُسْناً ، بأن تصابرهم فى الدعوة ، كما يفعل الدعاة المصابرون ، أو تخفف تعذيبهم ، وتكتفى بأسرهم وأسْرُهم هو الحيلولة بينهم و بين ما يفعلون من جرائم وسيئات . وترشدهم إلى ما فيه خيرهم ، وتنهاهم عما فيه فساد مجتمعهم .

فقال ذو القرنين : أما من ظلم نفسه باتباعها هواها ، و إصرارها على كفرها فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نُكْراً أليما .

وأما من آمن بدعوتى ، وعمل عملا صالحا ، واتبع ما أمرنا به ، واجتنب مانهيناه عنه ، فله جزاء الحسنى ، فى الدنيا ، نعامله معاملة المحسنين الصالحين وفى الآخرة يدخله ربه جنة النعيم .

وسنقول له من أمرنا يُسْرا ، فنستحسن منه إحسانه ؛ ونكافئه عليه ، ولا نكافه شططا ، ولا نُعْنِتُه ولا نرهقه ولا نشقّ عليه .

* * *

وأدار اسكندر وجهه نحو الشرق ؛ بجيوشه وخيله ورَجِله ؛ وسار وأبعد فى السير . حتى لقد خُيِّل إليه أنه وصل إلى أول العالم من شرقه ، كما كان وصل إلى آخره من غربه ووقف على حافة المحيط الأعظم ، وماذا بعد الماء ؟

لقد رأى الشمس تشرق من الماء . فوقف يتأمل فى صنع الله ، الذى أماتها فى غروبها ثم أحياها فى شروقها ، فأين كانت لما غربت ، ومن أين برزت لما أشرقت ؟

ويا ترى كيف باتت ، أسكنَتْ عن حركتها وكفّتْ عن دورانها ، أم كانت تُطِلّ على أقوام آخرين غيرنا ؛ فجعلت ليلنا نهارهم ، وكان نهارنا ليلَهم ؟ سبحانك ربى .

أين أنا : بعَدَدِى وعُدَّتى ، وسيفى ولأَمتِى : ما نحن إلا هوَام وذرَّاتٌ تهيم فى ملكوتك وما نحن إلا ضعاف عجزةٌ على شاطىء جبروتك .

وأتمَّ الإسكندر صلاته وتسبيحه . ثم التفت فرأى قوما هائمين فى الفلوات لا زرع ولا ضرع ، ولا سقف ولا ظل ، الريح بعَصْفها ، والشمس بوهجها ، قد دبَغتْ جلودهم ، وسوَّدتْ وجوههم ، وقست عليهم طبيعتهم ، فقست قلوبهم ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وصعبت طباعهم . فدعاهم الإسكندر إلى ربهم ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فسلطه الله كذلك عليهم ، إما أن يعذب ، وإما أن يتخذ فيهم حُسْنا .

والله قد وكل إليه أمرَ هؤلاء الناس ، لأنَّ الله يعلم ما انطوى عليه صدر الإسكندر من العدل فى الناس ، وحب الخير ، وهداية الضالين ، وإصلاح مجتمعهم ، والسعى فى إسعادهم .

كذلك — وقد أحطْنَا بما لديْه خُبراً .

* * *

وعاد الإسكندر الطَّواف ، فواصل زحفه بجيوشه متجها نحو الشمال ، وسار وأبْعد فى السير حتى بلغ بين السَّدين ، بين جبلين عاليين . فى أقصى الشمال من المعمور ، فوجد هنالك ، فى الوادى المحصور بين الجبلين ناسًا

ولا كالناس ، كأنهم ليسوا من بنى الإنسان وإنما هم أشباه الحيوان ، لايكادون يفقهون قولا ، ولا يفهمون إشارة ولا رمزاً .

يأكلون النيِّء ، ويتغذَّوْن بخشاش الأرض ، وينهشون العظم ، ويأكلون لحوم البشر ، فهم أناسيُّ الغابات ، وهم أدْنأ السلالات ، وأحط المجموعات .

* * *

وعجب ذو القرنين ، ووقف ساهما يفكر فى شأن مجموعات وخلائق من بنى آدم ، تعيش هائمةً سائمةً كما تعيش العجْماوات ، ولا تدرى حلوًا من مر ، ولا حلالاً من حرام ولا سعادةً من شقاء ، ولا نعيماً من جحيم .

* * *

وسرح الإسكندر يناجى نفسه ، ويتجه إلى ربه ، أتحاسب هؤلاء المخلوقات يا ربى ؟ أو تأخذهم بما منحتهم من عقول لم يستنيروا بها ، أم إن رحمتك يا ربى تُعْفِى هؤلاء ؟ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ؟

* * *

وسأل عنهم جيرانهم ، فقالوا : ياذا القرنين ، إنَّ يأْجُوج ومأْجُوج ، مُفسدون فى الأرض ، فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، يكفينا شرهم ، ويعيشون من خلفه وحدهم .

* * *

قال : ما مَكَّنِّى فيه ربِّى خيرٌ ، فأعينونى بقوة ، وأمِدُّونى بالعمَّال والفَعَلة ، و بأدوات البناء ، وأنا بجيشى ، ومَنْ معى ، من أهل الخِبرة والصناعة ، أجعلُ بينكم و بينهم رَدْمًا وسدًّا . آتونى زُبَرَ الحديد ، وقِطَعَ المعادن واصهروها ، واجعلوها ذَوْباً ، وابنوا معى .

حتى إذا ارتفع البناء إلى أعلى سفح الجبلين ، قال : آتونى أُفْرِغْ عليه قِطْرا ، من هذا الحديد المصهور ، وصُبُّوه عليه ، واتركوه يبرد و يجمد .

وكان ذلك سدًّا من فولاذ ، أملس لا يستطيع أن يتسلَّقه إنسان ، ولا أن تخرقه أو تنقبه قوة .

فلما اطمأن عليه ، وأمِنَ غوائل هؤلاء الهَمَج ، يأْجوج ومأْجوج ، قال : هذا رحمةٌ من ربى ، إذ مَكَّننى أن أفصِلَ بين الصَّالح والطَّالح ، والطَّيب والخبيث ، و بين الحق والباطل .

وستأمنون شرهم ، حتى يجىء وَعْدُ ربى يومَ القيامة ، فسيجعله ربى دَكًّا تدكُدِكه نفخةُ الصُّور ، كما تُدكْدِكُ الجبال ، فتجعلها هباءً مُنْبَثًّا ، وكان وَعْدُ ربى حقا . وتركْنا يأْجوجَ ومأْجوجَ ، بعضُهم يَمُوج فى بعضٍ ، ونُفِخَ فى الصُّور ، فجمعناهم جمعا ، والصُّور البُورى فى الجيش ، يعلن الانتباه ويوقظ النيام ، والمراد به إعلان أمرِ الله .

* * *

وهكذا كان إسكندر ذو القرنين ، الرجلُ الطواف حول العالم .

وهكذا كان دليلاً جديداً على صحة عقيدة البعث ؟

أفلا نعتقد ؟

عيسى

مريمُ ابنة عمران ، التى كفَلَها ورباها زكريا فى المحراب ، والتى أَحْصَنَتْ فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنَها آيةً للعالمين .

* * *

قالتْ الملائكة : يا مريم ، إن الله اصطفاكِ ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين .

قالت الملائكة : يا مريم إن الله يُبشِّرك بكلمةٍ منه ، اسمُه المسيحُ عيسى ابن مريم ، وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المُقَرَّبين ، ويكلم الناس فى المهد وكَهْلاً ، ومِنَ الصالحين .

* * *

واذكرْ فى الكتاب مريم ، إذ انتبذَتْ من أهلِها مكاناً شرقياً ، فى فى دارها ، ودخلتْ خَلْفَ ستارٍ ، اتخذته حجاباً بينها وبينهم ، لتستحمّ ، فأرسلنا إليها جبريل رُوحَنَا ، فتمثَّل لها بشراً سَوِيًّا ، جميلَ الخلْق ، لطيف الطَّلعة ، مُسْتَوِىَ التكوين .

فلما رأته وهى عُرْيانة ، فزِعَتْ لوجود إنسانٍ غريب فى حَمَّامِها ، فهو شابٌّ ، وغريبٌ ، ويقتحم عليها ، مع أنَّها استترتْ عن أهلها ومَحارِمِها ، قالت : إنِّى أعوذ وأحتمى بالرحمٰن منك ، حتى لو كنتَ رجلاً عابداً تقيًّا ،

حتى لو كنتَ معتصما بدينك ، يَرْدَعُك عن إرادة السُّوء بى ، فكيف بك إذا كنتَ فاجراً جريئاً تبتغى الشَّر مِنى ؟

قال جبريل : إنما أنا رسول ربِّك ، لأهَبَ لَكِ غلاماً زكيًّا .

فاندهشتْ العذراء البَتُول ، وفزِعَتْ فيه ، تسأله أسئلةً ثلاثةً متلاحقة : من أين يأتينى الوَلَد ؟ وكيف يكون وأنا لم أتزوجْ بَعْدُ ؟ وأليس عجيباً أن يكون لى ولدٌ وأنا شريفةٌ عفيفة ، لا أبيع جسدى للناس ؟

أنَّى يكون لى ولد ؟ ولم يمسَسْنِى بَشَرٌ ؟ ولم أَكُ بَغِيًّا ؟

وقال جبريل ، وهو فى صُورَةِ الشاب الجميل ، فى عَزْمٍ وحزْم وأمرٍ من الله : كذلك قال ربُّكِ فهذا الذى تستعظمينه وتَستبعدينَه هيِّنٌ على الله . وتلك هِىَ إرادة الله سبحانه ، ولحكمةٍ فى قضائه ، أن يجعله آيةً للناس ، ودليلا على قدرته ، أن يخلق ولداً من غير أب ، كما خلق آدم من غير أب وأم .

وفى أيامنا هذه شغلتنا جرائد الغرب ومجلاته بالعذارَى الحوَامل ، وبالعِلْم الحديث الذى لا ينفى أن تحمِل البنتُ وهى عذراء .

يأهلَ العلم ، حرامٌ عليكم ، لا تحمِّلوا العلم فوق ما يطيق ، وقرروا الحقائق إن كنتم صادقين . قولوا : إن العلم لا يمنع أن تتسرَّب جرثومة من نطفة الرجل إلى رحم البنت ، فتلتقى بجرثومتها ، فتتزاوج الجرثومتان ، فيكون الحمل ، وتنعقد نقطة الدم ، فتتكوَّن العَلَقَة ، ثم تكبر فتكون المُضغة ، ثم العظام فتكسى العظام لحماً ، ثم تنبعث فيه الروح فى الشهر الرابع ، فيتحركِ ، فتحس به الحامل فى بطنها ، ثم تستكمل أشهرَ الحمل ، وكل ذلك من

خلفِ غِشاء العُذرة ، وتبقى الفتاة عذراء حتى يحين وضع الحمل ، فينفتق كلُّ شيء حتى غشاء العذارة .

ذلك ما لا يمانع فيه العلم .

أما الذى لا يصدقه العقل ، ولا يعترف به دينٌ ، ولا ملّةٌ ، ولا خُلُق ، ولا مجتمع ، ولا مجامع أطباء الدنيا ، أن تنعْقد نقطة الدم من جرثومة المرأة وحدها . إذ لا بد فى الكهرباء من سالِبٍ ومُوجب ، والسالب وحده أو الموجب وحده ، لا يخلق كهرباء عاملة . والنبات من بذرة تتجاوب مع خصوبة الأرض .

وما كان أبداً أن خُلِق جنينٌ فى بطن أمه من غير جرثومة الرجل إلّا هذه الحالة المعجزة ، التى لله وحده ، حالة عيسى ابن مريم .

وهنا نسجل هذه الحالة التى وقعت فى ريفٍ من أرياف مصر ، إذ حملت بنت عذراء ، فانقبض لذلك الأهل والأنْسِباء والمُصَاهرون .

وهمّوا بها على عادة الريف ليقتلوها .

وكان أن أدركتها عناية الله ، وكان أن رحمها بالحقيقة لما اتَّضحتْ :

كان أبوها الريفى مع أمها منذ قريب ، وقبل أن تنقضى ست ساعات من ذلك اللقاء ، وهى العمر المقرَّر لبقاء الحياة فى جراثيم النطفة ، حدث أنْ خلع الأب سِرْواله ، وتركه لبنته لتغسله ، وهى فى بيتها تلبس أىَّ غُلالة تسْترها ما دامت من وراء بابها ، وبينما هى تغسل ، طرق الباب طارق ، فكان لا بدَّ لها من أن تفتح الباب للطارق ، ولا تفتح وهى بهذه الغلالة الرقيقة على جسدها ، فلا بدّ أن تلبس سروالا ، وأىُّ سروالٍ يكفى ، فلبستْ سروال أبيها ، وفيه

الجراثيم المنوية حيَّة ، فتسرَّبت إليها جرثومة ، إلى رحمها ، فحملت وهى عذراء .
وكانت هذه الضجة .

هذا هو الرأى ، ألَّا حملَ ولا جنينَ إلا من بين امرأة ورجل .

ولا بدّ من جرثومة الرجل ، فلا تكفى جرثومة امرأة إلى امرأة كما فى السحاق بين امرأتين .

* * *

يأهل العلم لا تفتحوا هذا الباب ؛ فتهوِّنوا جريمة الحمل من غير رجل ، ولا بد من رجل ، ظهر أم خفى ، فى حِلٍّ أو فى حرمة ، فذلك شأنٌ آخر .

* * *

لقد شقَّت هـذه المعجزة على العقول ، فتحركت لتعليلها ، وأخذ بعض المفسرين للقرآن ينتحل لها بعض ما يُهَوِّنُها على الأفهام . فقال : إن الحكمة فى أن الله بعث جبريل إلى مريم ، وهى عريانة متجردة ، وفى الحمام ، وشكَّله فى صورة شاب قوى بادِن ، وسيم ، جميل الطلعة ، أمرد ، سَوِيِّ الخَلْق ، لتستأنس بكلامه ، و . . . ولتهيج بذلك شهوتها ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، وذاك وقت لتلك !

* * *

وأراد الله يا مريم أن يجعله رحمةً للناس ، يهديهم . ويأخذ بيدهم من ظلام الكفر والشرك إلى نور الهداية والإيمان بالله . وليمحو من عقائدهم نكران عقيدة البعث . ولتُشرب قلوبهم الاطمئنان إلى قدرة الله على الخَلْق بأية صورة ، وعلى الإعادة . والإعادة أهون من الإنشاء والبدء .

وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه .

* * *

وكان لمريم موقفٌ عجيب ، مريم بنت عمران ، التى رُبِّيَتْ فى المحراب ، بكفالة النبى زكريا ، زوج خالتها ، وهى التى اصطفاها الله وطهَّرها ، واصطفاها على نساء العالمين أجمعين . قُدِّرَ عليها أنْ تحمل ، وأن يُخْلق فى جوفها جنين ، وأن يتحرك ، وأن يكبر ، فيكبر بطنها ، وتظهر عليها أعراض الحمل ، التى ترى على الحوامل ! وماذا يدور فى خلدها ؟ وكيف كان وقْعُ ذلك عليها ؟

وماذا يقول الناس فيها ؟ وماذا يجرُّ ذلك على سُمعة أهلها ؟

* * *

لِتَكُنْ إرادة الله ومشيئته ، فى بلائه وقضائه ، فلتستتر فترة ، وليكن بعدها ما قدَّر الله .

فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا ، تبعد به عن القوم ، ولتعتكف فى ركن من الدار ، أو فى دار أخرى غير الدار ، وأهلها يعلمون من أمرها نها طويلة الاعتكاف فى التبتُّل والعبادة .

حتى جاءها المخاض ، وعوارض الوضع ، وما يسبق الولادة ، من وجع طلق ، واسترخاء فى الجسم ، وترهّل فى اللحم ، تمهيدا لبروز الجنين ، إلى عالم نور ، وهى وحيدة ، لا مؤنس ، ولا مؤاسى ، ولا مشجِّع ، إلا نخلة فى الدار ، نامت إليها ، واستندت عليها ، واحتضنتها ، وكلما مزقت فى رحمها الطلقة ،

وعنُفَ بها الألم صرخت واستغاثت ، وقالت : يا ليتنى مِتُّ قبل هذا ، وكنتُ نسياً مَنْسِيًّا .

* * *

وما كان تمنّيها أن تموت وتُنْسى ، من ألم الولادة ، فكل حبلى تقاسى ألماً ووجعاً فى ساعة الولادة . وإنما كان ذلك من هول نتائج الولادة ، وأن يصبح تحتها ولدٌ ، وتأتى الناس على صياحه ، فتقع أعينهم على حَدَثٍ فاضح ، وأىّ فضيحةٍ أن يكون ولدٌ ولا والد ؟

وليس من وراء ذلك إلا أن ينظروا إليها ، وهى قد خدعتهم بصلاتها وصيامها وقيامها ، وأنها بعد ذلك لم تصُنْ نفسها ، وأنها جرّت مقالات السوء على أهلها ، وكيف يستقبلون ولدها ؟ أهم يُبْقون عليه ؟ أم هم قاتلوه وما أذنب ؟ ومن يُربّيه ، وإلى مَنْ تنْسُبه ، والولد منسوبٌ لأبيه ، وبماذا تسمّيه ؟

أَبِيَدِى أقتله أنا ؟ هو ولدى ! وقطعةٌ حرّى من كبدى !

أستغفرك يا ربى ، فقد وعدتنى ، أنك ستجعله آية للناس ورحمة ، ولا تكون آيتك يا ربى من زِنى ، ولا تكونُ رحمتُك يا الله مِنْ حرام !

أستغفرك يا الله ! ولتكن إرادة الله !

* * *

ومِنْ خلال تلك الأطياف التى تمزّق رأسها ، سَمِعتْ نداء من تحتها : ألاَّ تحزنى يا مريم ، فإن كنتِ وحدك ، فالله معك ، وهو أرحم بك .

إن هذا الوليد الذى نزل منك ، وما يزال تحتك ، سيكون سيدَ الناس ،

نبيلا كريما ؛ وسريًّا عظيما . وقد جعل ربُّك تحتَكِ سَرِيًّا . وسَرِيُّ الناس نبيلُهم وسيدهم .

لا يصلح الناس فوضى ، لا سراة لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالهم سادوا

* * *

ولا عليكِ يا مريم ، فأنتِ في غنى عن الناس ، قومى وتحركى ، ولا تتخاذلى وهُزِّى جذع النخلة ؛ يتساقط عليك رطبُها جنِيًّا ، فكلى واشربى ، واهدئى ، واطمئنى ، وقرِّى عينا .

وأَريحى نفسك من كلام الناس ، ولا ترُدِّى عليهم إذا سألوك ، ولا تغضبى إذا أغضبوك ولا تثورى إذا اتهموك ، واخلصى من كل ذلك وأعلنى الصيام عن الكلام ، فالله سيتولى الدفاع عنك ، وسيُعْلِن براءتك .

وهزِّى إليكِ بجذع النخلة ، تُساقِطْ عليك رطباً جنيًّا ، فكلى واشربى ، وقرِّى عينا ؛ فإمَّا تَرَيِنَّ من البشر أحدا ، فقولى : إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أُكلِّمَ اليوم إنسيًّا .

* * *

وكان لابد للمؤمنة ، الواثقة من ربِّها ومن نفسِها وعفَّتِها ، أن تطمئن ، وأن تستردَّ قواها ، وأن تقوى مَعْنويَّتها ، فأتت به قومها تحمله :

يا لِلْهول . ويا لِلفضيحة والعار ، مريم العذراء البَتُول ، تحمل طفلا على كتفها ؟ وتدخل على أهلها ؟

ماذا أصابها ؟ أهى تتحدَّاهم بفعلها ؟ أم تبغى أنْ يتَستَّروا عليها ؟ أم هى جاءتْ لتَضَعَ نفسها ووليدَها بين أيديهم ليثأروا لشرفهم منها ؟

وانهالتْ عليها أسئلتهم : يا مريم ؟ لقد جئتِ شيئاً فرِيًّا ! جُرْمًا لا تُحتمل نتائجه ! يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأَ سَوْء ، وما كانت أُمُّك بغيًّا ؟ تبيع نفسها للناس ! ويا مريم ، الفاحشة من بَنات الصالحين أفحش !

* * *

فأشارت إليه ، فكانت إشارتُها إثارةً لهم ، وإهاجةً لأعصابهم ، وامتهاناً لتفكيرهم ، فهمُّوا بها ، وقالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا !

وما خلَّصها من أزمتها ، وحَرَج موقفها ، والشر المحيط بها ، إلا رحمةُ الله أدركتها . وبركاتهُ حلَّتْ على ولدها ، فأنطقه الله شاهدا على براءتها ، ومُعْلِناً طهارتها ، ودافعا هجوم القوم عليها ، ولكن بكلامٍ غير ما يألفون ، وبدفاع غير ما يتوقَّعون .

وأىُّ براءةٍ وطهارةٍ وقدسية ، أكرم من أن ينطق بها الوليد ؟ وهذه معجزته ؛ وكرامةٌ لأمه ، فكان أن سجَّل أنه عبدٌ لله ، وعبد الله لا يكون إلا طاهراً من طهارة . وأنه عبد الله ، وليس ابنَ الله . وأنه نبىُّ الله ، مِنْ عند الله ، لا من عند الشيطان ، وأن الله قد منحه البركة ، وجعله حِصناً لأمه ، وجعل فى علاجه الشفاء ، فيبرئ الأعمى والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، وأن الله وصَّاه أن يكون مصليا مزكيا ، وأوْصاه أن يكون بارًّا بأمه ، يكرمها ويشرفها ، وأمره ألاَّ يتجبر ولا يتكبر ، وألا يُشْقِيَ نفسه بالمعاصى ، وألا يُشْقِيَ الناس بطغيانه عليهم أو بإشاعة الفساد فيهم .

وأن الله منحه السلام عليه ، كما سلم على زكريا من قبله ، والسلام أمانٌ

يحمله إلى قومه ، فهو فى سَلاَمٍ وأمانٍ من يوم وُلد ، وهو فى أمانٍ من أعدائه الذين هموا بقتله ، يوم رفعه الله ، وفى أمانٍ من غضب الله يوم البعث .

قال : إنِّى عبد الله ، آتانِىَ الـكتاب ، وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركا ، أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام علىَّ يوم وُلدت ، ويوم أموت ، ويوم أُبعث حيًّا .

دفاعٌ طويلٌ عن جناية ، أمام حُـكَّامٍ غاضبين ثائرين ، فأبْلى عيسى فى دفاعه ، وكسَب البراءة لأمه ، ورسم معالم دينه ، وخطَّ الخطوط العريضة فى دستور الأخلاق ، ونشر راية السلام على نفسه وعلى قومه .

ومريم تُنصت للدفاع ، وتسجد شكراً لله على البراءة ، وينْزاح همُّها ، وتهدأ نفسها ، وتطمئن إلى الله ، فقد صدق وعدُه فيها .

* * *

وهى من أجل هذا ، أدارتْ ظهرها للناس ، وسدَّت أُذنيها عما يقولون ، ووضعتْ عيسى بين عينيها ، فاحتضنته وربّتـه ، وأقامت به زمناً فى بلدها الناصرة ، ورحلت به فترة إلى بيت المقدس .

وبيت المقدس مَرْبِضُ الأديان ومَحِلَّة دين موسى ، ومسكن الأحبار والرهبان .

وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين .

* * *

ويتسلل عيسى ، وهو غلام ، إلى مجالس الأحبار والرهبان ، من علماء اليهود ، من حَمَلةِ التوراة ، وشارحى التعاليم ، ومعلمى الدين . فيتتلمذ عليهم ،

ويحاورهم ، ويأخذ عنهم ، ويجادلهم ، ويضيق صدره بما يفتنون ، ويضيقون به حين يعترض على ما يقولون .

ويعلمه الله الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيلَ ، ويبعثه رسولا إلى بنى اسرائيل .

وبنو إسرائيل قد ضلوا ، وعمُوا عن دين موسى ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث وكذبوا بالحشر والحساب على ما قدموا ، وكفروا بالجنة والنار ، وشغلتهم الدنيا بزخرفها ، وانكبُّوا على المال يجمعونه من حِلٍّ ومن حرام ، حتى تاجروا بدينهم ، واستغفلوا الناس ، ونزفوا ثرواتهم باسم الدين . وإن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

وكفروا ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيما ، واتهموها ، ونهشوا عرضها ، بعد أن أظهر الله على أعينهم براءتها ، وما مَثَلُ عيسى عند الله إلا كمثل آدم ، خلقه من تراب .

لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهَوْن عن مُنكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيحَ ابن مريم ، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون .

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره .

* * *

وقفَّينا على آثارهم ، بعيسى بن مريم ، مصدقاً لمن بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظةً للمتقين .

* * *

وقال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، قد جئتكم بالحكمة ، ولأبيِّنَ لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعونى ، إنّ الله ربِّى وربكم فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم .

إنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلُق لكم من الطين كهيئة الطير ، أنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبْرِئ الأكمه والأبرص ، وأُحْيِى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم . إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ، ومُصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّم عليكم .

* * *

دعوةٌ عاقلة ، ودينٌ هادئ ، ورسالةٌ نيِّرة ، فاختلفوا عليه ، وضنُّوا بهيبتهم أن تزول ، وبسيْطرتهم على الناس أن تهون .

وعزَّ عليهم أن تجرُفهم رسالةُ عيسى بن مريم ، وقد كان منذ قريبٍ يجلسُ إليهم ويطلبُ العلم بين يديهم ، وكذَّبوه ، وتألَّبوا عليه ، وكادوا له .

فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر ، قال : مَنْ أنصارى إلى الله ؟ ومَن هم الذين يستجيبون لدعوتى فى الله ؟ ومَن مِنكم يؤمن بالله ؟ .

قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنّا بالله ، واشهدْ بأنّا مسلمون .

والحواريون تلاميذه ومُرِيدُوه ، والمؤمنون به ومصدقوه ، وهم السابقون الأولون فى دينه . وهم الحافظون لإنجيله ، الدارسون لكتابه ، المفسرون لآياته ، المسجِّلون لأناجيله ، وهم الذين سُمِّيتْ الأناجيل بأسمائهم ، فإنجيل متى ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل برنابا ، وأناجيل كثيرة .

وقد كتَبَ كل حواريٍّ إنجيله ، بحسب ما وعى وروى عن نبيه ، وبحسب ما ترسَّب فى ذهنه من صحبة عيسى ، فقد رفعه الله بغتة من قبل أن يُمْلى كتابه .

* * *

فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم .

اختلف بنو إسرائيل شيعاً ومذاهب فى شأن عيسى .

فمنهم الكافرون الحاقدون الجاحدون ، الذين لا يطيقون أن يكتسحهم عيسى ، بقوة إيمانه ، ونور يقينه ، وهم لا يهتدون ، ولا يرتضون إلا أن يطوُوا صفحته ، ويمحُوا مِلَّته ، ويقضُوا على حياته .

ومنهم الذين آمنوا به على جهالة ، وعُقمٍ فى الفهم ، وإغراقٍ فى الغُلُوِّ ، وانهيارٍ فى التفكير ، وزيغٍ فى العقيدة ، حتى قالوا : إن عيسى ابنُ الله ، وحتى قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وقالوا : الأبُ والابْن والروحُ القدس .

ومنهم الحواريون ، وهم المؤمنون الدارسون ، حاملو رايته ، ومُوثِّقو دعوته ومواصلو رسالته ، ومسجِّلو كتابه ، وأنصارُه إلى الله . وأقربهم مودة للذين آمنوا .

ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون .

وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ، ترى أعينَهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربَّنا آمنا ، فاكتبْنا مع الشاهدين .

وما لنا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يُدخلنا ربَّنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا ، جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار .

وجعلنا فى قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً ، ورهبانيةً ابتدعوها ، وأوغلوا فى الخوف من الله ، والانقطاع لعبادته ، رهبةً منه ، واختطوا لأنفسهم هذه الرَّهبنة من قبل أن يَفْرِضَها الله عليهم ، تطوعاً منهم وتبتُّلا ، وما اندفعوا إليها ، إلا ابتغاءَ رضوانِ الله .

ففريق التزمها ، وأخذ نفسه بها ، وفريقٌ زاغ فيها ، وصدَّ عنها .

فما رَعَوْها حقَّ رِعَايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرَهم ، وكثيرٌ منهم فاسقون .

* * *

وقال عيسى ، يُذكِّر بنى إسرائيل ، أَنهم كانوا أهل كتاب التوراة ، الذى جاء به موسى ، ويؤكِّد عقيدة التوحيد ، قال :

ياأهل الكتاب : لا تَغْلُوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنَّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا ، خيرًا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض .

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، قلْ : فمَن يملك لكم مِنَ الله شيئاً ، إنْ أراد أن يُهلك المسيحَ ابنَ مريم وأمّه ومَنْ فى الأرض جميعاً ؟

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيحُ ابنُ مريم ، وقال المسيح : يا بنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربَّكم ، إنّه مَنْ يُشْرِكْ بالله ، فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار .

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالثُ ثلاثةٍ ، وما مِنْ إلٰهٍ إلاّ إلٰهٌ واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم .

* * *

فما بالُ هؤلاء الناس ؟ يُسرفون على أنفسهم بالتّغالى فى حبّ عيسى حتى ألّهوه ، وما هو بإله ؟

ما المسيح ابن مريم ، إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسل ، وأمُّه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام ؟

وما بالُ هؤلاء القوم ، يظنُّون بعيسى الظنون ، ويثقلون عليه ، فكانوا من صَداقته ، مكانَ الدُّبّةِ الصَّديقة ، الجاهلة فى صداقة صاحبها ، وبجهلها وحُمْقها جنَتْ عليه .

* * *

لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكةُ المقرَّبون .

وما بالُهم أخرجُوه ، وافترَوْا عليه ، حتى جعلوه فى موضع التحقيق والسُؤال من ربه ، وإذْ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلتَ للناس : اتخذونى وأمّىَ ، إلٰهيْن من دون الله ؟ قال عيسى : سبحانك يا ربى وأستغفْرك ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحق ، إنْ كنتُ قلتُه ، فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلمُ ما فى نفسك ، إنّكَ أنتَ علاَّمُ الغُيوب ، ما قلت لهم : إلا ما أمرتَنى به ، أن اعبُدوا الله ربى وربَّكم ، وكنتْ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم . فلما توفَّيتَنى ، كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنتَ على كل شيء شهيد !

* * *

وما بالُ هؤلاء القوم يتشبثون بالتثليث ، والتثليث كُفرٌ ومُرُوق من حظيرة الأديان .

إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر ما دون ذلك لِمَنْ يشاء .

* * *

وما موقفُنا نحن المسلمين من هؤلاء ؟

وما حكمُ مَنْ يتودَّد إليهم ، ويتخذهم أصفياء وأولياء ؟

* * *

يأيها الذين آمنوا : لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضُهم أولياء بعض . تلْقُون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم .

ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل .

إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسُطوا إليكم أيديَهم وألسنَتَهم بالسوء ، وَوَدُّوا لو تكفرون .

لن تنفَعَكُمْ أرحامُكم ولا أولادُكم يوم القيامة يفصل بينكم ، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءَهُ ، وهو الحق مصدقاً لما معهم .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزىٌ فى الحياة الدنيا . ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون .

وكل متبعٍ لعيسى حوارىٌّ ، وحواريُّوه طبقات ، وفى الطبقات درجات ، ودرجات رسوخهم فى الإيمان مختلفات .

فالراسخون فى العلم مِنهم يقولون : ربَّنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين ، الذين شهدوا مَبْعث النبي العربى محمد ، الذى بَشَّرْتَ به ، فقلت : ومُبَشِّراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .

فآمنا به ، واتَّبعناه ، فَدِينُه مُصدِّقٌ لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجاءنا بالقرآن فيه هدًى ونورٌ للناس .

وقال الذين لم ترسخْ أقدامُهم ، ولم تُفْعَم بالإيمان قلوبُهم ، ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزِّلَ علينا مائدةً من السماء ؟

وفزع عيسى فيهم ، من زعزعة إيمانهم ، وتخلخلِ يقينهم ، وجرأتِهم على ربهم ، وقال خائفاً عليهم : اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين .

ولعلهم كانوا جياعَ البطون ، وجياعَ النفوس ، وجياعَ الاعتقاد ! ولمح فيهم أثرَ الهبوط ، وسيما الخفوت ، وسحابةَ الشك والقنوط .

ورأى أن يطرق الحديد المحمَّى قبل أن يبرد ، وأن يضىء فى الظلمة قبل أن تحلِكَ وتدلَهِمَّ ، وأن يمحو الشكَّ باليقين ، وأن يُلزمهم الحجة ، وأن يأخذهم بما تحدَّوْه . حين قالوا : نريد أن نأكلَ منها ، وتطمئنَّ قلوبُنا ، ونعلمَ أنْ قد صدقْتَنَا ، ونكونَ عليها من الشاهدين .

قال عيسى : اللهمّ ربَّنا ، أنزلْ علينا مائدةً من السماء ، تكون لنا عيداً لأوَّلِنا وآخرِنا ، وآيةً منك ، وارزقْنا ، وأنتَ خير الرازقين .

قال الله : إنى مُنزِّلُها عليكم ، فمنْ يكفرْ بعدُ منكم ، فإنى أُعذِّبه عذاباً ، لا أُعذِّبه أحداً من العالمين .

* * *

ويا ليتهم أشبعُوا جُوعَة بطونِهم ، ونفوسِهم ، وعقيدتِهم ! حين استجاب الله لعيسى ، وحقَّق رغبتهم ، وأجابهم إلى تحدِّيهم !

ولكنَّ فريقاً منهم ، ما تمتّعَ بالمائدة ، حين رآها تنزِلُ عليهم بين سحابتيْن ، ولا اقتنَع بما زَخَرتْ من ألوان الطعام والفاكهة .

فخانُوها ، وحنَثُوا بوَعْدِ الله ، وبوَعْدِ عيسى .

فعذَّبهم الله عذاباً شديداً ، لم يعذِّبْه أحداً من العالمين ، يومَ همُّوا بعيسى ليقتلوه ، فاختفى ، وألقى اللهُ شبَهَهُ على يهُوذا ، الذى غدَرَ به ، ودلَّهم على المكان الذى اختفى فيه ، ودخل عليه ، ليُخرِجَه إليهم ، فما وَجَدَه ؛ وخرج إلى القاتلين وقد ألقى الله شَبَهَ عيسى عليه ، فأخذه الله به وأخذوه وقتلوه وصلبوه . وما قتلوا عيسى ، وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم .

بل رفعه الله إليه . وكان الله عزيزاً حكيما .

معركة بين دينين

دِين اليَهُود وَدِين النصارَى

وقالت اليهود : عزيرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

ذلك قولُهُمْ بأفواههم ، يُضَاهِئُون قولَ الذين كفروا مِنْ قَبْل ، قاتَلَهم الله ، أنَّى يؤفكون اتخذوا أحبارَهم ورُهْبَانَهم أَرْباباً مِنْ دون الله .

واتخذُوا المسيحَ ابنَ مريم ربًّا من دون الله .

وما أُمِرُوا إلا ليعبُدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه ، عمَّا يشركون .

* * *

و بنو إسرائيل ؛ بمبدئهم الرَّجْراج ، وأخلاقهم المتَمايعة يخافون ، ولا يستحون فإذا مسَّهم الضُّر ، دعَوا الله مخلصين ، فإذا كشف الضُّرَّ عنهم ، إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون .

* * *

وهذا شأنهم مع موسى ، ومع هرون ، ومع زكريا ويحيى .

وهكذا كان شأنهم مع الأنبياء الذين أرسلوا فيهم : أرميا ، وشَعْياَ ومن بعدهم . كانوا يكفرون بهم ، ويهزءون برسالاتهم ، ولا يُلْقون بالا إلى تحذيرهم وإنذارهم ، ولا يخافون أن يأخذهم الله بكفرهم .

* * *

ويُسلِّط الله عليهم مُلوكَ بابل ، وسنحاريب ، وبُختنصَّر ، فيذْهُمونهم ، ويُوقعون بهم العذاب ، والخراب والدمار ، فيخربون عليهم ديارهم ، ويدكُّون معابدهم ، ويدمِّرون بيت المقدس ، معبدَهم ومبْكاهم .

* * *

فإذا ما ظهرت النَّصرانية ، وفيها تصديق لكتابهم ، وتِبْيانٌ لما خَفِيَ عليهم وهُدًى ونورٌ ، وحكمةٌ وموعظة ، وتحليل لما حُرِّم عليهم ، تراهم يصدون عنها ، ويستكبرون ويقاومون المسيحيَّة بكل ما يستطيعون ، ويشنُّون عليها حرباً طاحنة مُبيدة .

* * *

فذُو نُواسٍ ، ملك اليمن ، يكاد يُصْعق حين يسمع خبر نصارى نَجْران ويتوهم أن الدنيا لا تتسع لدينه ودينهم ، ولا لحياته وحياتهم ، فيهبُّ عليهم كعواصف الموت ، ولا يكفيه أن يقتل أو يشنق ، وإنما هو التعذيب والتمثيل ، وما هو إلا أن يحفر الأُخدود فى الأرض ، ويُسعِّر فيها النار ، ليشوى هؤلاء النصارى ، ويصهر أجسادهم ، بما تجرَّءوا على دينه دين اليهودية ، وبما صَبَئوا واعتنقوا النصرانية .

وما كان يطفِئ غُلَّته ، ويُبْرِدُ ثورته ، إلا أن يجمع جموعه وأعوانه ، ليَطَّلِعوا على هؤلاء المساكين المسيحيين ، وهم فى الأخدود يحترقون .

قُتِل أصحاب الأخدود ، النارِ ذاتِ الوقود ، إذْ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد .

وشاءت إرادة الله ، أن يقتصَّ لهؤلاء النصارى من ذى نُواس ، فمكَّن لبعض هؤلاء النصارى ، أن يفرُّوا إلى النجاشىّ ملك الأحباش والنَّجاشى إذ ذاك ظهيرٌ للنصرانية .

فهبَّ لنجدتهم ، وانتقم لهم وأخذ بثأرهم وأخذ يكيل الضربات لذى نُواس ، حتى طواه تحت قدميه ، وأدخل اليمن بين يديه .

* * *

وفى طَيَّةٍ من طيَّات الزمن ، تستَعِرُ الحرب بين الأديان .

لا . بل بين محترفى الأديان .

فما كان بين الأديان يوماً خلاف ، والدين لله ، وما دامت الأديان لله ، وفى الله ، فلا يكون بينها خلاف .

* * *

وإنما جاءت يُصدِّق جديدها ما بين يديه من قديمها ، ويزيد عليه ، ويفصِّل فيه ، ويوسع فى تشريعه ، ويُتمّ ما نقص ، وما يقتضيه تزايد العمران .

وعيسى مصدقٌ لموسى ، ومحمدٌ مصدقٌ لهما .

والإنجيل يكمِّلُ التوراة ، والقرآن متمِّمٌ للإنجيل والتوراة .

فتنازع البقاء لم يكن بين الأديان ، وإنما كان بين المتَّجرين بالأديان .

الكعبة

ودارت الأيام ، وأصبح أبرهةُ ملكاً على الحبشة ، وفيها دين النصرانية .
وحارب أبرهةُ اليمن واستولى عليها .

وغرَّه أن الحبشة بنصرانيتها ، غَلَبَتْ اليمن بيهوديتها ، فتملَّكه الغرور ،
واندفع يُوطِّد للنصرانية ، ويثبِّتُ مجْدها ويُعلي من شأنها .

* * *

وَرَمْزُ الأديان معابدُها ، ومن أجل ذلك يُفْرغ المتديِّنون قُصارى جُهدهم
في تشييدها وتعميرها ، وهندستها وتنظيمها ، وجَلْب العُبَّاد إليها .

وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .

وبنى أبرهة كنيسته ، وعلَّى وشَيَّد ، وشرَّف ومجَّد ، ولكنَّ الناس
عنه وعن كنيسته منصرفون .

والناس من أطراف الجزيرة العربية ، وما حول الجزيرة ، وفي اليمن
والحبشة ، يولُّون وجوههم شَطْرَ الكعبة في الحجاز ، يحجُّون ويتبركون .

والكعبة إذ ذاك مربض الأصْنام ، ومثْوى الأوثان ، ومعقِل الشِّرك
والوثنية . وهذه يا قوم كنيسةُ النصرانية ، فما لكم لا تعرجون ، وعليها لا تقبلون !

* * *

وكان يغيظه أن أصحاب الكعبة يدلُّون ويفخرون ، بأنها البيت العتيق ،

ذو المجد التليد ، وأنه أول بيتٍ وضع للناس ، بناه إبراهيم خليل الله ، وابنه إسماعيل رسول الله ، وربيبُ العرب .

وكان تنازع البقاء من جديد بين دينَيْن ومعبديْن .

وانتصب لحرب البقاء بينهما ميدانان ، فى اليمن ميدان ، وفى الحجاز ميدان .

* * *

وتسْبقُ الحروبَ دائماً أيامُ التعبئة ، وتُعبِّئ المعسكرات كل قواها ، وتتربَّص الدوائر ، وتتحيَّن الفرص ، حتى يحين الحين ، وتنطلق الشرارة الأولى ، فتندلع النار ، وتثور الأرض ومَنْ عليها .

وكان أن تسلل رجلٌ أحمق عربىّ ، من قبيلة كنانَة ، إلى كنيسة أبرهة ، وإلى أقْدسِ مكانٍ فيها ، إلى المذْبح ، وهو يُساوى المحرابَ فى مساجد المسلمين ، مَوْقفِ الإمام المصلين فى الصلاة ، ومَجْلِس الشيخ فى تلاوة القرآن .

وفى المذْبحِ من الكنيسة ، وفى غَفْلَةِ الحراس والعبَّاد ، قعد هذا الأحمق ، ثم قام ، وترك من ورائه نجاسةً وقذارة .

عقلٌ صغير ، ونفسٌ أصغر .

وأصغرُ من الصِّغار ، ذلك الذى يخفُّ ويتزعْزع ويفور للصغيرة .

فما كانت الفَعْلة لتثير مَلِكاً متديِّناً ، تشرَّب قلبُه التسامح والتوقِّى من الشرور ، والحذرَ من غَدْر الانْبِعاث وراءَ الغضب .

ولو كان تذكَّر المسيحيَّة السمْحة ، التى توصِّى بأنَّ مَنْ ضربك على خدك الأيسر ، فأدِرْ له خدَّك الأيمن ، ما كان هاج ولا ماج ، ولا أقام الدنيا وأقعدها .

* * *

فأين أنت يا أبرهة ، يا حاملَ لواء الدِّين ، والغاضبُ للمعبد ، حين تنفخ فى الصُّور ، وتهيجُ القومِ ، وتُجمِّع الجيوش ، وتسوق فى مقدمتها الفيلة الشداد الغلاظ ، يتزعمهم فيلك الأبيض ؟ .

جيشٌ جرار ، كان يمكن أن يُساق للخير والتعمير ، فتسوقُه لهدم بيت ؟ لهدم الكعبة ، منافسة الكنيسة ، والتى أغاظَكَ رَجُلها الكِنانىُّ الأحْمَق من رجالها .

* * *

ووصل أبرهة بجيوشه ، حتى وقف على باب مكة ، وأرسل فى طلب أصحاب البيت ، وخيَّرهم بين التسليم والتدمير .

فكانوا أعقلَ منه ، وأرشدَ رأيا ، وتركوا له مكةَ وأخلَوْها ، وتفرقوا فى الشعاب وسفوح الجبال ، وأسلموا أمرهم لله .

وقال له شيخ سَدَنَة البيت وخُدَّامه الشيخ عبد المطلب :

يا أبرهة ، إنا لنْ نقدر عليك ، فاتَّجه بحربك إلى ربِّ البيت ، وربُّ البيت يحميه وكان ذلك دعاء عليه ، واستعانةً بالله على عدوِّ الله .

وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ! .

أَلم تَرَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ؟ أَلم يجعلْ كيدَهم فى تضليل ؟
وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ، جماعاتٍ جماعاتٍ ، ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيل ؟
فجعلهم كعصف مأكول ؟ .

ولعل المراد بالحجارة الصغيرة ، جراثيم الأمراض ، تفشَّت فيهم ، وفتكت بهم ، فأنهكت قواهم ، وهرَّأت جُلودهم ، وسوَّست عظامهم ، وأفنتهم ، فجعلتهم رِمماً وجِيَفاً .

فمثلهم كمثل الزَّرع ، إذا أكلته البهائم وهضَمَتْه فى كروشها ، وأخرجته رَوْثا قذراً ، تشمئزُّ منه النفوس ، وتتقزَّزُ منه العيون .

* * *

ولحكمةٍ سابقةٍ فى علم الله ، أن تُدْرك عناية الله البيتَ الحرام ، وتحمىَ الكعبة من أصحاب الفيل ، فى تلك السنة المباركة ، التى ولد فيها النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، لتكون فيما بعد كعبةً المسلمين ، وقبلتهم فى صلاتهم ، ورمزَ دينهم ، ومزارَهم فى حَجِّهم ، ومركز دائرة اجتماعهم وتعارُفِهم ، ليشهدُوا منافع لهم ، ويذكروا اسمَ الله فى أيامٍ معلومات .

محمـــــد

أَلَمْ يجِدْكَ يتيماً فآوَى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟

* * *

عوَّضَه الله في يُتْمه خيراً مما فقده بفقْد أبيه ، فقد مَكَّن له أن يعيش في ظلال جده وعمه ، وحضانة أمه ، ثم استوى غلاماً فتِيًّا ، يتاجر ، وعرف الناس ، وكسَب ، وتزوج وخلَّف وأصبح يُؤْوِى اليتامى والمساكين .

وعوَّضه عِلماً وتجربة وخُلُقاً ، وربَّاه فأحسن تربيته ، ومنحه نُبوَّة ورسالة وشريعة ، وختاماً للأنبياء والمرسَلين ، وجعله أفضلَ الخلْق أجمعين .

وعوَّضه في فقره ، فأغناه عن الناس ، وبارك له في تجارته ، وأغناه بعزَّة نفسه ، وحسْن سُمعته ، وثقةِ الناس فيه ، وشمول دينه .

* * *

وحين كبر وبلغ السادسة من عمره ، أخذته أمه ، وسافرت به من مكة إلى المدينة ، لزيارة بنى النجار ، أخوال أبيه ، فهؤلاء قومٌ من رائحة أبيه الذى مات ولم يره ، وزورته البيت الذى مات فيه ، والقبر الذى دفن فيه . وأقامت في ضيافتهم ما أقامت ، ولقيت من إكرامهم ما لقيت .

وهى راجعة إلى مكة مرضت في الطريق ، فماتت ، ودفنوها في نزلةٍ اسمها الأبْواء .

فلما دفنوها ، وردَمُوا عليها بالتّراب ، وانصرف الناس ، لم يبقَ واقفاً

على هذا القبر ، فى الخلاء ، وفى لهيب الشمس ، وحريق الصحراء ، إلا صبىٌّ صغير ، سنُّه ست سنوات .

هو ولدها محمد ، وقف يبلِّل هذا القبر بدموعه ، ويرثى أمه التى كانت تعوِّضه عن أبيه ، فإذا هى بموتها ، تخلِّفُه من غير أمه وأبيه .

وتلفَّت حواليه ، فلم يجدْ إلا جاريته أم أيمن .

فمسح عينيه ، واسترجع نفسه ، واستجمع شجاعته ، وقال لها :

الآن يا أمَّ أيمن ، قد حُرِمْتُ الأبوَيْن ، وتعرَّيت من الظِّلَّين ، وأنا بين البلدين ، فإلى أين أذهب يا أم أيمن ؟

فتحدرت حبَّات دموعها ، وشَرِقَتْ بريقها ، وتَحَشْرَجَ صوتها ، وهى تقول : إلى أين يا محمد ؟ إلى أبيك عبد المطلب ، سيد قريش ، فى ظله وحِجْره تَعيش . وتَمْتَم الصبى ، وقال : أبى عبد المطلب ؟ أبى ؟ لا تقولى أبى ! فإن أبى قد مات ، واليوم ، مرةً ثانيةً مات .

قولى يا أم أيمن : جدى ، والجدُّ أبٌ أعلى ، وبينى وبينه ميدان يسرح فيه أعمامى ، وأبناء أعمامى ، وما أنا إلا واحدٌ من هؤلاء وهؤلاء !

واستظلَّ فى كنَفِ جده عبد المطلب سنتين .

* * *

فلما مات عبد المطلب ، وقف محمدٌ على قبره مع الواقفين .

فلما انصرفوا ، لم يبقَ إلا الغلامُ اليتيم ، يبكيه ويرثيه ، ويقطُر حبات دموعه عليه ، ويقول :

لقد كنتَ أبى بعدَ أبى ، وكنتَ مُفَرِّج كربى ، وماسحَ رأسى ، دافعَ بأسى وباعثَ أُنْسى ، أفيُجدى بعدَك التأسِّى !

والْتفتَ إلى أم أيمن من ورائه ، وسألها :

وإلى أين يا أمَّ أيمن ؟

وكفكَفتْ أمُّ أيمن من دموعِها ، ومسَّتْ كَتِفَه بيدها ، وقالت :

إلى أين ؟ إلى أبيك أبى طالبٍ يا محمد ؟

وتَمْتَمَ الغلام ، ثم قال :

أبى ؟ أبى أبو طالب ؟ يا أمَّ أيمن . لقد مات الآباء ! واليومَ مات أبو الآباء ! قولى : عمِّى أبو طالب . وعمِّى أبو طالبٍ ، سيِّدُ الرجال ، وكريم الخصال ، وعليه هيْبَةٌ وجلال ، ولـكنَّه يا أم أيمن : قليلُ المال وكثيرُ العيال ، أفَتُرِيدينَ يا أمّ أيمن ، أن أزيده حِمْلاً على أحمال ! ! وما أَرْضَى أنْ أعيشَ عِبْئاً على الرجال !

* * *

وبدأ محمدٌ يحمل نفسه ، ويعمل لعيشه ، ويرعى غنم الناس ، ليأخذ آخِر النهار أَجْرَه ويرْنُو إلى التجارة بعينه ، ويتعلق بأبى طالب فى سَفْرةٍ من سفراته إلى الشام ، فيتعرَّف الأسواق ، ويتمرَّس بالاتِّجار ، ويسير كَتِفاً بكَتِفٍ مع الناس .

* * *

وعلى قمة صخرة هناك بالشام ، يقيم الراهب بحيرى ، يطل على الغدين

والراْئحين . يتعبّد ويقرأ فى كتب الأولين ، ويفتح إنجيل برنابا ، فيتْلو ما قال عيسى ، ومُبشّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمُه أحمد ، إذا سار ظَلّلته سُحُب السماء .

ويرى بحيرى ، وهو يطل من صومعته ، قافلةً آتيةً من بلاد العرب ، تتْبعها غمامة فى السماء ، وما كان مألوفاً فى القوافل ، أن تكرِّمها السماء .

فدعا هؤلاء القوم إلى صومعته ، وما كان من عادته أن يدعوَ الناس ، وتفرّس فيهم ، حتى جلس إلى الشاب محمد يسأله ، ويقابل بين ما يرى فيه من ملامحَ وشواهد ، وبين ما قرأ من أوصافٍ وعلاماتٍ فى الكتاب .

ثم مال على عمه أبى طالب ، وهمس فى أذنه : يا أبا طالب ، خذْ ابنَ أخيك ، واضمُمْه إليك ، واحْذَرْ عليه ، وإنّى لأرجو أن يكون ذا شأنٍ عظيم .

* * *

وتسامع الناس بأمانته ، وبالبركة التى تحلُّ فى تجارته ، وتمنّى كثيرٌ من ذى التجارات ، أن يكون محمدٌ أمينَه وسفيره .

ودعتْه خديجة بنت خُوَيلْد ، الغنية الجميلة الجليلة ، ليتاجر فى مالها ، وأرسلت معه فى خدمته غلامها ، فربح لها ، وربح منها احترامَها وإعجابَها ، فعرضتْ عليه نفسَها ، وتزوَّجها ، ولوْ أنه كان أصغر سِناً منها ، فكانت الزوجة والحبيبة والرفيقة ، والسند فى الشدة ، والمفرِّجة للكربة ، والمصدِّقة يوم كذَّب الناس .

وكانت أولَ سيدة تدخل الجنة ، وكانت أمَّ أولاده ، وما كان له من أخرى غير إبراهيم ، وكانت أعزَّ نسائِه عليه ، وحزِن لموتها حتى بدا حُزْنُه وهُزاله !

* * *

دخل الكعبة يوماً على القوم ، وقد تواعدوا على الحرب ، وغمسوا أيديَهم فى الدم ، فقال عَلاَمَ يا قوم ؟ فقالوا : من أجل هذا الحجر الأسود فهو من تراث نبى الله إبراهيم ، من استأثر برفعه إلى مكانه ، كان شرفُه فوقَ القبائل أجمعين .

فبسط محمدٌ رداءه ، ووضع الحجر فيه ، فأمسكوا بأطراف الرداء ، ورفعوه ، وكلُّهم اشتركوا فيه ، وأخذه بيده فبناه فى موضعه ، وما استأثر به أحد ، ولا تخلَّف أحد ، وعادت السيوف إلى الأغماد ، وانْزاح شَبَحُ الحرب ، وشعَّ السَّلام والأمان !

* * *

وعاش عزيزَ النفس ، وادِعَ الخُلُق ، طيب السُّمعة ، نموذج المثال ، حتى بلغ الأربعين من عمره ، فاكتمل وعْيُه ، ونضج رأيُه ، واستوى خُلُقه وأدبُه ، وتسامَى عن كل ما يعيب الرجال ، فقد صنعه الله على عينه ، وأعدَّه لرسالته .

* * *

والرسالة ، مُهِمَّة خطيرة ، مهمة تغْيير دين بدين ، وخلْق عقيدةٍ تمحو عقيدة . والدِّين لصيقٌ بالروح ، وميراث الآباء ، وتركة الأبناء ، ومزاجٌ فى الدم ، وتقديسٌ للأصنام والأوثان ، فهى الآلهة ، وهى المعبودة المرجوَّة .

وكل كلامٍ يامحمدُ مقبول ، إلا أنْ تجترئ على الدِّين ، أو تسفه الأحلام ، أو تعيب على الآلهة ، فدون ذلك الخصومة واللَّدَد ، والقطيعة والحرب .

يا محمد ، إن كنت تريد غنى أغْنيناك ، أو سيادةً سوَّدناك فأمَّا الدينُ ، فلا .

* * *

واشتجر الدينان ، وبَرَزَتْ بينهما نظريةُ تنازُع البقاء ، وبقاءِ الأصلح .
وصحَّتْ النظرية وصدَقَتْ ، وتنازَعَ الدينان ، وثبتَ الحق ، وزَهَق الباطل
وصحَّ خَبَرُ النبي عليه الصلاة والسلام : لا يجتمعُ فى الجزيرة دينان .

* * *

وكان أولَ من أسلم ، وأولَ من لقى الخبر ، خديجه زوجته .

وسألت فى ذلك قريبَها ، ورقةَ بنَ نوْفل ، وعنده علمٌ من الكتاب فقرَّر صِدقه ، وتمنَّى أن يطول به العمر ، حتى يشهد بَعْثه .

وتنبَّأْ له بما سيلقاه من شدةٍ وعَنَتٍ فى دعوته ، وأنَّ قومه سَيُخْرِجونه من بلده ، واستعظم ذلك النبي ، وقال : أو مُخْرِجِيَّ هُمْ ! ؟

* * *

وأسلم صديقه أبو بكر ، وابنُ عمه عليٌّ بن أبى طالب ، وزيدُ بن حارثة ، أبو أسامه . وكانوا قِلَّة ، وكانت الدعوة سِرِّية .

وهكذا شأن الدَّعوات ، تبدأ سرِّيةً ، فتُعْرَضُ الفِكرة وتُمحَّص ، وتُربَّى فى الندوة ، وتنمو فى حِجْر الأقناع ، حتى إذا ما أصبحت عقيدةً ، ورسخت فى الأذهان ، وتمكَّنتْ من القلوب ، تملَّكتْ نواصِيَ المعتقدين .

* * *

والنفوسُ أقوى مِنَ الأجساد ، فلا الجسدُ يَثنى النّفسَ عن الاعتقاد ، ولا هو يستطيع أنْ يسوقَها إلى غير ما اعتقدت .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ فى مُرادها الأجسام

فلا يُؤثِّر تعذيبُ الجسم وأذَاد فى مَجْرى النفس ، ولا يَفُكُّ ما عقدتْ من عزم .

* * *

ذلك الذى أثر فى عمر بن الخطاب يوم أسلم ، ويوم جَهَر بإسلامه .

فقد كان أعنفَ الغاضبين على محمدٍ وأصحابه ، ومِنْ خشيته ، كان المسلمون يتوارَوْن فى ندوتهم السرية ، يعقدونها فى دار الأرقم ، ويُوصدون عليهم الباب مخافة أن يقتحم عليهم مُقْتحِم .

وهمس هامس فى أذن عمر : أنَّ أختك صَبَأَتْ ، واعتنقت الدين الجديد ، فغضب وثار ، ودق بابها ، وخَدَش وجهها ، وأسال دمها ، وضرب زوجها ، واختفى خبَّابُ مُقْرِئُها ، وهمَّ أن يأخذ الصحيفة من يدها .

ولكنها صرخت فى وجهه ، وقالت : هـذا كلام الله ، لا يمسُّه إلا المطهَّرون . فادخلْ إنْ شئتَ ياعمر وتطهَّر ، وإذ ذاك أُسمعك ما كنا نقرأ .

أليس ذلك من توفيق الله ، أن تَشُنَّ المرأةُ على عمر ، حربَ أعصابٍ ، فَنَمَلَتْ من حِدَّته ، وأطفأت من غضبه ، وليَّنت جماحَه ، بالدم السائل من وجهها ، وبالصرخة فى وجهه . والضَّن عليه أن يلمس الصحيفة قبل أن يتطهر ، وبالتطهر بالماء ، وللماء تبريد !

ويا تُرى ماذا حدثته نفسه فى كل ذلك ، لقد أنزل الله السكينة على قلبه وروحه حين أمسك الصحيفة وقرأ فى سورة طه : إنى أنا الله ! لا إله إلّا أنا ، فاعْبُدْنى ، وأقم الصلاة لذكرى ، إنَّ الساعة آتيةٌ ، أكاد أخفيها لتجزَى كلُّ نفسٍ بما تسعى !

ناقش عمرُ الرأى ، ومحّصه ، واعتقده ، فتملكتْه العقيدة ، فسخَّرتْ جسده ، فاندْفع إلى دار الأرقم ، ودَخَلَ وأسلم .

***

وفَعَلَتْ العقيدةُ فِعْلها فى أبى بكرٍ ، فأنفق كلَّ ماله ، وما خاف الفقر على عياله ، وفعلت العقيدة فى عثمان ، فهانت عليه كل تجارته وثروته .

وفى علىٍّ بن أبى طالب ، فوضع نفسه عرضةً للقتْل ليلة الهجرة ، فكان أول فدائى فى الإسلام وفعلت العقيدة فِعلها فى بلالٍ ، فأشعلتْ قلبه ، وأطلقتْ لسانه يقول : أحدٌ أحد .

***

وفعلت العقيدة فعلها فى النَّبى ، فما ألقى بالاً لوعيدٍ ولا تهديد ، ولا نظر إلى إغراء ، ولا غرَّه يومًا ثناء .

وعن العقيدة صدرت كلُّ أقواله المتحدِّية ، يوم قال : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، لم أترك هذا الأمر ، حتى يُظهرهُ الله ، أو أهلِكَ دونه .

***

وبالعقيدة جابَهَ دولة الشرك بأتْباعه الضِّعاف النِّحاف من المؤمنين . وبها تسامى عن أن يأبه لامرأةِ أبى لهبٍ ، تُلْقى فى طريقه الشَّوك والأَذى .

وترفع عن الوَقح عُقْبة بن أبى مِعْيط ، يوم أمسك بخناقه حتى كاد يقتله .
وما استفزَّه الغضب يوم ألقَوْا عليه كَرِش الذبيحة القذِر وهو ساجد فى الصلاة .

* * *

وبِحَمَاسِ العقيدة ، خرج هو وأبو بكر بالليل ، من وجه المتآمرين ، فارِّينْ بدينهما إلى المدينة ، لا يُباليان بالفُرسان المحيطين بالباب ، ولا المتابعين فى الطريق ، ولا بالكفار جميعاً ، وهم منتشرون فى الطرقات يطلبون دمه .

* * *

ذلك فعل العقيدة ، وذلك أثرها .

والفرق بين إنسان وإنسان وجرىء وجبان ، وصالحٍ وشيطان ، وكفرٍ وإيمان أنَّ هؤلاء اعتقدوا وأولئك لم يعتقدوا . فكان لهؤلاء مَبْدأ ، وبقى الآخرون مخلخلين مذبذبين .

* * *

وبالثقة الواثقة ، والاعتقاد الراسخ ، لم يتورَّع محمدٌ ، أن يُصْبِح ، فيَحْكى للناس ، أنه رحل إلى الشام ، ولقِيَ الأنبياء فى المسجد الأقصى ، وصلَّى بهم إماماً لهم ، وأنه عاد إلى مكة فى نفسِ الليلة !

* * *

وما من شك ، فى أن هذه الرحلة ، وهذا الإسراء بالليل ، والعودة فى نفس الليلة ، كان ذلك مبعثَ قولٍ وإنكار ، وشكٍ وتفكه وتندُّر من الجاحدين المنكرين .

فرحلةٌ طولها شهر ، والرجعة منها فى شهر ، تتمُّ فى ليلة وبعض ليلة !

وعجبُها أن تكون بروحه وجسده ، وقد تحدَّوْه وسألوه عن معالم الطريق ، وعن الغادين والرائحين ، وأين تُجَّارُهم وتجاراتهم فى الطريق ، ومن الراكبُ ومن الحادى ؟

فأجاب ، ووصف ، وتحدَّى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وآمن المعتقدون ، وأنكر المكابرون .

* * *

حتى لقد اختلف فيها المسلمون ، فقد قال الأكثرون ، إنها رحلةٌ جسدية ، بروحه وجسمه ، وقال آخرون : كانت بالروح ، والروح ترى وتصِفُ ، سواء أكانت فى جسمها أم تجرَّدتْ منه .

وقال ناس : إنها كانت بالرؤيا ، ورؤيا الأنبياء ، إملاء من الواقع والحقيقة .

وقالت عائشة : إنَّ االإسراء كان من بيتى ، وقالت ضُرَّتها أمُّ هانى : إنَّ الإسراء كان من بيتى ، ولم تفقِدْ إحداهما جسد رسول الله ليلة الإسراء .

* * *

وجزى الله العلم خيرا عنا وعن رسول الله ، فقد كشف العلم عن الأثير فى الجو ، وعن مَوْجات الصوت ، وسمعنا المتحدث فى أقصى الأرض بجهاز الاستقبال ورأينا الخطباء من أمريكا بجهاز التلفزيون .

* * *

ولعل القوم الذين كذبوا محمداً ، لو كان انكشف لهم من سرِّ الكون بقدر ما انكشف لنا ، ما كانوا كذَّبوه ، ولا كابروه ، ولعدلوا عن جحودهم الإسراء والمعراج .

* * *

وعاش محمد دهراً ، سعيداً بزوجته خديجة ، فلما ماتت حزن عليها أعمق الحزن ولو كانت زوجةٌ وزوجاتٌ غيرها ، ما ذهب حزنه عليها .

وما الحب إلا للحبيب الأول .

حتى إنه لما استأنف الحياة الزوجية بعدها ، استأنفها بفتاة صغيرة غريرة ، فى سن الحادية عشرة أو تزيد ، عائشة بنت صديقه أبى بكر . وتزوج حَفْصَة بنت صاحبه عمر ، وتزوج أم هانىء بنت عمه أبى طالب . وتزوج جويرية بنت الحارث ليؤلف قبيلة بنى المصطلق ، وتزوج زينب بنت جحش ، وهند ، وصفية ، وميمونة .

ولكل واحدة من هؤلاء فى زواجها بالنبى قصة ، وما أَنْسَتْه واحدةٌ منهن خديجة .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، تَغَارُ على النبى أشدَّ الغَيْرَة ، حتى من ذكر خديجة ، التى لم ترها ، وكانت تقول فيها ، كلما سَمِعتْ النبى يمجد ذكرها : « ما كانت إلا عجوزاً حمراء الشدقين » .

وكان النبى يقول فيها : مالها : صدَّقتنى يوم كذَّب الناس ، وواستنى يوم خَذَل الناس ، وتاجرْت بمالها ، وأنا أفقر الناس .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، تَغَارُ من كل امرأة ، فغارت من جُوَيْرِية بنت الحارث . وجُوَيْرِية بنت الحارث ، والحارث سيد بنى المصطلق ، وقبائل بنى المصطلق كثير عددهم ، أشداء فى عنادهم وحربهم ، حاربوا النبى ، وأدال الله له النصر عليهم فغلبهم ووقع ناس كثيرون منهم أسارى فى يد المسلمين .

وكانت جوَيرية إحدى الأسيرات .

ووزّع النبى الأُسَارى والأسيرات على المحاربين والفرسان من المسلمين بالقرعة ، فأصابت قرعة جوَيرية بنت الحارث ثابت بن قيس بن الشماس .

فلما كانت منه وجهاً لوجه ، تأبّتْ عليه ، وكاتبته على مبلغ من المال ، ليُعْتِقها به ولا تتزوجه . فرضى ، وانتظر حتى تعود إليه بالمال .

فإلى من تذهب وتستعين على التّحرُّر بالمال .

ولم تر أمامها إلا أن تطرق باب النبى ، صلى الله عليه وسلم .

فطرقت الباب ، ففتحت عائشة ، فوجمت لمرآها ، لمرأى فتاة جميلة مليحة قالت عائشة تروى حكايتها : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى ، حتى كرِهْتُها ، وعَرَفتُ أن رسول الله ، سيرى منها ما رأيت .

* * *

ودخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جُوَيْرِية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس ، فكاتبته وجئتك أستعينك على كتابتى !

قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟

قالت : وما هو يارسول الله ؟

قال : أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك .

قالت : نعم يارسول الله .

قال : قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، أن بنى المصطلق ، صاروا أصهاراً لرسول الله .

فأعتق كلُّ مسلم أسيرهُ أو أسيرته ، فأعتق الله أسرى بنى المصطلق .

وما إن بلغ الخبر ، حتى أتت قبائل بنى المصطلق إلى النبى مسلمين .

* * *

بل لقد اشتدت غيرتها على رسول الله ، يوم قال علىٌّ بن أبى طالب يارسول الله ، لا تحزن ، ففى النساء غيرها كثير .

وطوت هذه الكلمة لعلىٍّ بن أبى طالب ، بين طيّاتِ قلبها أربعين سنة ، ثم خرجتْ لحربه فى موقعة الجمل .

* * *

كان ذلك فى ليلة الإفك ، يوم تقوّل الناس عليها مؤْتفكين .

كان ذلك يوم أنْ خرج النبى لغزوةٍ من الغزواتِ ، وكانت عائشةُ معه فى الغزو ، فلما غزوا ورجعوا ، وطال على القوم السفر ، وانتصف الليل ، أَذِنَ النبى للجيش أن يحطوا رحالهم ، ليستروِحُوا ويستجموا ويستريحوا .

وكانت عائشة فى هوْدَجِها ، فأنزل الموكلون بها الهوْدج وأَبْعدوا فراحت هى إلى بعيد ، تقضى حاجة ، وهى جالسةٌ هناك ، أخذت تعبث بعِقْدها فانفرط ، وانتثرت حبّاتهُ ، فانشغلتْ فى جمعها ، وقضت مدةً طويلة .

وكان النبي قد أَذِنَ بالرحيل ، فرفع الحرّاسُ هوْدَجها على الجمل وهم يظنون أنها فيه ، فهى صغيرة ، خفيفة الشحم واللحم ، ولا يُحَسُّ وزنها .

وسار الجيش ، وخلّفوها ، فلما عادتْ ، لم تجدْ إلا نفسها ، فقبَعَتْ ، وطوَتْ نفسها على نفسِها ، والتفّت بردائها ، تنتظر قضاء الله فيها .

وكان يحرس مؤخّرة الجيش ، الفارسُ صفوان — يسير بعد الجيش بقدر ساعة مَسير ، فلما وصل ، دار فى المكان ، لعلّ أحداً نسِىَ درعه أو سلاحه .

فلم يجد إلّا عائشة ، فسألها ، فلم ترد ، فنزل عن جواده ، فركبت ، وأمسك باللجام ، وسار بها حتى دخل المدينة ، فى ضحوة النهار .

وكان ذلك الحادث ، فرصةً ذهبية للكافرين وللمنافقين ، يتقوّلون فيها ، ويأفِكون على عائشة زوجة النبى ، وبنت صاحبه أبى بكر ، وهى شابّة جميلة .

ما أخّرها ؟ ومع مَنْ وصَلَتْ ؟ وما صَفْوان ؟

وما مِنْ شك فى أن وقْع ذلك كان أليماً على نفس النبى ؟

واستشار اثنين من خاصته ، وأمسّ الناس به وأسْتَرهم عليه ، علىَّ ابنَ أبى طالب ، وأسامةَ بنَ زيد ، وكان أسامة منه بمنزله الولد .

فأما أسامة ، فمدح وأثنى وبرّأ ونفى الشك والشبهة .

وأما علىٌّ بن أبى طالب ، فقد تأثَّر لمظهر النبى ، وكَمَدِه وحُزنه وهُزاله .

وأحبَّ أن يخفف الوطأة على ابن عمه رسول الله ، فقال :

يا رسول الله ، لا تحزنْ ففى النساء غيرها كثير .

واسْأَلْ الجارية تجبْك .

واستدعى رسول الله جاريتها بُرَيْرَة .

وقبل أنْ تشهد ، قام إليها علىٌّ فضربها ضربا شديدا ، وهو يقول لها اصْدُقِى رسول الله .

قالت الجارية بُريرة : والله ما أعلم إلا خيرا وما كنتُ أَعِيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجِنُ العجين ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الغنم ، فتأكله .

* * *

وحفِظَتْ عائشةُ ذلك لعلى ، وبعد أربعين سنة ، خرجت لحربه .

* * *

ونزل القرآن فى سورة النور ، مُعْلِناً براءتها ، وبراءَة صفوان معها .
إن الذين جاءوا بالإفكِ عصبةٌ منكم ، لا تحسَبُوه شرًّا لكم ، بل هُو خير لكم .

* * *

إِذَنْ ، فلم يكن النبى مِزواجاً ، إلا لرَبْطِ صديقٍ كأبى بكر وعمر ، وإلا لربط قبيلةٍ وتوريطها ، كقبائل بنى المصطلق ، أو لتعويضِ أرْمَلةٍ انقطعتْ واستشهد عائلُها وزوجُها فى الحرب .

أو كان ذلك لتشريعٍ يدفع الحَرَجَ عن المسلمين ، يوم أن كانوا يتحرجون من التزوج بزوجات أدعيائهم .

* * *

وإلا ففيمَ قضى النبى ربيعَ العُمْر إلى خديجة وَحْدَها ، لم يتَّسعْ قلبُه لغَيْرها ؟

التحريم

الغَيرة ، وقانا الله نارها .

يروى فى الأساطير ، أن إبليس لمّا أكلت نار الغيرة قلبه ، من آدم ، وسكناه فى الجنة ، وسجود الملائكة له ، وطيَّشت الغيرة عقله ، فقال لربه : أنا خير من آدم ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .

يروى أن إبليس ، أجهد نفسه فى تدبير حيلة ، ليخرج بها آدم من الجنة ، ودبر أن تكون الحيلة ، توقع آدم فى العصيان ، فتوقعه فى غضب ربه ، فيطرده من الجنة .

يروى أن إبليس ، اخترع المرآة ، وصنعها كبيرة ، على قدر نافذة واسعة ، وجاء حواء ، وما كانت تعرف الزجاج ، ولا المرآة ، ولا أنها تعكس الأشياء ، وقال يا حواء : أين آدم ؟ مالى أراه مشغولا عنك ؟ إنى أراه يغيب ، فيطول غيابه ! فقالت حواء : إنه يا إبليس هناك ، فى روضة نائية من رياض الجنة ، يتعبد ويتأمل ، ويطيل السجود تحت عرش الله ، غارق فى تأملاته وتسبيحاته ، فلاخوف عليه من غيابه .

فقهقه إبليس ساخراً من قولها ، هازئاً من غفلتها وبلاهتها ، واستغفال آدم إياها ، وأنه مشغول بحواء أخرى غيرها ، تزوجها ، ونعم فى جوارها ، وغرق فى السعادة بضرة متّعته فى رحاب فسيحة فى أطراف الجنة .

فوجمت حوّاء واذعرت ، وانخلع قلبها ، وما يخلع قلب المرأة إلا الغمرة .

وكذبت إبليس ، وغطت عينيها بيديها ، استبشاعاً للخبر ، وقالت : يا إبليس ما خلق الله فى الجنة ، ولا فى العالم حواء لآدم غيرى .

وقهقه إبليس ، وقال : يا حواء يابلهاء ، يا غافلة . صدقينى ، فأنا آتٍ من هناك ، وقد رأيتهما بعيني ، يسرحان ويمرحان .

قالت حواء : أو أستطيع يا إبليس أن أراها بعينى ، فأصدقك !

فأدار إبليس المرآة أمام حواء ، فرأت وجهها وجسمها فى المرآة ، وصدقت أنها رأت بعينها ضرتها ، التى اختطفت آدم من أحضانها ، فبرد جسمها ، والتهب قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها ، وفعلت الغيرة فعلها .

وهبت تجرى لتبحث عن آدم ، فاستوقفها إبليس ، ليهمس فى أذنها ، ويوسوس لها : أن آدم حين يراها من بعيد ، سيخفى حواء الجديدة . ويغرك بأن يسجد ، ويطيل السجود ، حتى توقظيه ، فإذا سألتيه ، أنكر واستبعد . فإذا أصرّ على إنكاره وجحوده ، فاستحلفيه ، وسيحلف ويحنث فى يمينه .

قالت حواء : يا إبليس ، أكثرتَ علىَّ ، وحيَّرتنى ، وما أستطيع أن أكلفه فوق يمين بالله إنه لمن الصادقين ! .

وقهقه إبليس قهقهة عالية صاخبة ، دوّت فى أذنيها ، وقال يا حواء يا مسكينة ، إن آدم يهون عليه كل غال ، فى سبيل حواء الجديدة ، وأنا حزين عليك ، أفكر فى أمرك ، وسوء مصيرك إذا هجرك ، ومن ذا يكون لك إذا كان قد هجرك وغدر بك .

يا حواء : لا تستحلفيه ! ولكن ضيقى الخناق عليه ، وخذيه تحت الشجرة المحرمة ، واقطفى منها ثمرة وقدِّميها إليه ، فإن امتنع عنها وأبى أن يأكل منها ، كانت حواء الجديدة عروساً جديدة ، فاتنة زوجك ، خاطفة آدم ، وأكون قد صدقتك ، فلا تكذبينى فيما أقدم لك من نصيحة .

وإن أكل من الشجرة ، كان آدم صادقاً ، وكنت كاذباً ، فلا أعود عليك بعدها بنصح ولا إرشاد .

* * *

وجرت حواء تبحثُ عن آدم فى جنبات الجنة ، فلما عثرت عليه ، ارتمت بين يديه ، شاكية باكية ، تلطم خدها ، وتندب حظها وتتهمه بالغدر والخيانة وتنذره بالوبال والنكال ، وتذكره أنه لها وحدها فكيف ، يشرك معها غيرها ؟ ويتزوج ضرة عليها ؟ .

فنفى آدم خبرها ، وعجب أن يرد هذا الخاطر على بالها ، وذكرها أن حواء واحدة فى الجنة ، وأنه لا نظير لها ، ولا مزاحم فى حبها .

وبكت ، ودمعت ، وأرسلت الزفرات والآهات ، وأطالت النحيب والعويل ، وآدم يطيب خاطرها ويربِّت عليها ، ويُذهب شَبحَ الضرة عنها ، ويحلف لها ، وينقطع عن العبادة ، ويجلس جنبها .

ولكن نار الغيرة مستعرة ، فقالت : يا آدم ، دعْ أيْمانك وحِلفانك ، يا آدم ، تعال تحت الشجرة المحرمة ، فهناك تظهر الحقيقة ! .

يا آدم هنا ، فى ظلالها ، وتحت ثمارها ، لا تستطيع أن تكذبنى .

هنا يا آدم : تستطيع أن تريحنى ، وتطفىء نار غيرتى ، وتنفى الشك الذى يقتلنى ، إذا أكلت من هذه الشجرة ! .

وانزعج آدم من هول ما طلبت ، وذكرها أن الله حرمها عليهما ، وأن غضب الله لا شك محيق بهما .

ولكن الغيرة أعمت عينيها ، وإبليس أجَّج لهيبها ، وطمس على قلبها ، فصرخت وصاحت ، وردَّ الصدى صراخها وصياحها ، حتى لكأن الجنة قد ملئت حواءات تصرخ وتصيح معها .

ورق قلب آدم ، وأدفأ الحنين جسمه ، وسوَّخ عزمه ، وأسال عبرته ، وخشى على حواء أن تموت من غمها ، فانكبَّ عليها يقبلها ، ويمسح بخدّه دموعها ، وهى تمد يدها فى فمه بثمرة من ثمار الشجرة ، فأكلها .

فبدت لهما سَوْءاتهما ، وانكشف سترهما ، وحل غضب الله عليهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين .

وفعلت الغيرة فعلها ، فطردهما الله من الجنة ! .

* * *

وفعلت الغيرة فعلها ، فألهبت قلوب إخوة يوسف ، ابن ضرة أمهم ، فرموه فى الجب .

وألهبت الغيرة قلب سارة زوج سيدنا إبراهيم على ضرتها هاجر ، فحتَّمت على إبراهيم أن يأخذ هاجر وولدها إسماعيل ، ويرميهما فى الوادى الخراب .

وألهبت قلب أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر زوجة النبى ، على ضرتها السيدة خديجة ، حتى كانت تقول فيها : ما كانت إلا عجوزاً ، حمراء الشدقين .

وغارت السيدة عائشة ، من ضرتها جُويْرية الجميلة بنت بنى المصطلق ، حتى كانت تقول : والله لقد كرهتها منذ رأيتها ، وكرهت أن تدخل على رسول الله ، فيرى من جمالها ما رأيت ! .

وغارت عائشة على النبى ، من قولة علىّ بن أبى طالب : يا رسول الله ، لا تحزن ، فنى النساء غيرها كثير ، وخرجت بعد أربعين سنة ، لحرب على فى موقعة الجمل .

* * *

وسرت عدوى الغيرة ، على رسول الله ، بين نسائه ، حتى إنهن غِرن جميعا ، من مارية القبطية الجميلة ، التى لم يسكنها معهن فى المدينة ، وإنما أسكنها فى ضاحية العالية فى منزل أنيق ، تحيط به الزروع والكروم .

ووهب الله له منها الولد ، يوم لا ولد ، ويوم استبدت به اللهفة على الولد ، فأكثر من التردد عليها ، والمقام عندها ، ليشبع جوعة الخلف ، وليروى ظمأه ، ويشرب الرحيق من تقبيل ولده إبراهيم .

* * *

ومالك يا عائشة ، لا تستطيعين أن تخفى غيرتك يوم حمل النبى إليك ولده إبراهيم بين يديه ، فما باركت ، ولا بششت ، ولا أحسنت استقباله ! وأنت تعلمين أنه بلسم لجراح دامية فى قلب النبى ، وقد أشرف على الستين

بلا ولد ، لا من عائشة ، ولا من حفصة ، ولا من صفية ، ولا من ميمونة ، حتى ولدا خديجة ، قد ماتا من قبل إبراهيم ! ».

* * *

لقد سئمت حفصة بنت عمر ، زوجة النبي ، المقام على الغيرة ، فاستأذنت فى أن تزور أباها عمر فى داره ، فأذن لها .

وصادف أن جاءت مارية القبطية من ضاحية العالية ، ودخلت على النبي ، فأنزلها فى منزل حفصة ، وهى غائبة .

وأحسَّت حفصة ، فأسرعت ورجعت ، ورأت ضرتها فى منزلها ، فغارت وحسبت أن ذلك إغاظة لها ، وامتهانٌ لكرامتها ، فغضبت ، ولسعتها الغيرة ، فبكت ، واحتجت ، ورفعت صوتها ، وقالت : أفى بيتى ، وعلى فراشى ، يا رسول الله !

والنبي لا يحب ذلك ، ويرى أن يسكت هذه الضرة الغيرانة ، ويرى أنها سوف لا تسكت إلا بمضارة ضرتها ، فأسرَّ فى أذن حفصة كلمة سرَّها إليها :

أيرضيك يا حفصة أننى حرَّمت على نفسى مارية أم إبراهيم !

ولكنْ يا حفصة ، إذا كان هذا فى مرضاتك ، فعليك أن تحتفظى بسرِّى ، لا تفشيه ولا تذيعيه .

ولِمَ كلّ هذا يا محمد ؟ تحرم على نفسك ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ؟

وما أنت بمرضيهن مهما جاملت ، وهن لم يجاملنك ، حتى لو طوحت بها فى الوادى السحيق كما طوح إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل !

وهن لم يجاملنك حتى فى موت إبراهيم !

* * *

أرأيت يا محمد ، أنك حين استرضيت حفصة بنت عمر ، بتحريم مريم أم ولدك ، على نفسك ، واشترطت عليها ألا تذيع ؛ أرأيت أنها نفذت عهدك وطوت فى قلبها سرك ؟

المرأة هى المرأة ، إلا من عصم الله ، وزوجاتك أمهات المؤمنين ، غيورات عليك ، ولا تطيق حفصة أن تطوى صدرها على نار غيرتها ، ولا بدَّ لها أن تفضفض عن نفسها ، وتتناجى بهمها إلى زميلتها عائشة بنت أبى بكر .

ولا سرَّ مودعٌ بين ثلاثة ، فقالت عائشة لصفية ، وقالت هذه لتلك ، وقالت تلك للأخرى .

* * *

والنبى ليس خالياً لمثل هذه المماحكات بين الضرائر .

فله من أمر المسلمين ، ومن الرسالة ، ومن شئون العبادة ، ومن تصريف الناس ، ما لا يبقى من وقته لهذه أو تلك .

فاغتم لذلك ، واعتزلهن فى خلوته ، وأقام مولاه رَبَاحاً أبا بلال على باب الخلوة ، لا يسمح لزائرة ولا زائر ، واعتكف شهراً كاملا ، حتى تحدث الناس ، وخمَّنوا ، وظنوا أن النبى مطلق زوجاته جميعاً .

* * *

وتلك أزمة ، ترج النبي ، وتطلق الألسنة الحداد عليه وعلى نسائه ، وتهز المجتمع الإسلامى ، وما يزال فى بدء حياته ، وطراوة شبابه .

* * *

ومَنْ لهذه الأزمة ، يدركها قبل أن تستحكم وتستفحل ويفوح ريحها ، ويعلو دخانها ؟ مَنْ لها غير عمر ؟

لقد استأذن على النبي ، فما أذن ، فرفع صوته ، فأُذن له ، ودخل عمر ، ورأى من حال النبي ما أبكاه ، فبكى .

وعمر بارع ، فما هذا بالموقف الذى ينفع فيه البكاء ، وإنما هو المواساة والتفاهم والإقناع .

وحاور النبي وداوره ، حتى أذهب عنه غمه ، وسرَّى همه ، واستشفع فى النساء المخطئات .

وقال : يا رسول الله إنَّ نساءك ، إن كنَّ غيورات ، فإنَّ غيرتهن عليك . وليست غيرتهن إلا حباً فيك ، واحتفاظاً بك ، واستئثارا بشرف المثول بين يديك .

* * *

وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به ، وأظهره الله عليه ، عرَّف بعضه ، وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به ، قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنِيَ العليم الخبير ، إن تتوبا إلى الله ، فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه ، فإن الله ، هو مولاه ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير .

عسى ربه ، إن طلقكن ، أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات ، وأبكارا .

وخرج النبي من اعتكافه ، وبارح خلوته ، وعاود نساءه ، وقد رجعن إليه واعتذرن من جرأتهن عليه .

وعرفن أن الغيرة نار ، وما يجدر بهن ، أن يزدْن النار لهيباً .

وقانا الله نارها !

التبنى

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم فى الدين ، ومواليكم .

* * *

جرت سُنَّة العرب ، على التَّبَنِّى ، واتخاذ أبناء الغير أبناء .

وكانوا يحلونهم محل الأبناء من الصلب والنسب ، فيخلعون عليهم من الحدب والكفالة ، ومن التوريث ، ومن الإقامة بين المحارم ، ويتوجونهم بأسمائهم وألقابهم ، وأمجاد قبائلهم وأسرهم ، حتى لكأنهم من أصلابهم .

* * *

وكان هؤلاء الأبناء الأدعياء ، سدًّا منيعاً فى وجه الأهل والأقرباء ، فى وجه الوالدين ، والأخوة والأخوات والأهل فى الميراث ، وفى حرمانهم من المودة المحبة ، وكانوا سببا فى كثير من مشاكل الأسرة .

* * *

وكانوا بذور الكراهية ، بين الرجل الذى تبناهم وبين أهله ، وكانوا ينظرون إلى هذا الدعى ، وقلوبهم ضائقة به وعواطفهم جامدة عليه ، فهو مقتحم عليهم أسرتهم ، ودمه ليس من دمهم ، وإذا ورث اسمهم ، ومجد

أسرتهم ، فسرعان ما يتحلل منه ، ويتنكر له ، ويخلع النسب الذى أضفوْه عليه .

وهو إذا حجب الورّاث ، واستحوذ على المال ، كان هذا المال هيناً عليه فيبدده ويهلكه فى الكيد لهم .

وهو إذا أقام فى منزل الرجل الذى تبناد ، مع زوجته ، لم يجد من نفسه ولم تجد من نفسها عاطفة بنوة ولا أمومة .

* * *

وجرت سُنَّة العرب ، أن يكرموا هؤلاء الأدعياء ، فيحرموا على أنفسهم أن يتزوجوا زوجات هؤلاء المتبنَّيْن ، إذا طلقوهن ، أو ماتوا عنهن ، وكان هذا الحرج ، أظهر مظاهر التَّبنِّى والأدعاء .

وسبق فى علم الله ، أن يحرِّم التبنى والأدعاء ، لما فيه من تعكير صفاء الأنساب ، ولما فيه من خلق الكراهية من الأقرباء ، ولما فيه من تحدى لإرادة الله حين يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيما .

* * *

وهيأ الله ، جلت حكمته ، لهذا التحريم سبباً ، يهدم به هذا العرف ، ويقوض به أركان هذا التقليد .

وأن يكون معولُ الهدم ، والخارجُ على العرف ، والمستهدفُ للتجريح

والنقد ، هو محمدًا نفسه . فهو أقدر على التجريح والنقد ، وهو أجلد على مجابهة الغمز واللمز .

* * *

كان ذلك يوم أن وهبت السيدة خديجة ، مولاها وعبدها ، زيد بن ثابت الذى اشترته بمالها ، لزوجها محمد ، ليكون عبده ومولاه .

والنبى ، محرر للعقول ، فكيف لا يعتق الجسوم ؟

فأعتق زيداً ، وتبنَّاه ، وأكرمه ورعاه ، وأفرغ عليه عاطفة الأبوة الشاغرة وعرف الناس أنه ابن محمد ومتبنَّاه .

وأراد النبى ، أن يتوج هـذا العطف على مولاه زيد بن ثابت ، بأن يزوجه ، وأن يزوجه إحدى كرائم العرب ، وذات الأصل والحسب .

وكان أن اختار له ، زينب بنت جحش ، وهى بنت عمته ، وخطبها له .

واستعظمت زينب ، واستعظم أخوها عبد الله ، أن يتزوج زيد هذا ، فتاة عربية أصيلة حرة ، لم يجر فيها استعباد ولا رق كما جرى فيه ، مهما كان مولى النبى ، ومهما كان قد أعتقه .

ولكن القرآن نزل يحطم هذه العنجهية ، ويروِّض هذه العصبية المترفّعة . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومَن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا بعيداً .

وتزوج زيد بن ثابت ، العبد المولى ، زينب الحرة الأصيلة الجميلة ، وعاشا

زمناً ، يتودد إليها ، فلا تود ، وتروض نفسها على زوجها ، مرضاة ، والتزاماً لاختيار النبي ، ويحس زيد منها كل آونة ، تـكرُّهاً وتأبِّياً وتسامياً .

ويسبق فى علم الله سبحانه ، أن هذا زواج ، له نتائجه وخطورته .

* * *

والنبي يدرك ، أن هـذا زواج على تـكرُّه وتأبِّى ، وأنه لا بد صائر إلى الانفصال .

* * *

ولـكنه لا يسبق الحوادث ، ولا يتعجلها ، ولا يود أن يفصل فيه ، من قبل أن يفصل الله فيه .

فإذا جاءه زيد متبرماً من كبرياء زينب ، واستعظامها عليه ، شاكياً منها مستأذناً فى طَلاقها ، استمهله النبي ، وطيب نفسه ، ووعظه وصبَّره .

ويدخل عليها النبي فينصحها ، ويسلس جموحها على زوجها ، ويروضها على الرضا بإرادة الله .

ويخرج فيقول لزوجها : أمسك عليك زوجك ، فهى كريمة وأصيلة ، واتق الله فيها ، وعالجْ فيها هذه الأنفة ، ولا تطلقْها ، فتـكسر نفسها ، وتطلق ألْسنة الناس فيها ، فالطلاق لجيعة النساء .

* * *

والنبي يقول ما يقول بلسانه ، ونفسُه مدركة نهاية هذا الزواج ، ويخفى هذا الإدراك ، ويستر ما يعلم ، حتى يُظهره الله .

والنبى يدرك ويعلم أن تطليقها سيحدث رجة فى المجتمع ، وخلخلة فى التقاليد .

والنبى يخشى أن يقرّ تطليق الزوجة ، إذا تأبّت على زوجها العتيق .

والنبى يخشى أن يطلق زيد زينب ، فقد تصبح زوجة للنبى ، من بعد زيد مولاه ، فيخرق العرف ، وينقض التقاليد ، إذا تزوج زوجة متبناه فيدركه الحرجُ ، ويدرك الناس .

والنبى من أجل هذا ، يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس ، والله أَحق أن يخشاه .

وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا ، زوّجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا

* * *

وما الإنسان ، إلا عقلٌ وعواطف ، فإذا غلب العقل على العاطفة ، كان ذلك خير ما يرجى من إنسان مهذب عاقل ، لا تغلبه عواطفه ، ولا تستهويه شهوته ، ولا تستبد به نزوته .

فإذا منح الله الأمان من العواطف لإنسان ، وضمن له السلامة من الزلل : كان ذلك هو العصمة ، التى لا تمنح إلا للأنبياء .

* * *

ولـكن ليس معنى العصمة والأمان من الزلل ، وتغليب العقل ، ورجحان البصر على العواطف والوجدان ، أن عواطف المعصومين قد ماتت ، أو أن أحاسيسهم قد تبلدت ، أو أن وجداناتهم قد سقمت ، أو عيونهم قد انطرفت ، عن مشاهدة جلال الله فى جميل صنعته ، و إدراك الجمال البادى فى خلقه .

* * *

هم ناس ، لهم إحساس ، ولـكنهم معصومون ، يرون الجمال ، فيقع فى نفوسهم ، أو يقعون فيه ، فيتحركون له ، ولـكنهم فى نطاق العصمة محروسون .

* * *

و إذن فلا غرابة ، أن رسول الله ، حين دخل يحدثها فى شأن زوجها ، وقد تبدت له ، أن وقعت فى نفسه ، فسبَّح الله فى جلاله ، ومجده فى جمال خلقه ، وهمَّ خارجا من فوره ، وقال : سبحانك يا مقلب القلوب .

* * *

ورأت زينب ذلك منه ، وسمعت تسبيحه ، فأشفقت على النبى ، وذكرت ذلك لزيد بن ثابت .

فدخل فى نفســه شىء منها ، واستشعر فى نفسه فرق ما بين منزلته وقدرها ، فطلقها .

* * *

وكان سفيرا فى تزويجها من النبى ، ليمتحن الله قوته فى إيمانه ، وسيطرته على نفسه وغيرته ، ورسوخه فى عقيدته ، وأن ذلك إنما كان تشريعاً للناس ، إلا شباعاً لرغبة ، ولا اتباعاً لهوى .

* * *

وتزوجها النبي ، وحطم ذلك التقليد العتيق ، المحرج للعرب ، الجالب للنفرة ، المقطع لأوصال القرابة .

لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم .

* * *

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لآبائهم . هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم فى الدين ، ومواليكم .

* * *

وكانت تلك منزلة شريفة ، هزت نفس زينب ، وازدهتها ، واستخفتها فرحاً بزواجها من رسول الله .

فكانت تباهى وتفاخر بها زوجات النبي الأخريات .

وكانت تقول لهن : أنا خير منكن ، فقد زوجكن آباؤكن وأولياؤكن وأما أنا ، فقد تولى الله تزويجى من رسول الله .

فأين منى أنتن !

المظاهرة

كذلك جرت سنة العرب فى الجاهلية على المظاهرة .

والمظاهرة أقسى وأعنف أنواع الطلاق .

والطلاق أبغض الحلال إلى الله .

فإذا غضب الرجل على الزوجة طلقها ، فإذا اشتد غضبه عليها ، وعنف فى غضبه ، حتى ما يعود إليها ، ظاهر منها ، فقال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى .

* * *

طلاقٌ لا رجعة فيه ، وفراق لا وصال بعده ، وأسرة تتفكك ، وأطفال تُشَرَّد ، فإذا بقوا مع الأب ضيعتهم زوجة أبيهم ، وإن راحوا مع الأم جوَّعهم زوج أمهم .

* * *

ومن أجل هذا ، حرَّم الإسلام المظاهرة ، لجنايتها على الأسرة والزوجة ، والأبناء .

وما جنى الأبناء ذنباً ، إلا ما جناه حمق الآباء .

وما جنت الزوجة ذنباً ، إلا ما جناه سَفَه الأزواج ، وسوء تصرفهم فى حق التطليق ، فيحرمون زوجاتهم على أنفسهم ، كتحريم أمهاتهم عليهم .

وفرقٌ كبير بين الزوجة والأم ، فالرجل من أمه ، وأمه له ، لا فِصال ولا انتقال . ولكن الزوجة غريبة لا يربطها به إلا عقدة الزواج ، فإذا

ظاهرها انفصمت العقدة ، وانحل الرباط ، وتقطعت حبال المودة ، وغادرت البيت ، وامتد لهيب الغضب إلى الأبناء فحرّقتهم نار الهجران .

* * *

ومن أجل هذا نزلت أربع آيات من القرآن ، تحرم المظاهرة من الزوجات ، وتندد بالمظاهر ، وتوبخه وتقرعه ، على فعله الخطير ، المفكك للجماعة ، المشرد للأطفال ، الموجب للجفوة والعداوة بين الأصهار .

* * *

ووصف القرآن علاجاً لهذا الداء ، ودواء يشفى منه ، ويؤدب الحمقى من الأزواج ، والعلاج قاس ، والدواء مر ، ولكنه يؤدب الجاهلين البطرين بنعمة الزوجية ، ويعود بالخير على آخرين .

والداء الذى لا بد أن يتجرعه مَنْ يظاهر من زوجته حتى يخف ويعود صحيحاً معافى فى نفسه ودينه وأسرته وينعم ثانية فى رحاب زوجته ، ولمّ شمل أولاده ، أن يعتق رقبة عبد من عبيده ، فيكسب العبد حريته ، ويكسب المجتمع الإسلامى نفساً تحررت ، وتُضم إلى مجموعة الأحرار ، وتنقصُ عدد العبيد المؤمنين .

وقد لا يتيسر هذا الدواء الآن ، دواء عتق الرقبة ، فقد مضى زمن الرق ، ولم يعد فى الإسلام عبودية ، إلا ما بقى فى بلاد الحجاز ، فما يزال هناك العبيد والإماء يباعون فى سوق النخاسة ويشترون .

وإن لم يستطع أن يشترى عبداً ويعتقه ، كان عليه أن يتجرع دواء

الصوم ، يصوم شهرين متواصلين ، فيكسب كفارة عن جريمة ، وتطهيراً لنفس جريئة على الشر ، ويكسب المجتمع رجلا تهذب بالصوم ، وتأدب بالحرمان ، وذاق حرارة الفسوق والعصيان .

فإن لم يستطع أن يصوم ، كان عليه أن يطعم ستين مسكيناً من المسلمين ، فيكسب المساكين طعاماً من أخ مسلم مخطئ ، فيطعمون ، ويتعظون ، فلا يقعون فيما وقع فيه من خطأ .

* * *

أسمعت كل هذا يا أوس بن الصامت ، يا من ظاهرت من زوجتك خولة بنت ثعلبة . فأزعجتها ، وهددْت عليها بيتها ، فذهبتْ إلى رسول الله تبكي وتشكو ، وتلتمس عنده مخرجا ، ويقول النبي لها : يا خولة ، لقد حرمت عليه ، فلا يجمعكما سقف واحد .

وتقول خولة للنبي : يا رسول الله ، كيف هذا ؟ وزوجي لم يذكر كلمة الطلاق ؟

فيقول لها النبي : يا خولة : المظاهرة شر أنواع الطلاق !

فتقول خولة : وأولادي وبيتي يا رسول الله ؟

فيقول النبي لها : يا خولة ، لابدَّ من الفراق .

وتجادله ويجادلها ، وتتلمس حلا للعقدة ، وتفريجاً للأزمة ، وليس عند النبي من حلٍّ مشروع ، ولا قرآن منزل .

* * *

وخولة مكروبة محزونة ، زائغة البصر ، مرجوفة من الخراب والتشتيت .

* * *

فرفعت رأسها إلى السماء ، واتجهت إلى الله ، تسأله وتدعوه .

ويقول الله — ادعونى أستجب لكم .

واستجاب الله لها ، فنزل الوحى ، وأسمع النبى أربع آيات مفصلات :

قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير .

الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أُمهاتهم ، إن أُمهاتهم إلَّا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور .

والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير .

فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا .

فمن لم يستطع ، فإطعام ستين مسكينا .

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله .

الابتهال والمباهلة

نصارى نجران ، ونجران إقليم باليمن ، مثل قبط مصر ، ومثل سائر الأقطار والأقاليم ، التى حول الجزيرة العربية .

أقطار مظلمة بظلام الشرك والكفر ، وأطبق عليها الرهبان والأحبار ، والقسس والأساقفة ، وضربوا عليهم نطاقا من حديد ، واستولوا على عقولهم ، واستنزفوا أموالهم ، وأقاموا بينهم و بين العقل ونور الإيمان سدوداً وحدوداً .

إنّ كثيرا من الأحبار والرهبان ، ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

* * *

وكان لابد للنور الإلهى أن تمتد أشعته ، فتنير العقول ، وتبدد الأوهام ، وكان أن أرسل النبى كتبه إلى هذه الأقطار يدعوها إلى الله ، و يعرض عليهم الإسلام . و يرغبهم فيه .

وكان النبى طبيباً معالجاً ، والطبيب . يصف العلة ، و يقرر الدواء فإن شرح الله صدر المريض ، و تعاطى الدواء ، كتب الله له البرء والشفاء .

و إن أبى أن يتعاطى الدواء ، وركب رأسه ، واستحب أن يعيش عليلا ممروضا ، كان من حق الطبيب أن يخيِّره بين الرضا والخنوع للطب والتطبيب ، و بين أن تشتد عليه العلة ، فيهلك و يموت .

وكان من حق الطبيب ، إذا هو خشى على الأصحاء المخالطين والمجاورين لهذا العليل العنيد ، أن تتسرب إليهم عدواه ، وإذا هو خشى عليهم منه ، أن يتعمد الاختلاط بهم ، والاندساس فيهم ، وتحريضهم على أن يعودوا من صحتهم إلى مرضه ، وإذا رأى هذا المريض يثور فى الأصحاء ، ويعتدى عليهم ، ويهدد حياتهم ، كان من حق الطبيب أن يجبره على التداوى ، وأن يشهر عليه عصا التأديب ليعالج حمقه وسفاهته ، ويمرّض فيه سوء رأيه ، ويطبّب جهالته وغباوته .

* * *

إنما مثل محمد فى رسالته ، مثل الطبيب فى تطبيبه . .

فقد بعث إلى الناس رسائل ، تفصح عن خطر الشرك والكفر ، وتوضح نور التوحيد والإيمان ، وتبشر بالرضا والهداية ، وتنذر بالعذاب والخسران .

فبعض الناس اهتدى وآمن ، وبعض الناس ركب رأس الشيطان ، وأمعن فى الكفران ، وحمل السلاح ونزل الميدان .

* * *

والنبى طبيب البشرية ، قيّم على هؤلاء الحمقى الخاسرين ، بتكليف من الله .

إنْ يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون .

فقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله .

وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم .

أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن شهدوا ، حقنوا دماءهم ، وأنفسهم وأموالهم ، إلا بحق من حقوق الله .

* * *

ومن حق القيم ، أن يكتب ويرسل ويدعو هؤلاء إلى الله .

وبعث إلى المقوقس ، عظيم القبط بمصر ، يخيره بين ثلاث .

الإسلام وهو خير ، أو الجزية ، وهى مسالمة وخضوع وفترة تفكير لعلهم يسلمون ، أو الحرب ، وهى القسر ، وتعقيل الجاهلين ، وتأديب العاصين .

وآثر المقوقس ، أن يدفع الجزية ، ويقدم المال ، ويبعث بالهدايا ، وكانت هداياه عجيبة ، فرساً تركب ، وتقديم الفرس للراكب ، خضوع وتسليم ، وطبيباً يداوى ، وفى تقديم الطبيب ، رجاء للصحة والعافية وامتداد للأمل ، وفتاة مصرية قبطية جميلة ، وفى تقديمها ، تقديمٌ للخدمة ، وتسليم للعرض ، امتحانا فى الاحتفاظ به وصيانته ، وقد يكون سببا فى الارتباط به ومصاهرته .

والخيل العربية أصيلة ، وليس لها فى الدنيا نظير ، وعند العرب منها خير مما عند القبط بمصر ، وهم ركاب خيل من قبل أن يركب الناس .

والطبيب يعالج المرضى المعلولين ، ومحمد طبيب النفس والجسد ، ودستور دينه ، لا يدع الشعب يمرض ، وليس فى المسلمين مريض يعالج .

ونحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، فمن أين نمرض ؟

ويا طبيب الاسكندرية ، احمل سلامنا إلى أهلك ، واشكرهم على إهدائك ، فرضا كم أولى بك ، ولعلك تعود إلينا ، ومعك أهلك ، مسلمين .

وأنت أيتها الفتاة القبطية ، عزيزة على قومك ، وأنت حبل من حبال ودادهم ، ووصلة تربطنا بهم ، وإعزازك إعزاز لهم ، واستمالة لميولهم ، والتصاهر بك ، تمهيد لطريقهم ، وتوريط لهم ، فأنت مقبولة لدينا ، كريمة علينا ، وبين يدينا وعينينا ، ولعل الله يسوق منك الخير والولد إلينا .

ونصارى نجران ، فى قبضة الرهبان والأساقفة ، والحبر يقبض على لجامهم بيده ، ويهمس ويوسوس ، ويقدر ويعبر ، والناس من حوله لا يرون إلا مايرى .

وقد رأى كتاب محمد ، وفيه التخيير بين الإسلام والجزية والقتال .

ورأى أن يرد على محمد ، بأن يرسل إليه وفداً يجادله ويحاوره ، ويفحمه ويغلبه ، فعنده المجادلون المحاورون .

وجاء وفد نصارى نجران ، يلبسون مسوح الرهبان ، ويتختمون بالذهب الرنان ، ويتوشحون بالصلبان ، ودخلوا على محمد ، وألقوا الهدايا بين يديه .

والناس من قديم يرون أن الهدايا ، تستميل القلوب ، وتهدئ الثائر ، وتشترى الذمم ، وتقلب الحق زوراً وبهتاناً ، وأن الهدايا لها فعلها فى النفوس فكم من حق غطت عليه الهدية فضاع ، وكم من باطل دهنته الهدية ، فلمع وسطع ، وأخفى بَرِيقُه الحقوق .

والهدايا تتوه فى الرشوة ، ويختلط الحق بينهما ، ونَدَرَ فى الناس مَن يفرق بين هذه وتلك .

و بلقيس اليمنية ، ملكة سبأ ، وهى مجاورة لنجران ، ظنت أنها بهداياها ستشترى ذمة النبى سليمان ، ففهم مغزاها ، وقال : أتمدوننى بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون .

وقد قبل محمد ، هدايا المقوقس عظيم القبط بمصر ، وهدايا قسيس نجران ، فقبول الهدية ، تكريم للمهدى ، و إيناس له ، وقبول لوداده ، ورفع للتكاليف بين المتهادين ، وطمأنة للوافد ، ومفاتيح للقلوب المغلقة ، ومسح لصدأ الجفوة .

ثم عرض محمد عليهم الإسلام والتوحيد ، وحدَّثهم أن إنجيل عيسى ، ينادى بأنْ لا إله إلا الله ، ولا ولد لله ، وأنه لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فلا عزير ابنه ، ولا المسيح ابنه .

* * *

فها هو ذا محمد ، قد اقتحم عليهم ميدانهم ، فتكلم فى عيسى نبيهم قبل أن يكلموه ، وفتح لهم باب الحديث فى عيسى ، وجرهم إلى الجدال والمحاورة .

فسألوه : وما ذا ترى فى عيسى نبينا ، وما حكمك عليه . وما رأى دينك فيه ؟

فأنزل الله عليه من القرآن : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن . فيكون . الحقُّ من ربك فلا تكونن من الممترين .

فسألوه : أليس عيسى من روح الله ؟ فيكون بذلك ابن الله ، ويكون الله أباه ؟

وحاجُّوه ، وحاوروه ، وداوروه ، وأكثروا جداله ، وأصروا أن عيسى ابن الله .

وأفرغ جهده فى إقناعهم ، وطرق أسماعهم ، ودحض افترائهم ، فلما رأى منهم ، انغلاق صدورهم ، وجمود قرائحهم وتنطعهم فى مكابرتهم ، لجأ إلى الله ليحكم بينه وبينهم ، فالله ذاته موضع الخلاف بين حقه وضلالهم .

فمن يفصل بين الحق والضلال إلا الله ؟

* * *

تعالوا يا نصارى نجران ، ندعو أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، نجتمع فى ميدان ، ونضرع إلى الله بِنَفَس طاهر ، وقلب مخلص ، نسأله ونبتهل إليه ، أن يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وأن ينزل لعنته ، ويطرد من رحمته ، مَنْ كان منا أو منكم ، كاذباً مفترياً ، ضالا مضلِّلا .

فإن كان دينكم الحق ، وديننا الباطل ، لعننا الله ، وخسف بنا ، ومسخنا قردة وخنازير .

وإن كان ديننا الحق ، ودينكم الباطل ، لعنكم الله ، وخسف بكم ، ومسخكم قردة وخنازير .

* * *

إذن هى المباهلة والملاعنة ، والابتهال إلى الله ، أن ينزل غضبه ولعنته على من يكذب على الله .

وإذن هى مجابهة الله ، ليفصل بين أنبيائه !

وإذن فهو الموت أو الحياة !

* * *

وبُهت نصارى نجران ، وأسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم بين مِطرقة الإيمان ، وسندان الشرك والكفران ، وأن المطرقة بيد الله ، وليست فى يد محمد ، ولا فى يد عيسى .

* * *

فاستمهلوا محمداً إلى غده ، حتى يُديروا الرأى ، ويفصلوا فى الأمر ، فإما شجاعة وجراءة ، وصراحة فى الحق ، وإما التياث وانغماس فى أوحال الباطل !

نور وظلام ، وإيمان وكفران ، وجنة ونار ، وتصديق وتكذيب لما قرأنا فى الإنجيل ، قول المسيح : ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وهذا هو أحمد محمد ، يدعونا وينذرنا ، ويتوعدنا غضب الله .

* * *

وعاد النصارى يقولون : لا نستطيع يا محمد مجابهة الله ، فأعْفنا ، واعفُ عنا ولك علينا الجزية ، ندفعها خاضعين ، ألفيْ حلة حمراء ، وثلاثين درعاً من حديد . ونعيش إلى جوارك ، وفى ذمتك ، نرعى لك حقك ، وتُبقى علينا ديننا ، حتى تستنير بصائرنا ، ويكشف الله عن أبصارها ، ويهدينا سواءَ السبيل .

ويقول النبى محمد :

والذى نفسى بيده ، لو تباهلوا ، لَمُسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على الشجر .

فهرس الكتاب